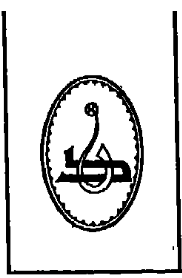
قيادة الرسول ﷺ

السياسية والعسكرية

تأليف

احمد راتب عرموش

دار النفائس



قيادة الرسول ﷺ

السياسية والعسكرية

بسم الله الرحمن الرحيم

قيادة الرسول ﷺ
السياسية والعسكرية

تأليف

احمد راتب عرموش

دار النفائس



للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب ١٤/٥١٥٢
برقياً: دانفايسكو - ت ٨١٠١٩٤
أو ٨٦١٣٦٧ بيروت - لبنان

الطبعة الأولى : ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م
الطبعة الثانية تصوير بالأوفست عن الطبعة السابقة : ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م

إهـداء

إلى قائدٍ ، منارةً ، تضيءُ الطريق أمام أجيالنـا الصاعـدة ، وتبدِّدُ الظلام في دنيا هذه الأمة . . .

إلى قائدٍ ، محمدٌ رسولُ اللّه (ﷺ) قدوتُه . . فلو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره ، على أن يتنازل عن حقوق أمته ، أو يترك ما يؤمن به ، لا يتركه ولو هلك دونه . .

أحمد راتب عرموش

مُقَـدّمَـة

﴿ لَقد كانَ لكُم في رَسولِ اللهِ أسوةٌ حَسَنةٌ لمن كانَ يرجُو اللهَ واليومَ الآخرَ وذكرَ اللهَ كثيراً ﴾[1] .

إن نظرة واقعية إلى العالم الإسلامي المعاصر ، تكشف لنا أن التخلف أحد سماته الرئيسة ، بل صفة ملازمة له منذ عدة قرون . والمسلم المعاصر الذي يقرأ في كتب التراث عن أمجاد المسلمين الأولين وفتوحاتهم وحضارتهم تذهله المقارنة بين الماضي والحاضر ، ولا يجد مناصاً عن طرح سؤال مهم « أين الخطأ ؟ »، وفي أية ناحية يكمن الخلل : أهو في القيادة ، أم في المفاهيم ؟ ، وربما تجرَّأ بعض الجاهلين بالإسلام فتساءل : أم هو في الإسلام ذاته الذي جاء قبل أربعة عشر قرناً ، فلم يعد صالحاً لهذا العصر ؟ .

وبما أنّ ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرات ، فإن فكرة العودة إلى قيادة العالم كلِّه ، وإنقاذ البشرية من التردِّي الماديّ والروحي والأخلاقي فكرة تراود كل مسلم مخلص . ولمّا كانت نهضة كل أمة في التاريخ ارتبطت بقائد سار بها على دروب المجد ، فإن دراسة حياة محمد بن عبد اللّه ﷺ ، والاقتداء به ، تبقى أهم وسيلة لنهضة المسلمين وبعثهم من جديد .

(1) الأحزاب ، ٢١ .

لم يكن محمد ﷺ قائداً كالقادة الآخرين ، فهو رسول الله إلى البشرية جمعاء ومُبلِّغ دينه المنقذ من الضلال . ولكن الله عزّ وجلّ لم ينفِ عن نبيّه صفة « البشرية » في قوله تعالى : ﴿ **وما مُحمدٌ إلا رَسولٌ قد خَلت من قبلهِ الرسلُ أفإن ماتَ أو قُتل انقلبتُم على أعقابِكُم ، ومن ينقلب على عَقِبيهِ فلن يضرَّ الله شيئاً** ﴾[1] ، ﴿ **قُلْ إنَّما أنا بشرٌ مثلُكم يُوحى إليّ** ﴾[2] . . لكنه بشرٌ ذو خلق رفيع ، وصفه اللّه عز وجل بقوله ﴿ **وإنَّك لعلى خُلُقٍ عَظيم** ﴾[3] ، وأمر المسلمين بالاقتداء به ، ﴿ **لَقد كانَ لكُم في رَسولِ اللّهِ أسوةٌ حسنةٌ** ﴾[4] .

ومن الطبيعي ألا يستطيع الكاتب الفصلَ بين محمد النبي ومحمد القائد ، ومع ذلك سنحاول أن ندرس الصفات القيادية في هذه الشخصية العظيمة لتكون القدوة الحسنة لمن يتصدى للقيادة .

ليس الهدف من دراسة قيادة محمد ﷺ جعله قائد ثورة ، أو صاحب مبدأ فلسفي ، أو مصلحاً اجتماعياً ، كما فعل بعض الكتّاب المعاصرين ؛ فالإسلام دين اختار الله عز وجل محمداً ﷺ لتبليغه . وشاء خالق الأكوان أن يكون ذلك اليتيم القادم من وادٍ غير ذي زرع أعظم عظماء الدنيا ، وأن يتمكن أتباعه من تغيير معالم الخريطة البشرية لسكان الأرض ، حتى ان العقاد يقول صادقاً محقاً : « إن التاريخ كله بعد محمد ﷺ متصل به مرهون بعمله ، وإن حادثاً واحداً من أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد ﷺ[5] .

---

(١) آل عمران ، ١٤٤ .
(٢) الكهف ، ١١٠ .
(٣) القلم ، ٤ .
(٤) الأحزاب ، ٢١ .
(٥) العقاد : موسوعة ، ج ٢ ص ١٦٠ .

ويقول مفكر غربي معاصر :

« هنالك كثير من الحوادث التاريخية الهامة من المحتمل أن يقول المرء إنها حتمية الحدوث وكانت ستحدث رغم عدم وجود الزعيم الذي قادها ، . . .

ولكن هذا لا ينطبق على الفتوحات العربية [الإسلامية] ، وذلك لأنه لم يحدث أي شيء مشابه لهذا قبل محمد ﷺ ، وليس هنالك من سبب يحدونا للاعتقاد أنها كانت سوف تحدث بدونه . فالفتوحات المشابهة في تاريخ البشرية هي فتوحات المغول في القرن الثالث عشر ، التي كانت ناتجة عن شخصية جنكيزخان ، ومع أنها كانت أوسع من الفتوحات العربية ، فالمغول في الوقت الحاضر ، غير موجودين إلا في المناطق التي كانوا يشغلونها قبل جنكيزخان .

وفي الفتوحات الإسلامية يختلف الحال ، فابتداء من العراق شرقاً حتى مراكش غرباً شعوب يوحِّدها الدين واللغة والتاريخ والثقافة المشتركة .

«ومن هذا نرى أن الفتوحات العربية التي تمت في القرن السابع ، استمرت لتلعب دوراً هاماً في تاريخ البشرية حتى يومنا هذا ، وإن هذا الاتحاد الفريد الذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً مما يخوِّل محمداً ﷺ أن يعتبر أعظم شخصية مفردة ذات تأثير في تاريخ البشرية[1] » .

وأضيف : إن محمداً ﷺ نسيج وحده ، لا يقارن بغيره من القادة المشهورين في التاريخ ، لا جنكيزخان ، ولا نابليون ، ولا هتلر ، ولا غيرهم .. فأولئك القادة الذين سُطِّرت في سِيَرِ حياتهم وحروبهم مئات

---

(١) هارت د . مايكل : المائة الأوائل ، ص ٢٤ وما بعدها .

المؤلفات لم يتجاوزوا في الواقع مقام الحكام المستبدين الظالمين أو مجرمي الحرب ، سفكة الدماء .

إن عظمة محمد ﷺ تتعدى حدود القيادة العادية . فمن المعروف أن تنشئة جيل جديد على مبادىء معينة أمر قد ينجح ، مع أن معظم القادة ، أصحاب المبادىء ، انقلب عليهم أتباعهم ، وثار عليهم تلاميذهم . بيد أن تغيير مفاهيم رجال تجاوزوا سن الرشد بشكل كامل ، وإقناعهم بمبادىء تخالف ما ألفوه وشبّوا عليه أمر معجز خارق للعادة والمألوف .

ولكي ندرك أهمية الانقلاب الذي حققه محمد بن عبد الله ﷺ بالإسلام لا بد لنا من مقارنة حال العرب قبل الإسلام بحالهم بعدهُ . ولعلّ وصف جعفر بن أبي طالب حال العرب قبل الإسلام لنجاشي الحبشة يعطي صورة واضحة عن تلك الحال . قال جعفر : « أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القويّ منّا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا »[1] .

ووصفهم يزدجرد ، ملك الفرس ، أمام وفد المسلمين الذي جاء يفاوضه قبل معركة القادسية ، فقال :

« إني لا أعلم أمةً في الأرض كانت أشقى ولا أقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بينٍ منكم[2] . قد كنا نوكل بكم قرى الضواحي فيكفوناكم[3] ، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم ! فإن كان عدد لحق فلا يغرنكم

---

(١) ابن هشام : السيرة ج ١ ، ص ٣٥٩ .
(٢) أي : أسوأ حال .
(٣) أي يكفونا إياكم ، أو يكفونا أمركم .

منا . وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم ، وأكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم »[1] .

وهذه النظرة تكمل الصورة التي عرضها جعفر . ويوضحها أكثر ، جواب المغيرة بن زرارة الأسدي ، الناطق باسم الوفد على قول يزدجرد . قال المغيرة : « فأما ما ذكرت من سوء الحال فما كان أسوأ حال منا ، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع . كنا نأكل الخنافس والجعلان[2] والعقارب والحيات ، فنرى ذلك طعامنا . وأما المنازل فإنما هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم . ديننا أن يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض . وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهي حيّة كراهةَ أن تأكل من طعامنا ، فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك ، فبعث الله إلينا رجلاً معروفاً . نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده [3] » .

هذه حال العرب قبل الإسلام بلسان أعيانهم وأعدائهم . أما حالهم بعد الإسلام فغنية عن الإسهاب في الوصف ونكتفي بمثل واحد من حياة عمر بن الخطاب الذي وأد ابنته جاهلياً ، وحمل الطحين على ظهره ليطعم أمّاً فقيرة وأولادها الجياع مسلماً خليفةً .

بعدما وحّد الإسلام جزيرة العرب انطلقت جيوش المسلمين تحرر الناس في العراق وبلاد الشام وغيرها من الفساد وعبادة الطواغيت . . وعلى أبواب بيت المقدس وافق «بِطريقُها»[4] على تسليم المدينة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه شخصياً . فتوجه عمر إلى بيت المقدس ، يتناوب الركوب على دابة واحدة مع خادمه ، وبعد إبرام

---

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ص ٤٩٩

(٢) جمع جُعَل ، وهو نوع من أنواع الخنافس . .

(٣) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .

(٤) البطريق : القائد من قواد الروم .

الصلح خرج من كنيسة القيامة ليؤدي صلاةً حان وقتها . ولما سأله « البطريق » عن سبب عدم صلاته في داخل الكنيسة أجابه أنه يخشى أن يأتي الناس من بعده فيقولوا : هنا صلى عمر ، فيهدموا الكنيسة ويتخذوا مكانها مسجداً . . فبكى البطريق لأنه أدرك أن بشراً تلك مبادؤهم لا يمكن ان يُقاوموا أو يهزموا أو يزولوا .

وكلما خطرت هذه القصة في البال تقفز إلى الذهن أفكار شتى ، ويتساءل المرء : كم هي عظيمة مبادىء الإسلام وكم هي سامية أخلاقه ، وكم هي جليلة تربية محمد لأتباعه . وكم هي راسخة ثقة عمر بنفسه . فهو يدرك مكانته ويعرف أن الناس يمكن أن يتخذوا من مكان صلى فيه مسجداً . . ويرتد الفكر خائباً عندما يستعرض قادة المسلمين ، فيرى كثيراً منهم يخاف النوم في قصره ، ويتهرب من مواجهة رعيته ، ولا يحب أن يكتب التاريخ بعده . . لما سيحوي ذلك التاريخ عنه .

لقد وضع محمد (ﷺ) أسس دولة الإسلام الشامخة، وأكمل خلفاؤه وصحابته البناء . ثم ذهبوا كما ذهب وسيذهب غيرهم ، فتخلف المسلمون . بينما الإسلام موجود ينتظر القيادة الصالحة الواعية ، القادرة على استيعاب الماضي والعيش في الحاضر . لهذا فإن دراسة الجانب القيادي في شخصية محمد ﷺ تلقي ضوءاً على أهم سبل بعث المسلمين من جديد .

وتحقيقاً لمنهجية البحث العلمي المتكامل ، فقد قسمت الكتاب إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : مرحلة الدفاع
الباب الثاني : مرحلة الهجوم
الباب الثالث : التحليل

وفي الباب الأول أربعة فصول :

- في الفصل الأول تحدثت عن جزيرة العرب والبيئة التي نشأ فيها النبي العربي ﷺ . ولاستيعاب هذا الأمر كان لا بد من وضعها في إطارها الجغرافي والبشري ، مع التركيز على حياة العرب وعاداتهم ومعتقداتهم قبيل الإسلام .

- في الفصل الثاني درست معركة بدر ، مبتدئاً بتمهيد عن الدعوة في مكة ، والهجرة إلى المدينة ، والإعداد العسكري في دولة المسلمين الأولى .

وبدأت بغزوة بدر لأنها المعركة الأولى ، التي خاضها المسلمون ضد المشركين ، ويمكن اعتبارها نقطة تحول حاسمة في حياة المسلمين .

- في الفصل الثالث تناولت بالبحث معركة أحد ، لأنها نموذج مختلف عن معركة بدر في أسلوب القتال وفي النتائج كما سنرى .

- في الفصل الرابع درست غزوة الأحزاب ، لأنها تشكل تحولاً تاريخياً مهماً في تاريخ المسلمين ، وهي نموذج مختلف أيضاً عما سبقها ، تميز بمفاجأة المشركين بالخندق حتى اشتهرت به « فسميت غزوة الخندق » .

وفي الباب الثاني أربعة فصول :

- في الفصل الأول بحثت قصة الحديبية لأهميتها ونتائجها ، فهي وإن لم تكن معركة بل اتفاق هدنة فقد اعتبرت فتحاً مبيناً .

- في الفصل الثاني أوجزت أحداثَ ما بعد الاتفاق استكمالاً لمختصر السيرة ولربط الأحداث السابقة بالأحداث اللاحقة .

ـ في الفصل الثالث بحثت في فتح مكة ، الذي أنهى زعامة قريش الجاهلية . وكان بداية سيادة المسلمين الكاملة على جزيرة العرب .

ـ في الفصل الرابع أوجزت أحداث ما بعد الفتح ، فتحدثت عن غزوة حنين وحصار الطائف واستكمال الركائز النهائية للدولة الإسلامية .

وفي الباب الثالث ثلاثة فصول :

ـ في الفصل الأول قدمت تحليلاً شاملاً لقيادة الرسول العسكرية .

ـ في الفصل الثاني عرضت قيادة الرسول السياسية .

ـ في الفصل الثالث حاولت أن ألقي بعض الأضواء على المعايير القيادية ومقوماتها في الماضي والحاضر .

* * *

وقد قدَّمت القيادة السياسية في العنوان ، رغم تأخرها في البحث ، لأنها الأهم والأعم والأشمل .

وسمَّيت « الغزوة » أحياناً « معركة » ، لأن الاسم المتداول بين الناس لأيٍّ تقاتلٍ بين طرفين هو « معركة » بينما درجت كتب السيرة والتاريخ على تسمية خروج الرسول(ﷺ) على رأس جيش أو مجموعة من الأفراد في مهمة عسكرية « غزوة » وإرساله جيشاً أو مجموعة أفراد في مهمة عسكرية قتالية أو استطلاعية ، بقيادة أحد صحابته « سرية » . ولذلك فإن الغزوة إن حصل فيها قتال فهي « معركة » . والسرية إن حصل فيها قتال فهي معركة أيضاً .

الباب الأول

مرحلة الدفاع

وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : أرض الدعوة وبيئتها
الفصل الثاني : معركة بدر الكبرى
الفصل الثالث : معركة أحد
الفصل الرابع : غزوة الأحزاب (الخندق)

الفصل الأول

أرض الدعوة وبيئتها

﴿ رَبَنا إني أسْكَنتُ من ذُرِّيتي بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ عند بيتكِ المُحرّم . ربنا لِيُقيموا الصلاةَ فاجْعَل أفئدةً مِنَ الناسِ تهوي إليهم وارزُقْهمُ من الثمرات ﴾[1] .

---

١ ـ أرض الدعوة

الإنسان ابن بيئته تؤثر فيه ويؤثر فيها . فالطبيعة في أية منطقة تفرض على السكان ما يأكلون وما يلبسون ، بل تؤثر في ألوان جلودهم وسلوكهم وطريقة معيشتهم . فسكان المدن يختلفون عن سكان الأرياف ، وسكان الجبال يختلفون عن سكان السهول . والذين يعيشون في مناخ بارد يختلفون في طبائعهم عن الذين يعيشون في مناخ حار .

الشمس تعطي السمرة ، والجبال تفرض القسوة ، والسهول تولد السلاسة . . ولا بد لدارس أيّة شخصية من البدء بإلقاء الضوء على البيئة التي نشأت فيها تلك الشخصية ، لما للبيئة من أثر في تكوين شخصية الإنسان . وليس من الضروري عندما نقول إن الإنسان ابن بيئته أنه ينشأ عبداً لهذه البيئة ، يأخذ بأعرافها ، ويطبق تقاليدها مهما كانت عليه تلك

---

(١) ابراهيم ، ٣٧ .

الأعراف والتقاليد من السموّ أو التدنـي ، فالواقع يخالف هذا . وكثير من الناس ينشؤون في بيئة ثم يثورون على هذه البيئة . إنما المقصـود بأن الإنسان ابن بيئته ، أي أن البيئة تساهم إلى حد كبير في تكوين شخصية الإنسان . فهو إن عايشها فهي التي ساهمت في صناعة هذه المعايشة ، وإن ثار عليها فهي التي ساهمت في صناعة تلك الثورة[1] .

جزيرة العرب

والرسول العربي ﷺ نشأ في مكـة المكرمـة ، أهم مدن الجـزيرة العربية . وجزيرة العـرب هي شبه جـزيرة تمتـد حوالي الألفي كيلومتـر طولاً ، هو طول البحر الأحمر ، ويبلغ عرضها ما يقارب ذلك في أعرض أقسامها بينما يقل حتى يصـل إلى الألف كيلومتر في الشمـال . ويحدد شكلها العماد طلاس فيقول : « للجزيرة العربية شكل رباعي غير منتظم يبلغ طوله من الشمال الغربي حتى الجنـوب الشرقي ٢٢٠٠ كـم ويبلغ عرضه ١٢٠٠ كـم . وهذا الشكل الرباعي غير متوازي الأضلاع[2] » . وهي محاطة بالبحار من جهاتها الثلاث : الخليج العربي ، ثم بحر العرب والمحيط الهنـدي من الشرق والجنـوب ، والبحر الأحمـر من الغرب ، ويحدها من الشمال بلاد الشام .

أقسام الجزيرة العربية :

«اختلف في تحديدها ـ جزيرة العرب ـ وأحسن ما قيل فيها ما ذكره أبو المنذر هشام بن محمد بن الســائب مسنداً إلى ابن عبـاس ، قال : اقتسمت العرب جزيرتها على خمسة أقسام ، قال : وإنما سميت بـلاد

---

(١) قلعه جي : دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ ، ص ٩ .

(٢) طلاس : الرسول العربي وفن الحرب ، ص ٢٤ .

العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها ، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر [1] . . » .

« فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة التي نزلوها وتوالدوا فيها على خمسة أقسام عند العرب في أشعارها وأخبارها : تُهامة والحجاز ونجد والعَروض واليمن ، وذلك أن جبل السَراة ، وهو أعظم جبال العرب وأذكرها ، أقبل من قعرة اليمن حتى بلغ أطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً ، لأنه حجز بين الغور ، وهو تهامة ، وهو هابط ، وبين نجد ، وهو ظاهر [2] . . » .

١ ـ تهامة :

وهو السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر ، الممتد عرضاً بين البحر وسلسلة جبال السراة . وهذا السهل يضيق شمالاً فيتصل الجبل بالبحر . وسمي تهامة من التُهم « شدة الحر مع ركود الريح [3] » . وهي شديدة الحر ، عالية الرطوبة .

وشط البحر الأحمر مليء بالجبال المرجانية تحت الماء ، وهي تشكل خطراً على الملاحة لذلك لم يشتهر سكان الساحل بالملاحة ، وتقل الموانىء فيه .

٢ ـ الحجاز :

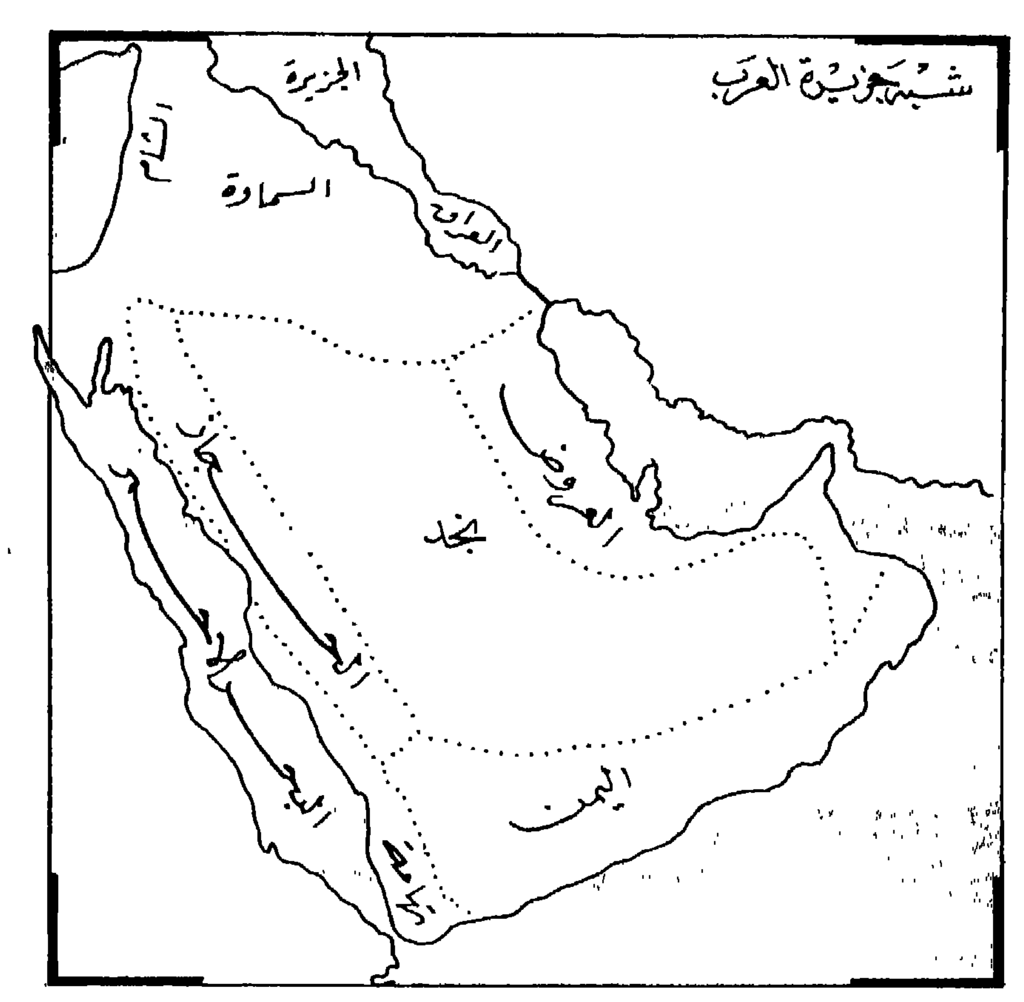
وهو سلسلة جبال السَراة التي تمتد بين اليمن والشام بعرض وسطي يبلغ ١٧٥ كم تقريباً يزيد أو ينقص . وقد سمي حجازاً لأنه يحجز بين تهامة ونجد وقيل بين اليمن والشام ، ويشتد الحر في جباله صيفاً والبرودة شتاءً وتقل الوديان في شماله ، ويعتمد سكانه على بعض العيون القليلة .

---

(١) و (٢) الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ص ١٣٧ .

(٣) راجع لسان العرب ، مادة تهم .

وفيه تقع مكة : مكان مولد الرسول ﷺ والمدينة : مكان هجرته ، وفيها يقع قبره[1] ، والطائف : المدينة المشهورة جنوب شرق مكة .



أقسام شبه جزيرة العرب
(كمال : الطريق إلى المدائن . ص ٣٥)

٣ ـ نجـد :

وهو في اللغة المرتَفَع ، وسمي بذلك لارتفاع أرضه . ويبـدأ من حدود اليمن وينتهي عند صحراء السَماوة « بادية الشـام » شمالاً . ومن

---

(١) كمال : الطريق إلى المدائن . ص ٣٥ .

الخليج العربي شرقاً وحتى الحجاز غرباً . وتكثر فيه المراعي ، ويَشتهر بالخيول العربية .

٤ ـ اليمــن :

ويقع إلى الجنوب من نجد على الساحل الجنوبي ، ويشمل شرقاً حَضْرموت والشَحر وعُمان .

٥ ـ العَــروض :

وسمي عَروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق . ويشمل اليمامة والبحرين . وفيه جبال وأودية وسهول ، كانت تسد حاجة الجزيرة من القمح . (انظر الخريطة ص ٢٠) .

والجزيرة بوجه عام صحراء قاحلة لا نهر دائم الجريان فيها ، وتكثر فيها الجبال الجرداء والحِرار[١] . وفيها الكثير من الوديان . وأعظم أودية الجزيرة : الدهناء ، ويسمى وادي الرمة . وهذا الوادي هو الطريق بين المدينة والعراق[٢] وتقل الأودية في شمال الحجاز ويعتمد أهله على العيون الضئيلة .

وقد أحاطت الطبيعة بلاد العرب بسور جدّ متين لا يسهل على غير أهلها التسلل خلاله إلى قلبها . فإن أراد غريب دخولها من الشمال اعترضته صحراء النفوذ المترامية . وفيها كثبان [٣] الرمل المتنقلة الخالية

---

(١) الحرّة : هي في لسان العرب أرض ذات حجارة سود نخرات . ويوجد في جزيرة العرب مساحات تكبر أو تصغر من الأرض توجد فيها قطع حجرية سوداء كبيرة ، ليست صخوراً متصلة بل هي أحجار كبيرة غير متصلة بعضها ببعض ، تعيق الزراعة والسير والحياة . وهناك تكهّنات بأنها أحجار سقطت من اجرام سماوية أخرى في ظروف اضطرابات في النظام الشمسي مغرقة في القدم ، وذلك لاختلافها عن طبيعة الأرض التي توجد فيها .

(٢) كمال : الطريق إلى المدائن ، ص ٣٧ .

(٣) كثبان : جمع كثيب ، وهو تل الرمل .

من النبات [1] ، بينما هي محاطة من بقية الجهات بالبحار .

ويوجد في جزيرة العرب رياض[2] . وتتراوح مساحة الروضة بين المائة متر والميل المربع . « وذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان مائة وستاً وثلاثين روضة كانت في بلاد العرب[3] .

أما معظم أراضي الجزيرة فهي صحارى ، أشهرها الربع الخالي الذي تبلغ مساحته مليون كيلومتر مربع ثم النفوذ الكبرى ، وصحراء الدهناء .

والأراضي الخصبة محصورة في اليمن وعُمان والأحساء وبعض نجد . وفي الجزيرة العربية كثير من الحرّات كما ذكرنا أشهرها « حرَّة واقِم » في المدينة التي سيرد ذكرها في غزوة الخندق .

المنـــاخ :

يقطع مدار السرطان الجزيرة العربية ماراً بين مكة ومسقط ورأس الحد ، مما جعل فصل الصيف حاراً ، فتصل درجة الحرارة قرب الساحل إلى خمسين درجة مئوية ، مع ارتفاع كبير في درجة الرطوبة يصل إلى تسعين بالمائة ويندر أن تحجب الغيوم الشمس بينما يمكن أن تحجبها الرمال والغبار .

أما الشتاء فهو معتدل في تهامة ، بينما تشتد البرودة في المناطق الجبلية وبخاصة ليلاً . وأما المناخ في داخل الجزيرة فهو صحراويّ شديدُ

---

(١) كمال ، الطريق الى المدائن ، ص ٣٩ .

(٢) جمع روضة ، وهو المكان الذي يستنقع فيه الماء ، إذا هطلت الأمطار تنبت فيها الأعشاب فترعى الأنعام .

(٣) كمال : الطريق الى المدائن ، ص ٣٨ .

الحرارة نهاراً ، شديد البرودة ليلاً . وقد يمتد الجفاف سنوات ، وإن هطلت الأمطار فتهطل بغزارة وتصحو سريعاً . ومعدل المطر السنوي لا يزيد عن ١٠٠ مم[١] ، وهي تكفي لنمو بعض النباتات البرية التي ترعاها الماشية .

وإذا تأخر المطر ساءت الأحوال ، فيضطر العرب إلى الترحال طلباً للكلأ والماء . وهذا ما قلل من ارتباط السكان بالأرض وعلَّمهم دوام الترحال ، وجعلهم يعتمدون على الإبل لأنها قادرة على العيش في مناخ الصحراء القاسي ، وعلى تحمل الجفاف والعطش .

الثروة النباتية والحيوانية :

ذكرنا أنه لا نهر دائم الجريان في جزيرة العرب ، وفيها عدد كبير من الوديان التي تسيل فيها المياه شتاءً وتجف صيفاً ، وأهمها :

وادي السَرحان الذي يبلغ طوله حوالي ٣٠٠ كم . ووادي الحَمض ، ووادي الرّمة ، ووادي الدواسِر ، ووادي عَرْعَرْ . وفيها كثير من العيون الصغيرة في الواحات . وقد اشتهر الحجاز بالنخيل واليمن بالبنّ والقمح والطائف بالكرمة .

وحيوانات الجزيرة الأليفة هي الإبل والخيل والأغنام والماعز والأبقار والحمير والبغال ، وفيها من الحيوانات البرية الأسد والنمر والفهد والذئب والضبع والثعلب .

ويكثر فيها الجراد ، وكان يتكاثر أحياناً فيقضي على الأخضر واليابس في الجزيرة كلها حيث كانت وسائل مكافحته شبه معدومة .

---

(١) بدران : اطلس العالم ، ص ٦٨ .

٢ ـ بيئة الدعـوة

نشأ عن طبيعة الجزيرة العربية واضطرار العرب للانتقال طلباً للماء والكلأ ، النظام القبلي ، ضرورة اجتماعية وحيوية حتى عاشوا وتنقّلوا في جماعات ، قبائل وعشائر ، توفّر لأفرادها الحماية والأمن .

وقد بلغ من تأصل الحياة القبلية وعمقها أن لم يقتصر وجودها على البادية بل تعدّاها إلى الحواضر على قلتها وتناثرها في الجزيرة . فنجد أن كل مدينة كانت تقسم في داخلها إلى أحياء سكنية يسكن كلَّ حيٍّ قبيلة .

وكان مما انطبع به الفرد العربي اهتمامه بمظاهر البطولة ، وإظهار الفروسية ، وكان لا يخضع لتنظيم ولا يرضى بقيادة . وقد اتصف بصلابة العود وقوة التكوين ، وسمرة شديدة في اللون بفعل حرارة الشمس وشظف العيش[١] .

وأهم حواضر الجزيرة مدينتا مكة والمدينة . وقد ولد الرسول ﷺ في مكة ، وفيها نشأ ، وفيها بعث ومنها بدأ دعوته ، فلاقى مقاومة شديدة واضطهاداً اضطراه إلى الهجرة إلى المدينة . فكيف كانت الحياة في مكة قبل الإسلام .

مكـة المكـرمـة :

يصف ياقوت الحموي مكة وأهلها ، فيقول :

« ومما زاد من فضلها وفضل أهلها ، ومباينتهم العرب ، أنهم كانوا حلفاء متآلفين ومتمسكين بكثير من شريعـة إبراهيم عليـه السلام . ولم يكونوا كالأعراب الأجلاف ، ولا كمن لا يوقّره دين ولا يزينه أدب . وكانوا

---

(١) كمال : الطريق الى المدائن ، ص ٤٧ .

يختتنـون أولادهـم ، ويحجون البيت ، ويقيمـون المنـاسـك ، ويكفنـون موتاهم ، ويغتسلون من الجنابة . وتبـرؤوا من الهربـذة[1] وتباعـدوا في المنـاكح من البنت وبنت البنت والأخت وبنت الأخت غيـرةً وبعـداً من المجوسية . ونزل القرآن بتوكيد صنيعهم وحسن اختيارهم[2] » .

ثم يقول :

« فجعل قصيٌّ مكةَ أرباعاً ، وبنى بها دار الندوة ، فلا تزوج امرأة إلا في دار الندوة ولا يُعقد لواء، ولا يعذر غلام[3]، ولا تُدَرَّعُ جارية[4] إلا فيها . وسميت الندوة لأنهم كانوا ينتدبون فيها للخير والشر [5] » .

وأما صفتها ، فهي مدينة في واد ، والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي محيطة حول الكعبة ، وبناؤها من حجارة سُود وبيضٍ مُلس . . . حارّة في الصيف إلا أن ليلها طيب . وليس في مكة ماء جار ولا شجر مثمر وفيها بئر ماء زمزم المشهور[6] .

وقد نشأ عن استقـرار قريش في مكـة ، وعن موقـع مكة الـديني والجغرافي ، نوع من التنظيم السياسي ، المختلط بالتنظيم الديني يمكن اختصاره في ما يلي[7] :

---

(١) فارسي معرب بمعنى عبادة النار (الصحاح) .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، م . س . ج ٥ ، ص ١٨٤ .

(٣) أي : يختن .

(٤) أي : تلبس الدرع ، وهو القميص ، يفعلون ذلك إذا بلغت مبلغ النساء ، إعلاناً عن أهليتها للزواج .

(٥) ياقوت : معجم البلدان ، م . س . ج ٥ ، ص ١٨٦ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ، م . س . ج ٥ ، ص ١٨٧ وما بعدها .

(٧) القاسمي : نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي ـ الحياة الدستورية ص ١٤ وما بعدها .

١ ـ **السِّدانة والحِجَابة :**

وهي خدمة الكعبة وبيت الأصنام ، وكانت لبني عبد الدار .

٢ ـ **السِّقاية والعِمارة :**

السقاية هي ما كانت قريش تسقيه الحجاج من الزبيب المنبوذ في الماء ، وكان يليها العباس بن عبد المطلب في الجاهلية والإسلام .

والثابت أن قريشاً كانت تجمع الأمرين : سقاية الحاج الماء ، وسقاية الشراب فأما الماء فلندرته ، وحاجة الناس الملحة إليه ، ولا سيما في فصل الصيف . وأما الشراب فتكريماً لضيوف بيت الله الحرام .

والعِمارة في هذا المصطلح هي أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام بهجر ولا رفث ولا يرفع فيه صوته .

٣ ـ **الرِّفادة :**

كانت الرفادة خَرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصيّ بن كلاب ، فيصنع به طعاماً للحاجّ ، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد . وكانت لبني هاشم في أرجح الأقوال .

٤ ـ **الأَيْسار :**

وهي الأزلام ، التي كانوا يستقسمون بها ، وتشبه سحب القرعة في هذه الأيام وكانت ولايتها في بني جُمَح .

٥ ـ **الأموال المُحجَّرة :**

وهي أموال كانوا يسمونها لآلهتهم . وفيها النقد والحلي ، وكانت ولايتها لبني سهم .

٦ ـ **دار الندوة :**

كانت قريش تجتمع فيها للمذاكرة والمشاورة في الأمور العامة والخاصة . والذي بناها هو قصي بن كلاب . وفيها كانت قريش تقضي

أمورها . فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش ولا يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا فيها.

وهذا التنظيم ، أو شبه التنظيم كان يسود في مكة ، أما بقية مناطق الجزيرة فقد كانت تعيش حياة قبلية خالصة ، باستثناء أطرافها ، حيث كان الغساسنة على تخوم بلاد الشام والمناذرة على تخوم بلاد فارس .

تجارة قريش :

كانت جزيرة العرب بحكم موقعها الجغرافي الطريق الإجباري للقوافل التي تحمل تجارة الهند إلى بلاد الشام ومصر ، والقوافل التي تعود ببضاعة بلاد الشام الى اليمن ومنها إلى الهند ، وكانت مكة أهم مركز تجاري في الطريق ، كما كانت قريش قبيلة الرسول تمتاز بمهارتها التجارية وبرجلتيها التجاريتين رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . ولتأمين تجارتها أنشأت ما سمي « بالإيلاف » .

والإيلاف معاهدات عقدتها قريش مع القبائل العربية المقيمة بين مكة وبلاد الشام ، أي حيث كان يبدأ نفوذ الروم . ومعنى الإيلاف اللغوي على ما ذكر المحققون : أمان الطريق بغير حلف . وقد سماه الأفغاني « المعاهدات التجارية »[1] .

« كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، فنزل بقيصر ، فلما رآه اعجب به ، فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : أيها الملك ! إن قومي تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب كتاباً تؤمن تجارتهم ، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم ، فأقبل هاشم بذلك الكتاب . فجعل كلما مر بحي من العرب

---

(١) القاسمي : نظام الحكم ، ص ١٣ عن الأفغاني : أسواق العرب ، ص ٣٢٤ .

بطريق الشام ، أخذ من أشرافهم « إيلافاً » ـ والإيلاف عندهم أن يأمنوا في أرضهم بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق ـ وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن فأخذ من ملوكهم عهداً لمن اتجر إليهم من قريش وأخذ الإيلاف كفعل هاشم »[1].

وفي الإيلاف نزلت سورة : ﴿ **لإِيلافِ قريشٍ * إيلافِهم رِحْلَةَ الشتاءِ والصيفِ * فليَعبُدوا رَبَّ هذا البيتِ * الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوف** ﴾.

المدينـــة :

تقع المدينة المنورة في شمالي جزيرة العرب ، وهي ثاني مدينة في جزيرة العرب بعد مكة . « وهي في حَرَّةٍ سبخة[2] الأرض ، ولها نخيل كثير ومياه ، ونخيلهم وزروعهم تسقى من الآبار عليها العبيد . . .[3] .

وأُحُدٌ الجبل المشهور في شمال المدينة يبعد عنها فرسخين (حوالي ١١ كيلو متراً) هو أقرب الجبال إليها وقد اشتهر في التاريخ الإسلامي بغزوة أحد المشهورة.

وسكان المدينة من العرب ، الأوس والخزرج ، قدموها من اليمن بعد خراب سد مأرب[4] وكانت القبيلتان على خلاف فيما بينهما ، وربما كان ذلك الخلاف أحد أسباب سرعة دخولهم في الإسلام إنهاء للحرب بينهما ، واستباقاً لليهود الذين كانوا يبشرون بنبي يسودون عن طريقه.

وكان في المدينة نسبة كبيرة من اليهود ، من بني قُريظة ، وقَيْنُقاع ،

---

(١) القاسمي : نظام الحكم ص ١٣ ـ ١٤ ، عن القالي أبو علي : النوادر .
(٢) أي ذات نزٍّ وملح .
(٣) الحموي : معجم البلدان ج ٥ ، ص ٨٢ .
(٤) الحموي : معجم البلدان ج ٥ ، ص ٨٥ .

والنضير وغيرهم . وسيرد ذكرهم كثيراً في هذا الكتاب لأنهم عاهدوا الرسول عندما قدم إلى المدينة مهاجراً ثم نقضوا عهودهم ، وناصبوا المسلمين العداء حتى أجلوا عن المدينة نهائياً .

أسواق العرب :

كان العرب يقيمون أسواقاً في أوقات محددة من كل عام ، وقد اشتهر منها عكاظ . يقول سعيد الأفغاني :

« ينزل السوق قريش وهوازن . . . وطوائف من أفناء العرب ، يؤمونها من العراق والبحرين واليمامة وعُمان والشَحَر واليمن وسائر أطراف الجزيرة . وهي عامة حتى أنه ليس فيها مكّاس ولا عشار[1] ، لأنه لم تكن في ملك أحد من الأمراء . وقربها من مكة ومشاعر الحج ألبسها حرمة تتقصف دونها مطامع الكبراء . ولعل من أهم ميزاتها صفتها العامة هذه[2] .

« هي إذن معرض عام للجزيرة العربية : فيها عرض لتجارات جميع الأقطار ، وعرض للبيوع ، وعرض للعادات والأديان ، واللغات والآداب ، وللسياسة . . . وفيها لجان رسمية ، على نحو ما نألف في معارضنا اليوم . تحكم للمتفوق بتفوقه . . . وتزيد عن معارضنا بميزة جميلة وهي صهرها لعادات القبائل ولغاتها ومواصفاتها لتنتقي منها أصلحها ، وأخلقها بالبقاء[3] .

الحالة الدينية :

كانت أكثرية العرب في جاهليتهم يعبدون الأصنام باستثناء نفر يسير

---

(١) المكاس : جامع المكس ، وهي الأموال التي كانت تؤخذ من بائعي السلع في أسواق الجاهلية . والعشّار : آخذ العُشر .

(٢) القاسمي : نظام الحكم ، ص ١٢ ، عن الأفغاني : أسواق العرب .

(٣) القاسمي : نظام الحكم ، ص ١٣ .

منهم كانوا نصارى مثل ورقة بـن نوفل ابن عم خديجة أم المؤمنين .

وكان في المدينة عدد كبير من اليهود . بينما اعتنقت قبائل غسان وتغلب وقضاعة النصرانية بحكم محالفتهم للرومان ومجاورتهم لبلاد الشام ، حيث كانت تسود النصرانية . وكذلك فقد كان في اليمن بعض اليهود وعدد من النصارى بحكم قربهم من الحبشة . ولكن بعضهم عَبَدَ الكواكب . وأما في البحرين والعراق فقد كان الناس يعتنقون المجوسية التي تقوم على تقديس النار ، لقربهم من بلاد فارس حيث كان يسود ذلك المعتقد .

ولكن وثنية العرب لم تكن كالوثنية المعروفة عند الشعوب الوثنية ، فهم لم يكونوا ينكرون وجود اللّه ، والقرآن الكريم نفسه يشهد بذلك : **﴿ قُل لِمن الأرضُ ومن فِيهَا إنْ كنتُم تَعْلَمون * سَيقولـونَ للّه قل أفَـلا تَـذكَّرون * قـل مَن ربُ السماواتِ السبـعِ وربُ العـرشِ العـظيم * سيقولونَ للّه قل أفلا تتقون * قل من بيدِه ملكوتُ كلِّ شيءٍ وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليه إن كنتم تَعلمون * سيقولـون للّهِ قل فـأنَّى تُسْحَرون * بـل أتيناهم بالحقِّ وإنهم لكاذبون﴾**[1] .

ويعتبرون أصنامهم وسيلة تقربهم إلى اللّه : **﴿ والذين اتَّخذوا من دُونهِ أولياءَ ما نَعبدُهم إلا لِيُقرِّبونا إلى اللّهِ زُلفى﴾**[2] ، **﴿ ويقولونَ هؤلاء شُفعاؤنا عندَ اللّه﴾**[3] .

كذلك كانوا يعتقـدون أن الملائكـة والنفوس الإنسـانية المقـدسة والسيارات السماوية (الكواكب) لها دخل في تدبير نظام الكون . ولذلك كانوا يرجعون في أمورهم إلى آلهتهم المصنوعة لا إلى اللّه عز وجل ، مع

(١) المؤمنون ، ٨٤ ـ ٩٠ .

(٢) الزمر ، ٣ .

(٣) يونس ، ١٨ .

أن إبراهيم بنى الكعبة في مكة رمزاً للتوحيد وبقي في الجزيرة بعض الموحدين لحين ظهور الإسلام . ونستنتج من ذلك أن الضلال والانحراف الذي أصاب العرب لا يختلف كثيراً عن الانحرافات التي أصابت الديانات التي سبقت الإسلام من إشراك مع الله وتقديس للمغيبات ، وغير ذلك مما لا مجال للتوسع فيه .

ولا يعرف بالتحديد مصدر الوثنية ولا كيف دخلت الجزيرة العربية . ويقال إن أصل عبادة الأصنام حدثت عندما كثر أبناء إسماعيل عليه السلام ، واضطروا إلى أن يخرجوا من مكة طلباً للعيش ، فكانوا يحملون عند خروجهم شيئاً من تراب الحرم الذي يَحملُ ذكرى الكعبة ، أثر أبيهم إسماعيل ، ثم جملوا[1] هذا التراب للحفاظ عليه ، وتطورت الذكرى إلى تقديس وعبادة[2] .

وكان العرب في جاهليتهم يحجون إلى مكة ، ولم يكن من الممكن الحج في ظروفهم القائمة على الغزو والقتل والسلب والنهب . فاتفقت مختلف القبائل على وقف القتال أربعة أشهر هي الأشهر الحرم ، وهي ثلاثة متتالية : ذو القعدة ، ذو الحجة ، ومحرم . وفيها يمتنعون عن القتال ، لأن مناسك الحج تؤدى في ذي الحجة وكان يلزمهم شهر قبلها للحضور الى مكة وشهر بعدها ليعودوا فيه إلى مواطنهم . أما رجب فقد حرم وهو في وسط السنة لأجل زيارة البيت والاعتمار[3] .

أصنام العرب[4] :

ونذكر فيما يلي أهم أصنام العرب ، وبخاصة تلك التي سيرد ذكرها

---

(١) أي : جمعوه .

(٢) قلعه جي : دراسة تحليلية لشخصية الرسول ﷺ ص ١٣ .

(٣) القاسمي : نظام الحكم ، الحياة الدستورية ص ١٠ وما بعدها .

(٤) ابن هشام: السيرة ، ج ١ ص ٨٤ وما بعدها .

في الفصول القادمة :

مَناة : كانت على ساحل البحر ، في المشلل[1] وكانت تعبده قبائل الأنصار وأزد ، وشنوءة ، وسعد ، وقضاعة . وهو أقدم أصنام العرب .

اللّات : كان بالطائف . تعبده ثقيف .

العُزّى : وهي شجرة عندها وثن بنخلة الشامية . كانت تعبده غطفان ، وغَنِيّ وباهلة .

هُبَلْ : أعظم أصنام قريش ، كان من العقيق الأحمر . كانت تعبده قبائل كنانة .

إساف ونائلة : إساف كان على الصفا . ونائلة على المروة وهما لقريش والأحابيش .

وَدّ : صنم لقبيلة كلب كان في « دومة الجندل » .

سُوَاعْ : كان بالقرب من يَنْبع . تعبده كنانة ، وهُذيل ، ومُزينة وعمرُ ابن قيس بن عيلان .

يَغُوثْ : كان في أنعم ، تعبده مذحج .

يَعُوقْ : كان في أرحب ، تعبده همدان وخولان .

نَسْر : كان في غمدان ، تعبده حِمْيَر .

جهار : كان في عكاظ ، تعبده هوازن .

ذو الخُلُصة : كان بالعَبْلاء[2] تعبده بَجيلة ، وخَثعم ، وجرم ، وزَبيد ، وبنو هلال بن عامر (ولفظه بضم الخاء واللام أو بفتحهما) .

---

(١) البلادي : معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص ٢٩٨ .

(٢) مكان بين ذي طُوَى واللِّيط في مكة . (البلادي ، معجم معالم الحجاز ، ج ٦ ، ص ٣٧) .

قبائل العرب[1] :

يتحدر العرب من أصلين كبيرين هما قحطان وعدنان ، وقد كـان موطن قحطان في اليمن ، وكان منهم حِمْيَر وأشهر حمير قُضاعة . وكان منهم كهلان ، وأشهرهم : همدان ، وأنمار ، ومذحج وطيء وكندة ولخم وجذام والأزد وأولاد جفنة ملوك صحراء الشام .

فلما انهار سد مأرب عام ١٢٠ قبل الميلاد خرج أبناء مأرب الى الجزيرة بحثاً عن منازل جـديدة تصلح لسكنـاهم ، فنزل الأزد المـدينة فاستوطنوها فكانت منهم الأوس والخزرج .

ومنهم من افتتح الحرم وأجلوا ساكنيه من جُرهم ، ومنهم من اتجه شرقاً الى عُمان أو غرباً إلى تهامة ، ومنهم من أوغل في سيره شمالاً حتى بلغ الشام فنزل على ماء غسان وأقاموا ملك الغساسنة المـوالي للروم . ومنهم من اتجه الى الحيرة بتخوم العراق وهم لخم بن عدي من أدد بن زيد بن كهلان ومعهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بـالحيرة فكـان ملكهم تابعاً لبني ساسان ملوك فارس الذين حكموا العراق . ونزلت قبيلة طيء بـالجبلين أجأ وسلمى . ونـزلت كلب بن وبرة من قضـاعة ببـادية السماوة حتى اتصلت بأطراف العراق . كذلك بقي باليمن كثير من قبائل حمير وكندة ومذحج وغيرهم . وفيما يلي تخطيط مختصر يبين أشهر تلك القبائل من نسل قحطان .

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج ١ ص ٨ وما بعدهـا . وابن كثير ، البـداية والنهـاية ، ج ٢ ص ١٩٨ وما بعدها . وكمال ، الطريق الى المدائن ، ص ٤٠ وما بعدها .

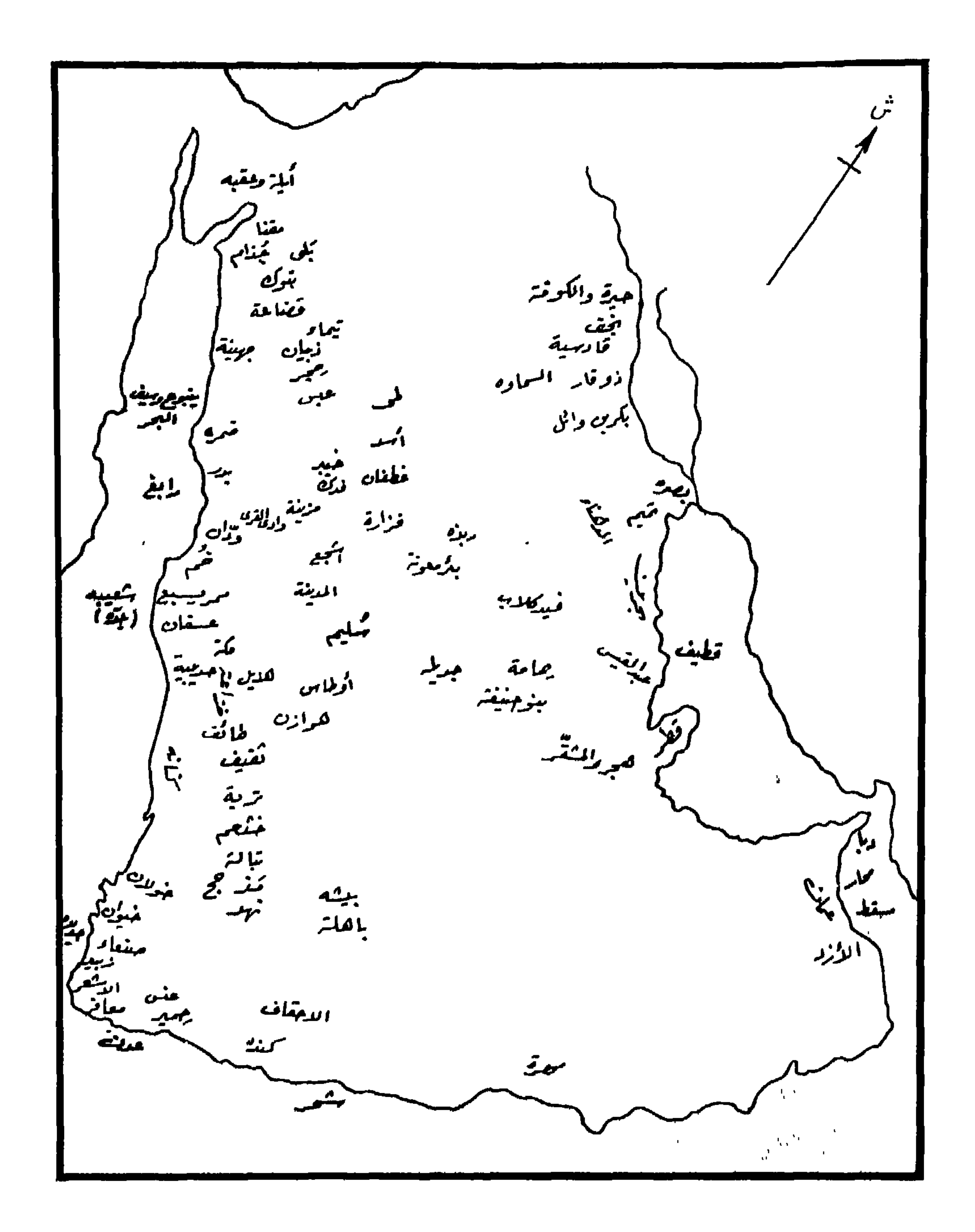
خريطة الأنساب القحطانية[1]

(١) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، آخر الكتاب .

أما عدنان فكان من ولد اسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ومن نسله رسول الله ﷺ كان موطنه مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة . وقد تشعبت بطون هذا الفرع من نزار بن معد بن عدنان . ثم هاجر بعض من هذه البطون إلى مواطن أخرى تبعاً لمواقع القطر ومنابت العشب فاتجهت ربيعة شرقاً فأقامت عبد القيس بالبحرين ، وأقامت حنيفة باليمامة وأقامت سائر بكر بن وائل فيما بين البحرين واليمامة وإلى ساحل كاظمة بشمال الخليج العربي ثم إلى تخوم سواد العراق ، وعبرت تغلب الفرات فأقامت بأرض الجزيرة بين دجلة والفرات ، وسكنت تميم ببادية البصرة مجاورة لمنازل بكر بن وائل . أما عن فرع مضر بن معدّ بن عدنان ، فقد نزلت سُليم بالقرب من المدينة من وادي القرى إلى خيبر إلى شرقي المدينة حتى حدود الجبلين أجأ وسلمى . وأقامت ثقيف بالطائف واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة على طريق البصرة ، وسكنت أسد شمالي وادي الرمة شرقي تيماء إلى غرب الكوفة .

خريطة الأنساب العدنانية[1]

(١) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، آخر الكتاب .



خريطة جزيرة العرب على عهد النبي مبين فيها مواطن أشهر القبائل العربية .

عن حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص : ٢٥٧ .

الفصل الثاني

معركة بدر الكبرى

(١٧ رمضان سنة ٢ هـ)

﴿ وإذ يعدُكم اللَّه إحدى الطائفتين أنها لكم وتودونَ أن غَيرَ ذات الشوكة تكون لكم ويُريدُ اللَّه أن يحقَ الحقَّ بكلماتِه ويقطع دابر الكافرين ﴾[1] .

تمهيد :

بقي الرسول ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يبلّغ الناس دعوة رب العالمين ، فآمن به نفر قليل ، وحاربه جلٌّ قريش وأقرب الناس إليه ، وسعوا بشتى الوسائل إلى إغرائه بالتخلي عن دعوته ، فكان جوابه الحازم لعمه أبي طالب: « . . واللَّه لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللَّه أو أهلك فيه ما تركته »[2]. عندها حاول كفار مكّة صدَّ الناس عن دعوته ، ففشلوا أيضاً . . .

وعندما تراءى لهم خطر الإسلام على عقائدهم الفاسدة ، وأنه سيعيد تنظيم المجتمع تنظيماً جديداً يقضي على مكاسبهم ومفاسدهم ومراكز عِلْية القوم منهم ، أجمعوا على شنِّ حرب لا هوادة فيها ضده ، تشمل جميع القِطاعات وتتبع كل الأساليب السياسية والاقتصادية

---

(١) الأنفال ، ٧ .

(٢) ابن هشام : مختصر سيرة ابن هشام ، ص ٤٤ .

والاجتماعية العسكرية ، الشريفة وغير الشريفة ، بما في ذلك الاغتيالات الفردية بغية القضاء على الرسول وأتباعه وتصفيتهم جسدياً بالمصطلح الحديث[1].

أدرك القائد صعوبة تحقيق الغاية ومتابعة المهمة في أجواء مكة ، فتطلع إلى الهجرة إلى المدينة لينشىء فيها قاعدة قوية ومأمونة ، فأخذ يبعث أتباعه إلى المدينة على دفعات وكان يشرف على رحيلهم بنفسه ثم تبعهم إليها بعدما أذن[2] له اللّه عز وجل بذلك في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، وكان ذلك بعد البعث بثلاث عشرة سنة ، وعدّ ذلك التاريخ بدء السنة الهجرية التي يؤرخ بها المسلمون ، وبدأ التأريخ بها منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ض) . وفور وصول النبي ﷺ إلى المدينة المنورة بدأ بوضع أسس الدولة الإسلامية ، فأقام مسجداً ، واتخذه مقراً يقيم فيه الصلوات ، ويستقبل الوفود ، ويجتمع بأصحابه ، ويدير منه شؤون المسلمين.

وأولى الشؤون العسكرية اهتماماً خاصاً . وبدأ هو هذه المرة

---

(١) لما رأت قريش أن رسول اللّه ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم اجتمعوا في دار الندوة وتداولوا في الأمر واستعرضوا مختلف الآراء التي يمكن أن تقضي على محمد ﷺ ودعوته واتفقوا على تنفيذ اقتراح أبي جهل وهو :.

« فقال أبو جهل بن هشام : واللّه إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد ، قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً [شريفاً] فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه ، فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً » (ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ١٢٦) .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ص ١٢٣ .

التعرض (التحرش) للمشركين لأن الهجوم أفضل وسائل الدفاع ، فوجه عدة سرايا بمهمات بسيطة ، استهدفت تحطيم معنويات قريش وإرباكها وضرب نشاطها التجاري ، كما استهدفت الحصول على موارد للتموين والتسليح ، وإظهار القوة ليهود والبدو المحيطين بالمدينة[1] . وقد حققت هذه السرايا المنجزات التالية :

١ ـ التدريب على القتال في ظروف جديدة تختلف عن ظروف معارك الجاهلية ، وفي إطار موازين قوى مادية ومعنوية مختلفة .

٢ ـ تعزيز الروح التعرضية (الهجومية) لدى المسلمين ، ومنع روح الدفاع المستكن (الثابت) من التغلغل في صفوفهم .

٣ ـ استطلاع المناطق المحيطة بالمدينة ، وما فيها من مسالك وطرق مواصلات ومصادر مياه ، استعداداً للمعارك الحاسمة التي كان من المنتظر أن تدور في هذه المناطق .

٤ ـ كسب بعض الغنائم التي ساهمت في تعزيز القوات المسلحة الإسلامية .

٥ ـ تقوية علاقات التعاون بين المهاجرين والأنصار ، وصهرهم في بوتقة المعركة ، لبناء مجتمع متماسك متعاون يزيده الخطر الخارجي تماسكاً وقوة .

٦ ـ تهديد قريش بالحصار الاقتصادي : عن طريق جعل ممرات تجارة قريش مع بلاد الشام مهددة وغير آمنة ، يمكن أن يتعرض لها المسلمون في أية لحظة ، ويستولوا على القوافل التي تعبرها ، مما جعل قريش تعيش في ذعر وخوف على تجارتها ورجالها الذين يرافقون القوافل .

---

(١) خطاب : محمود شيت ، الرسول القائد ، ص ٨٣ .

٧ ـ تثبيت هيبة الإسلام والمسلمين بين القبائل المجاورة للمدينة المنورة .

ومن هذه السرايا التي بدأت عملها مبكرة ، يظهر جلياً أن الرسول ﷺ انتقل من مرحلة الدفاع المستكن الى مرحلة الدفاع المتحرك ، أو أنه على الأقل طبق المبدأ العسكري الحديث « الهجوم أقوى وسائل الدفاع » ، لأنه لم يكن في الواقع يمتلك القوات والأموال اللازمة لشن هجوم واسع النطاق .

التحركات قبل المعركة :

علم الرسول ﷺ أن قافلة كبيرة لقريش يقودها أبو سفيان ، قادمة من بلاد الشام في طريقها إلى مكة ، فقال لأصحابه : « هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل اللّه ينفلكموها »[1] ، فخرج بعض المسلمين بقيادة رسولهم قاصدين القافلة .

وما أن علم أبو سفيان بتحرك المسلمين باتجاه قافلته حتى أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم ليحموا قافلتهم ، فسارع كفار قريش لنجدة أبي سفيان والذَّود عن أموالهم ، وجمعوا جيشاً ضم تسعمائة وخمسين مقاتلاً ، فيهم أشراف قريش وقادتها ، وحثوا السير باتجاه المدينة .

ولجأ أبو سفيان الى حيلة عسكرية ، بقصد التخلص من مواجهة المسلمين والهرب بالقافلة ، فأخذ طريقاً آخر غير الذي تسلكه القوافل عادة ، فنجا من جيش المسلمن ، وأرسل إلى جيش المشركين الذي هب لنجدته يعلمه بنجاة القافلة ويقترح عليه العودة الى مكة . لكن أبا جهل ، وهو رأس الكفر العنيد ، والقائد المدرك لخطر المسلمين ، أصرَّ على الوصول إلى « بدر » والإقامة في ذلك المكان ، فينحرون الجزور ، وتسمع العرب بخروجهم وتحديهم لمحمد بن عبد اللّه ﷺ وأتباعه ،

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ . وينفلكموها : أي يجعلها غنيمة لكم .

فتستعيد قريش بذلك مهابتها التي أضعفتها سرايا المسلمين التي أرسلها الرسول ﷺ من المدينة في كل اتجاه كما أسلفنا[1] .

وقد كان أبو جهل على صواب من الناحية العسكرية ، أما الرسول ﷺ فقد انطلق بأصحابه وهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً ، ووسائل نقلهم سبعون بعيراً وفَرَسان[2] . . وكان المسلمون يحملون ثلاث رايات ، راية بيضاء حملها مصعب بن عمير ، وراية سوداء حملها علي بن أبي طالب ، بينما حمل أحد الأنصار الراية الثالثة وكانت سوداء أيضاً .

وكان الصحابة يتناوبون الركوب على الجمال ، كل ثلاثة يتناوبون على بعير ، ولما وصلوا إلى مقربة من المكان المعروف باسم « بدر » (على طريق القوافل بين مكة والمدينة) أرسل النبي من يستطلع له أخبار أبي سفيان ، فعاد رجال الاستطلاع بأسيرين ، والأسرى أحد مصادر المعلومات الرئيسة ، حتى إن الجيوش في العصر الحاضر عندما تعجزها مصادر المعلومات الأخرى ، وأحياناً لتأكيد المعلومات ، تلجأ إلى القيام بإغارات لخطف الأسرى ، حيث يجري استجوابهم من قبل اختصاصيين للحصول على المعلومات اللازمة . وهذا بالضبط ما طبقه الفرسان الذين أرسلهم الرسول لجلب المعلومات .

وبدأ التحقيق الدقيق مع الأسيرين . وكان المسلمون يحسبونهم من رجال أبي سفيان ولمَّا قالا إنهما من سقاة قريش ضربوهما ، وكان الرسول ﷺ يصلّي في أثناء ذلك ، فلما أنهى صلاته تولى التحقيق بنفسه ، فلما تأكد أنهما من جيش قريش سألهما : كم القوم ؟ قالا : لا

---

(١) ابن هشام : السيرة النبويةج ٢ ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٢) روى البخاري في كتاب المغازي ، باب عدة أصحاب بدر « عن البراء رضي اللّه عنه قال : كان عِدَّةُ أصحاب محمد ممن شهد بدراً عدَّة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، بضعة عشر وثلاثمائة» ابن هشام ، السيرة النبوية ـ ج ٢ ، ص ٣٦٤ .

ندري ، قال : كم ينحرون كل يوم ؟ سؤال غريب ، ولكنه سؤال الملهمين من القادة الأفذاذ ، فالرجلان من الخدم لا يهتمان بعدد الجيش، لكن قيامهما بالخدمة يتيح لهما معرفة كم يُنحَر كل يوم لإطعام الجيش ، قالا : ننحر في يوم تسعاً وفي يوم عشراً . فقال الرسول لأصحابه : القوم بين التسعمائة والألف ، وبعدما عرف عدد جيش العدو أراد أن يتعرف نوعية الشخصيات المشاركة في ذلك الجيش ، فاذا بهم قادة قريش وزعماؤها وأقوى فرسانها : عُتبة وشَيْبة ابنا ربيعة ، وأبو جهل عمرو بن هشام ، وأمية بن خلف ، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ودّ ، وغيرهم[1] .

ماذا يفعل القائد قبيل المعركة؟ لقد اكتملت المعلومات ، وسمعها أركان حرب الرسول . وفي ذهن النبي هدف كبير . . يريد أن يهاجم بأصحابه الثلاثمائة جيش قريش الكبير ، فتبقى الصحراء تردد أنباء تلك المعركة ما دارت الأيام .

على أي شيء يعتمد ؟ وسلاح جيشه ضعيف ، وعدده قليل ، وتجهيزاته بسيطة . إنه يعتمد على شيء مهم جداً في أية معركة ، يعتمد على قوة المعنويات المرتكزة على الإيمان بالله واليوم الآخر . فالقتيل في جيش المسلمين شهيد ، والشهيد الى الجنة خالداً فيها[2] ، مع أن الشهادة ليست غاية للقتال في الإسلام ولا هدفاً . فهدف الاسلام من القتال عامة إزالة العوائق المادية التي تقف في وجه الدعوة ولا يتحقق ذلك إلا بالنصر . وغاية المسلم في جهاده رضوان الله عز وجل . فإن نتج عن القتال نصر المسلمين ، فقد تحقق الهدف ، وإن استشهد المسلم فقد نال

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ، ص ٨٤ وما بعدها .

إحدى الحسنيين. والنصر مأمول دوماً بقوات لا تهاب الموت وترغب بالشهادة .

ووجد الرسول أن من واجبه استشارة أصحابه قبل إبلاغهم القرار الذي يدور في خلده ، خاصة وأن فيهم عدداً من الأنصار الذين لم يكن في شروط بيعتهم للرسول ما يلزمهم بالقتال خارج المدينة[1] . فوقف الرسول بين أصحابه يستشيرهم . وكان مما قال : « هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ كبدها . . . » فوقف أبـو بكر فقال وأحسن ، وقام عمر فقال وأحسن، ثم وقف المقداد بن عمرو فقال: «يا رسول اللّه امضِ لما أراك اللّه فنحن معك، واللّه لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل: ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنَّا هٰهنا قاعدون**﴾[2]، ولكن نقول: إذهب أنت وربك فقاتلا انّا معكما مقاتلون ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى « برك الغماد » (مدينة في الحبشة) لجالدنا معك من دونها حتى تبلغها . . فتابع الرسول كلامه : « أشيروا عليّ أيها الناس» . . وأدرك الأنصار أنه يريد أن يسمع رأيهم ، فقام سعد بن معاذ فقال : « قد آمنّا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . فامض يا رسول اللّه لِما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف عنك رجل واحد ، فسر على بركة اللّه »[3] .

وسرّ الرسول وأدرك متانة جبهته ، وتراص صفوف جيشه ، فقال لأصحابه يشجعهم : « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم » .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ، ص ٢٦٩ .
(٢) المائدة ، ٢٤ .
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ ص ٢٦٦ وما بعدها .

صحابيّ يعطي رأيا سديدا :

تقدم الرسول بأصحابه ، فنزل عند أقرب ماء من بدر . فتقدم أحد الصحابة واسمه « الحباب بن المنذر » فسأل الرسول : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً انزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه . أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال الرسول : « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » .

فقال الحباب : « يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوِّر ما وراءه ، ثم نبني عليه حوضاً ، فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون » . فقال رسول اللّه « لقد أشرت بالرأي »[1] » . ونهض رسول اللّه ومن معه من الناس ونفذوا خطة الحباب .

وأشار سعد بن معاذ أن يقام للرسول عريش مرتفع يتولى منه قيادة المعركة ، فنفذ الرسول رأيه ، ووقف يدعو الله ، وعندما حلّ الفجر صلى بالمسلمين وراح ينظمهم صفوفاً ويحرضهم على القتال .

وضع المشركين :

حدث في معسكر المشركين خلاف بين قادة قريش ، بعضهم طرح فكرة التخلي عن القتال ، طالما أن الهدف الذي خرجوا من أجله قد تحقق ، وسلمت قافلتهم ، وبعضهم ، وعلى رأسهم أبو جهل ، يريد القتال وكسر شوكة المسلمين . وبعد جدال طويل انتصر رأي أنصار الحرب . وتقدمت قريش مع الصباح وأخذت مراكزها على مقربة من جيش المسلمين ، ثم أرسلت « عُمير بن وهب الجُمحي » ليستطلع عدد جيش المسلمين وأحواله ، فدار حول جيش المسلمين بفرسه وعاد فأخبر

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

أن عديد هذا الجيش زهاء الثلاثمائة ، ولكنه قال لقريش كلماتٍ تدل على مدى ذكاء العربي وفراسته قال : « رأيت يا معشر قريش البلايا[1] تحمل المنايا ، نواضحَ يثرب تحمل الموت الناقع[2] . قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ! والله ما أرى ان يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ! فَروا رأيكم »[3] .

ترك كلام عمير أثره في سادة قريش ، فقرر معظمهم ترك القتال ، وأرسلوا الى أبي جهل يقنعونه برأيهم . ولكن أبا جهل كان في تلك اللحظة يستثير من له ثارات على المسلمين ، محاولاً الاسراع بالمعركة قبل الاتفاق على التخلي عنها . وهكذا بدأ الانقسام في الرأي يدب في صفوف المشركين قبل بدء القتال ، في حين كان جيش المسلمين متلاحماً قوياً في تماسكه .

وبالإضافة الى ذلك فقد كان لجيش المسلمين قائد واحد ، كل جندي فيه يفديه بروحه . أما جيش المشركين فكان محروماً من القائد الفذ الذي يدين له الجميع بالولاء . وكان معظم وجهائه يكرهون حمق أبي جهل وتهوره وحقده ، ولا يطيعونه عن قناعة راسخة وإيمان قوي بكفاءاته ، بل يطيعونه بحكم مركزه في قريش . وكان المشركون يقاتلون لفرض هيبتهم ومتابعة اضطهاد المسلمين ، في حين كان المسلمون يقاتلون لتحقيق هدف سام ، ونشر عقيدة مقدسة ، وإعلاء كلمة الله في الأرض . وشتان ما بين الهدفين ! .

---

(١) جمع بلية . وهي الدابة تربط إلى قبر الميت فلا تعلف حتى تموت .
(٢) النواضح : الابل التي يستقى عليها ، الناقع : الثابت .
(٣) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .

المعـركــة :

وبـدأت المعـركـة ، على عـادة الحــروب في ذلـك الــزمـان ، بالمبارزة[1] ، فقتـل فرسـان المسلمين الذين خـرجوا للمبـارزة فرسـان المشركين ، ثم زحفـ الجيشان كل واحد باتجاه الآخر .

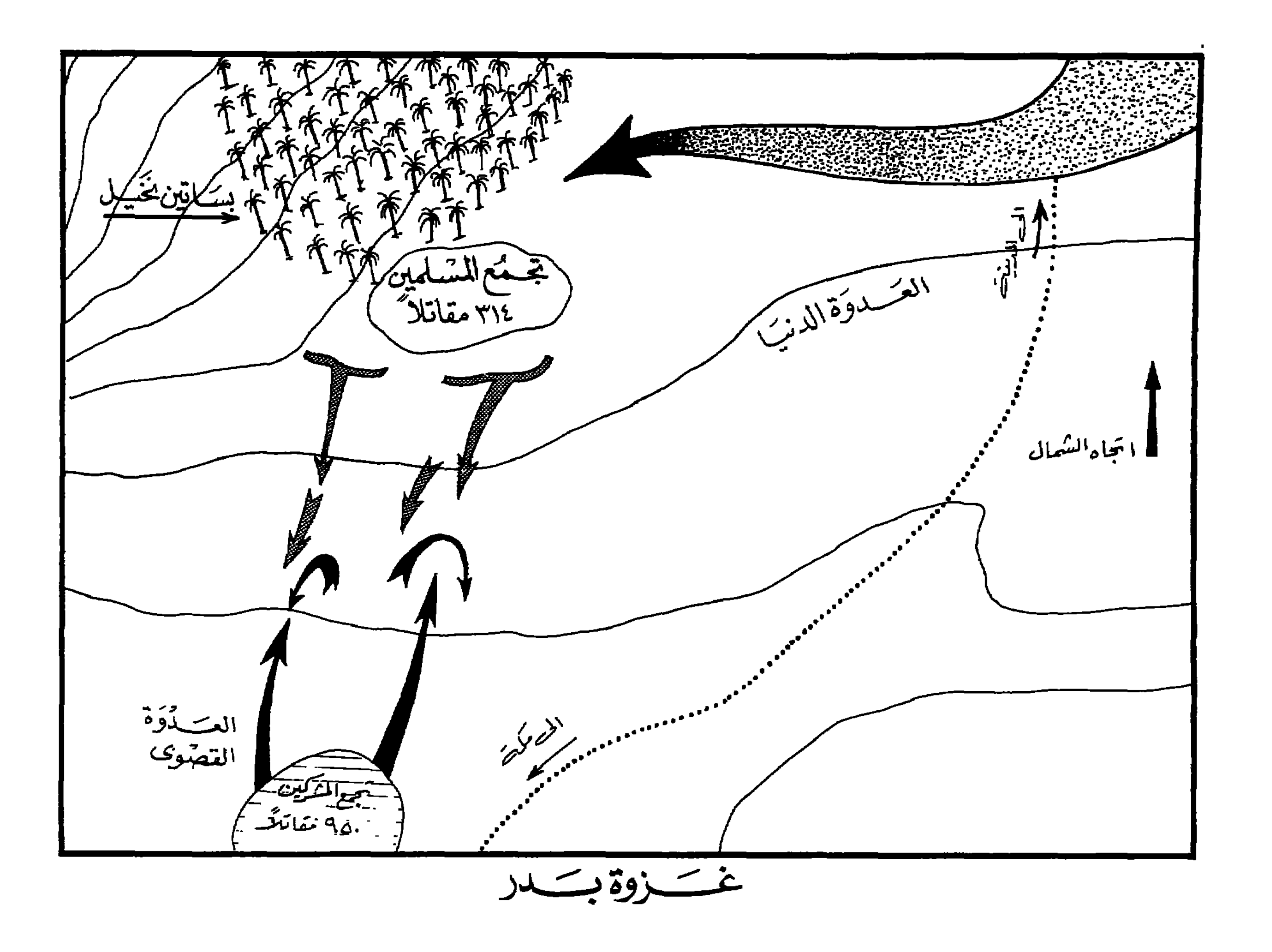
وأمر الرسول أصحابه ألا يهجموا على العدو إلا باشارةٍ منه ، لأن فارق العدد بين الجيشين كبير ، فلئن كان فـرسان المسلمين أقـوى في المبـارزة (فارس لفـارس) ، فان الاشتبـاك العـام قـد يكـون لصـالـح المشركين . في الحالات المماثلة يفتش القائد عن الطريقـة التي تؤمن التكافؤ ، وكانت خطة الرسول إعطاء المشركين فرصة البدء بالهجوم ، فاذا اصبحوا على مرمى النبال أمر بالرمي الغزير عليهم فيضعضـع صفوفهم ويخلخلها نتيجة الإصابات التي يحققها الرمي بالمهاجمين .

ثم سوى الرسول صفوف رجاله ، وصعد إلى عريشه بصحبة أبي بكر ، وأخذ يدعو الله ويبشر أصحابه ويرفع من معنوياتهم ويذكّرهـم الجنة ويقول فيما يقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد[2] » . وما هي إلا هنيهة حتى التحم الجيشان ، وأصبح الرسول في قلب المعركة فشارك بالقتال كأي مقاتل في جيشه . وهكذا يكون القائد المثالي ، إنه

---

(١) تكون المبارزة بخروج فارس أو أكثر من أحد الجيشين ، فيتقدم صفوف جيشه ليكون في الفسحة بين الجيشين ، ويطلب من الجيش الثاني أن يخرج له من يبارزه ، ويتبـارز الفارسان حتى يقضي أحدهما على الآخر أو يهرب أحدهما ، ويقضي العرف بأن لا يتدخل أحد من الجيشين لمصلحة صاحبه ، وقد تكون المبارزة بين أكثر من فارسين .

(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج ١٧ ، ص ٢٤ . وفي قوله (ﷺ) دليل على أن هدف القتال النصر . فان استشهد المؤمنون توقفت الدعوة . لذلك فالشهادة قد تكون غاية للمقاتل المسلم لما فيها من ثواب وظفر في الآخرة ، ولأنها تمهد الطريق للنصر ، ولا يصح أن تكون هدفاً للقتال عامة أو غاية .



بساتين نخيل
تجمع المسلمين
٣١٤ مقاتلاً
العدوة الدنيا
اتجاه الشمال
العدوة القصوى
تجمع المشركين
٩٥٠ مقاتل
الى مكة

غزوة بدر

الدماغ المفكر الذي يخطط للمعركة ، وهو الصامد الأول في الملمّات والخطوب ، وهو القدوة الحسنة والمثل الأعلى لرجاله بالشجاعة والتضحية ورباطة الجأش .

وأحاطَ بعضُ فرسان المسلمين بأبي جهل فقتلوه ، واجتزّ عبد الله ابن مسعود رأسه[1] ، فانهزم المشركون وفروا من المعركة مخلّفين وراءهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً ، أما خسائر المسلمين فكانت أربعة عشر شهيداً : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

نتائج المعركة :

قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن نتيجة المعركة غير طبيعية ، وخاصة أن مجموع خسائر المشركين في المعركة مائة وأربعين مقاتلاً . وبذلك يكون عدد المنهزمين أكثر من ثمانمائة ، أي أكثر من ضعف عدد جيش المسلمين . وكان المفروض أن يتراجع المشركون ويعيدوا تنظيم صفوفهم ويستأنفوا القتال بعد يومين أو ثلاثة أو أكثر .

لكن التعمق في دراسة طريقة قتال جيش المسلمين ، والأساليب التي طبقت في هذه المعركة ، وهي أول معركة يخوضها المسلمون ، يفسر لنا أسباب النجاح التي يمكن تحديدها بما يلي :

١ ـ وحدة القيادة

كان الرسول (ﷺ) هو القائد العام في المعركة، وكان مثال القائد الناجح ، يستشير أصحابه ، ويأخذ بالآراء السليمة ، ويتقدم قواته عند الضرورة في القتال . . وتولد عن ذلك انضباط رائع في صفوف المسلمين ، وتقيد كامل بالتعليمات ، قابله انقسام في الرأي في صفوف جيش المشركين .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، ج٢ ، ص ٢٨٨ وما بعدها .

٢ ـ الكفاءة الحربية

فلقد تميّز المقاتل المسلم بكفاءة قتالية عالية ، وانضباط شديد ، وطاعة لا مثيل لها لأوامر القائد ، وروح جماعية مثلى ، عمل الرسول على غرسها في النفوس منذ بدء الرسالة ، وكرسها في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، بينما كانت الروح الفردية (الأنانية) سائدة في صفوف أعدائهم .

٣ ـ التعبئة الجديدة

كانت مسيرة الرسول من المدينة إلى بدر في تشكيلة قتالية تشبه التشكيلات الحربية الحديثة ، فأرسل مقدمة وترك مؤخرة ، وأفاد من دوريات الاستطلاع ، وقام بإغارات لأخذ أسرى ، وجمع المعلومات الكافية قبل بدء القتال ، وخاض المعركة بأسلوب جديد يعتمد على التعاون والأثرة ، هو أسلوب القتال بالصفوف المتراصة ، بينما طبق المشركون أسلوب الكرّ والفرّ .

٤ ـ المعنويات العالية

تمتع المقاتل المسلم بروح معنوية عالية نابعة من عقيدة راسخة . ولقد عمد الرسول إلى إذكاء روح المقاتلين بكثرة الدعاء ودوام التبشير بالنصر .

٥ ـ وضوح الهدف

كان هدف المسلمين الرئيس القضاء على رؤوس الكفر ، وإزالة العوائق من طريق الدعوة . ولم يكن الاستيلاء على قافلة قريش سوى هدف آني ، مرحلي . لذلك وجدنا الرسول يقرر مهاجمة جيش المشركين لتحقيق الهدف الرئيس ، رغم هروب القافلة (الهدف المرحلي) التي خرج المسلمون لاعتراضها .

٦ ـ **سموُّ الغاية :**

فقد كان المسلم يقاتل في سبيل رضوان الله عزّ وجلّ ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وليزيل العوائق المادية من أمام الدين الجديد الذي يحرر الإنسان من العبودية والظلم . بينما كان المشرك يقاتل في سبيل أهداف دنيوية رخيصة ، أو عقائد فاسدة مزعزعة ، أو تعصباً لقبيلة وانتصاراً لعشيرة .

ويمكننا تلخيص نتائج المعركة بما يلي :

أ ـ هددت طريق أهل مكة مع بلاد الشام ، والتجارة عصب حياتهم .

ب ـ أضعفت هيبة قريش ومكانتها بين العرب .

جـ ـ عززت مكانة المسلمين ورفعت من شأن « نواة دولتهم » الفتية في المدينة .

د ـ أفسحت في المجال أمام نشر الإسلام بين القبائل بعد سماعهم بهزيمة قريش .

هـ ـ زادت التضامن والتماسك بين المهاجرين والأنصار وقوّتهما .

و ـ كانت مناسبة لتشريع خمس الغنائم لبيت مال المسلمين . فقد نزلت الآيات الكريمة بهذا التشريع بعد بدر مباشرة . فكان الخمس تدعيماً لميزانية الدولة المسلمة ، وظلَّ أكبر مصدر لبيت المال حتى نهاية الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام .

بدر في القرآن :

لقد نزلت بعد معركة بدر آيات كريمة تبيّن للناس أسباب ظفرهم ، وتكشف بعض الحقائق التي كانت آنذاك خافية على المسلمين ، وتحمل

بعض تشريعات القتال والأسرى وتوزيع الأنفال (الغنائم) .

قال تعالى : ﴿ كما أخرَجك ربُك من بَيتك بالحقّ وإنَّ فريقاً من المؤمنين لكَارِهون * يُجادِلونَك في الحقّ بعدَما تبينَ كأنما يُساقون إلى الموتِ وهم يَنظُرون * وإذ يَعدُكم اللهُ إحدى الطائفتين أنَّها لَكم وتودّونَ أن غيرّ ذاتِ الشوكةِ تكونُ لكم ويُريد اللهُ أن يُحق الحقَّ بكلماتِه ويقطَع دابر الكافرين * ليُحِقَ الحَقَّ ويبطلُ الباطلَ ولـو كَره المجـرمون * إذ تَستغِيثونَ ربكم فاستجاب لكم أنّي ممَّدكم بألفٍ من الملائكة مردِفين * وما جَعله اللهُ إلا بشرى ولتطمئن بهِ قلوبُكم وما النصر إلا من عندِ الله إنَّ الله عزيزٌ حكيم ﴾[1] .

﴿ واعلموا أنَّما غَنمتُم من شيءٍ فأن للهِ خمسهُ وللرسـولِ ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم باللهِ وما أنزلنَا على عَبْدنا يومَ الفرقانِ يومَ التقىٰ الجَمْعان والله على كل شيء قدير ﴾[2] .

﴿ وإذ زيّنَ لهم الشيطانُ أعمالَهم وقـالَ لا غالبَ لكم اليـومَ من الناسِ وإني جارٌ لكم فلما تراءت الفِئتان نكَص على عَقيبهِ وقالَ إنِّي بريءٌ منكم إني أرى ما لا تَرون إني أخافُ اللهَ واللهُ شديدُ العقاب * إذْ يقول المنافقون والذين في قلوبِهم مرضٌ غرَّ هؤلاء دينُهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾[3] .

﴿ ما كانَ لنبيّ أن يكونَ له أسرى حتى يُثخن في الأرضِ تريدون عرَضَ الدنيا والله يريدُ الآخِرة والله عزيزٌ حَكيم ﴾[4] .

---

(١) الأنفال : ٥ ـ ١٠ .
(٢) الأنفال : ٤١ . والآيات بعدها تتعلق بصفة وقوع معركة بدر حتى آية ٤٥ .
(٣) الأنفال : ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) الأنفال : ٦٧ .

ولقد نزلت الآية الأخيرة في عتاب الرسول لأنه قبل فداء الأسرى ، وهم رؤوس الفتنة وأئمة الكفر . إنهم كمجرمي الحرب الذين لا يجوز الإبقاء على حياتهم . وتشير الآية الى أن الفـداء ممكن بعد أن يكـون المسلمون قد ثبّتوا أقدامهم في الأرض وأقاموا دولة قوية لا يستطيع مثل هؤلاء المجرمين التأثير فيها إن هم بقوا على قيد الحياة .

الفَصْلُ الثَّالِث

مَعْرَكَة أُحُد

(٧ شوال سنة ٣ هـ)

﴿الذين قالوا لإخوانِهم وقَعَدوا لو أطاعُونا ما قُتلوا قُل فادرؤوا عَن أنفُسكُم الموتَ إنْ كُنتم صَادقين * ولا تحسَبنَّ الذين قُتلوا في سبيلِ اللّه أمواتاً بل أحياءٌ عِندَ ربِّهم يرزقون ﴾[1] .

تمهيد :

أحست قريش بعمق الجراح التي خَلَّفتها بدر بعدما عادت إلى مكة . وكانت كثرة الخسائر ولا شك عاملاً مهماً في اضطراب قريش . ولكن العامل الأهم هو نوعية القتلى الذين كانوا من الفرسان والزعماء والأعيان[2] . كما أدركت قريش أن طريق تجارتها مع بلاد الشام أصبح تحت سيطرة المسلمين ، وفي توقف تجارتها قضاء عليها . ولما حاولت سلوك طريق آخر غير طريق الساحل علم بذلك رسول اللّه ﷺ ، وأرسل سرية بقيادة زيد بن حارثة فاستولى على القافلة بعد أن هرب حُماتها .

---

(١) آل عمران : ١٦٨ ـ ١٦٩

(٢) من قتلى بدر : عتبة بن ربيعة ، شيبة بن ربيعة ، ابو الحكم بن هشام ، أمية بن خلف ، زمعة بن الاسود ، ابو البختري بن هشام وغيرهم (الطبري ، التاريخ ، ج ٢ ص ٤٦١ ، وابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٦٦) .

وكان ذوو قتلى بدر قد اجتمعوا إلى أبي سفيان وأصحاب القافلة التي سَلِمت من قبضة المسلمين يوم بدر ، وقرروا استعمال مال تلك القافلة في التجهيز لمحاربة المسلمين . فوافق أصحاب المال وتنازلوا عنه[1] . واستطاع أبو سفيان الذي تولى قيادة الدعوة للحرب أن يجمع من قريش وحلفائها من قبائل كنانة وأهل تهامة والأحابيش[2] ثلاثة آلاف مقاتل بينهم سبعمائة فارس . فخرج بهم ، وقد اصطحب هو وأعيان قريش نساءهم ليشجعوهم على القتال ويمنعوهم التخاذل أو الفرار من المعركة[3] .

ونزل المشركون في مكان اسمه « عَيْنَيْن »[4] بالقرب من جبل « أحد » شمال المدينة ، ولما علم الرسول بذلك أرسل « دورية استطلاع » لتأتيه بأخبارهم ، وأمر بالاستنفار العام وتشديد الحراسة على المدينة ، وجمع أصحابه ليستشيرهم في الأمر.

كان رأي عدد كبير من الصحابة وشبان المسلمين أن يخرجوا لملاقاة المشركين حيث هم . حجتهم في ذلك أنهم انتصروا يوم بدر وكانت نسبة تفوّق المشركين أكثر مما هي الآن وكي لا يتهموا بالجبن ، وبأن المشركين اقتحموا عليهم مدينتهم . وكان أبرز القائلين بهذا الرأي حمزة بن عبد المطلب . وقال مالك بن سنان في تأييد هذا الرأي : « يا رسول اللّه ،

---

(١) ابن هشام ، السيرة ج٣ ، ص ٦٤ والطبري ج ٢ ، ص ٥٠٠ . ورضا : محمد رسول الله ص ١٨٩ .

(٢) غير العرب ممن انضم إليهم . وقيل سموا أحابيش باسم جبل أسفل مكة يقال له « حبيش » وقيل سموا بذلك لتحبشهم أي تجمعهم .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٦٤ ، ورضا ، محمد ، ص ١٩٠ . والطبري م . س ج ٢ ، ص ٥٠١ . والنويري نهاية الارب ، ج ١٧ ، ص ٨٢ .

(٤) جبل « عَيْنَيْن » كتثنية عين : جبل في بطن السبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة ، وهو أكمة ما زالت معروفة في شمال المدينة (البلادي ، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص ٢١٩ .

نحن واللّه بين إحدى الحُسنيين إما أن يُظفِرنا اللّه بهم أو يرزقنا الشهادة »[1].

وكان الرسول وعدد من الصحابة يميلون الى اتباع خطة جديدة . ويرغبون باستدراج العدو الى المدينة للاشتباك معه في شوارعها وحاراتها ، بحيث يشترك في القتال الرجال والنساء والأولاد ، وكلهم يعرف أين يقاتل بينما يجهل الأعداء ذلك . وهذه الطريقة المقترحة هي ما يعرف بحرب الشوارع في هذه الأيام . ولقد أيّد عبد اللّه بن أبي بن سلول هذا الرأي وقال في الدفاع عنه: «يا رسول اللّه أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم ، فواللّه ما خرجنا منها إلى عدوٍّ قط إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ، فَدَعْهم يا رسول اللّه ، فإن أقاموا ، أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا »[2].

وكان على الرسول أن يتخذ القرار بعد سماع مختلف الآراء ، فاختار الرأي المخالف لرأيه ، لأن معظم الصحابة وجميع الشباب تقريباً ، وهم المقاتلون في الجيش ، كانوا راغبين في الخروج لملاقاة المشركين . فدخل وتجهز وخرج ، ولما رآه الذين أصروا على الخروج ندموا وخافوا أن يكونوا قد استكرهوا الرسول على أمر لا يريده ، فقالوا : يا رسول اللّه استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى اللّه عليك ، فقال : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل »[3] .

وهنا تظهر أهمية عدم التردد ، فلا شيء يربك المقاتلين أكثر من

---

(١) خليل : دراسة في السيرة ، ص ١٨٩ .
(٢) الطبري : التاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٠٢.
(٣) الطبري : م . س ، ج ٢ ، ص ٥٠٣ واللأمة. الدرع ، وقيل السلاح .

الأوامر المتضاربة والمتعاكسة . ورغم حسم الأمر من قبل الرسول واختياره رأي الأكثرية ، حيث خرج على رأس ألف من أصحابه لملاقاة المشركين ، فإن عبد اللّه بن أبي بن سلول انخذل بثلث الجيش بعدما قطعوا شوطاً من الطريق وعاد بهم إلى المدينة وقال : أطاعهم وعصاني ، ما ندري علامَ نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس[1] ؟ .

لم يكن عبد اللّه من المؤمنين ، بل كان من المنافقين . كان يقود « الطابور الخامس » في الاصطلاح الحديث ضد المسلمين ، ولم ينسحب من المعركة معه إلا أمثاله من المنافقين ولذلك لم يكترث المسلمون لانسحابهم ، ومضى الجيش حتى نزل الشعب ـ الوادي ـ من أحد ، في عدوة الوادي إلى الجبل .

تعبئة المسلمين :

بقي مع الرسول سبعمائة رجل ، بعد انسحاب عبد اللّه بن أبي بن سلول برجاله ، اختار الرسول منهم خمسين رامياً ، وعين عليهم قائداً هو عبد اللّه بن جُبير ، وأمره أن يتمركز مع رجاله على الجبل للرمي بالنبال على خيل المشركين ومنعهم من مهاجمة المسلمين من خلفهم . وقال لعبد اللّه : « إن كانت لنا أو علينا (أي إن انتصرنا أو انهزمنا) ، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك »[2] .

وجعل الرسول جبل أحد خلف جيشه وسوى الصفوف ، وأمر رجاله أن لا يبدؤوا القتال حتى يأمرهم بذلك ، وسلَّم اللواء الى مصعب بن عمير .

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج ٣ ، ص ٦٨ . الطبري : م . س ، ج ٢ ، ص ٥٠٤ .
(٢) ابن هشام السيرة ، ج ٣ ، ص ٧٠ . الطبري : التاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٠٧ .

تعبئة المشركين :

كان جيش قريش يتألف من ثلاثة آلاف رجل بينهم سبعمائة دارع ومعهم مائتا فرس ، وخرج معهم سبع عشرة امرأة تقودهم هند بنت عتبة ، زوج أبي سفيان . فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها عِكْرمة بن أبي جهل ، ووضعوا قلب الجيش في مواجهة جيش المسلمين ، وسلموا لواءهم الى بني عبد الدار[1] .

المعركة :

التقى الطرفان يوم السبت في الخامس عشر من شوال سنة ٣ هجرية ٦٢٥ م على أرجح الروايات ، واقترب بعضهم من بعض ، وراحت هند بنت عتبة ومن معها من النساء يحرضن الرجال ويضربن بالدفوف . ورفع المسلمون شعار « أمت أمت » ليعرف بعضهم بعضاً.

وأخذ أحد فرسان المسلمين « أبو دُجانة » سيف رسول اللّٰه ، وعصب رأسه بعصابة حمراء واندفع إلى قلب المعركة لا يقف في وجهه أحد من المشركين إلا قتله ، وكذلك فعل حمزة بن عبد المطلب ، وكان حمزة العدو الأول لقريش التي حمّلته دم معظم قتلى بدر .

وكان في جيش المشركين عبد حبشي اسمه « وحشي »[2] يجيد

---

(١) رضا : محمد رسول الله، ص ١٩٠ . وذكر محمود شيت خطاب ان قوات المشركين ٢٩٠٠ منهم ٧٠٠ دارع ومعهم ٢٠٠ فرس . وثلاثة آلاف بعير (خطاب : الرسول القائد ، ص ١٧٢) .

(٢) وما يجدر ذكره أن وحشياً هذا قدم مع وفد الطائف عام الفتح على الرسول ﷺ ، وأعلن إسلامه ، وسأله النبي أن يصف له كيف قتل حمزة ، ثم قال له غَيِّب وجهك عني، وقد خرج مع خالد بن الوليد في قتال المرتدين في اليمامة ، وشارك في قتل مسيلمة الكذاب ، ثم شهد اليرموك ، (ابن حجر ، تهذيب التهذيب ، ج ١١ ، ص ١١٢) .

رمي السهام ، حصل على وعد بالعتق من الرّق إن هو قتل حمزة[1] ، فما زال ينتهز الفرصة حتى تمكن من تصويب حربته الى حمزة وأطلقها فأصابت منه مقتلاً . ورغم عدم التكافؤ بين الجيشين فقد تمكن المسلمون من المشركين ، وحمل الرسول بأصحابه على الجانب الذي فيه أبو سفيان فزحزحوه عن مكانه . وحمل خالد بن الوليد على المسلمين من الميمنة فصدّته نبال الرماة من الجبل فتراجع واختفى .

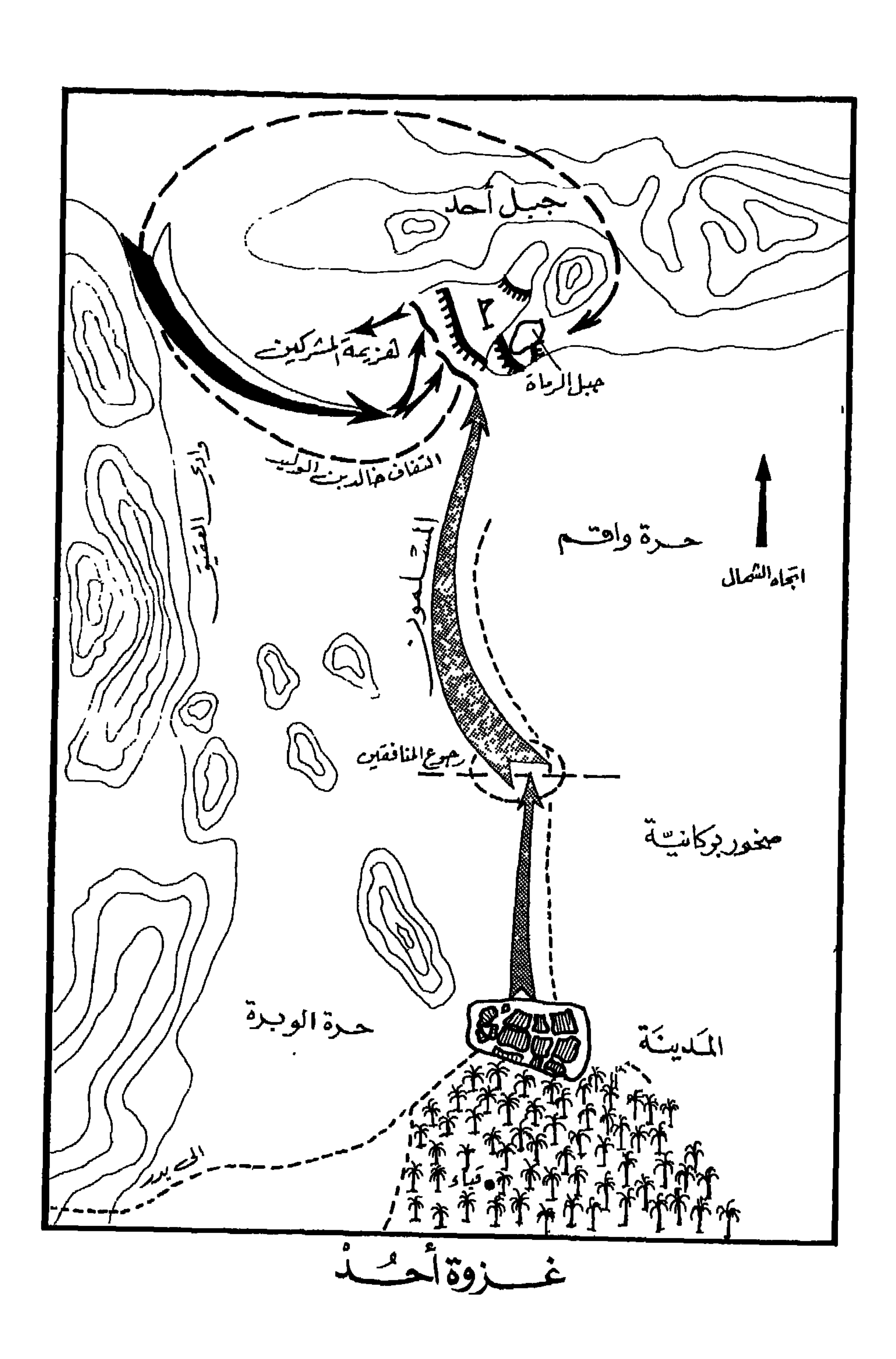
وبدت الهزيمة واضحة في صفوف المشركين ، ولاحظ ذلك الرماة من أعلى الجبل فخالفوا أوامر النبي وتركوا مواقعهم ليشاركوا إخوانهم في مطاردة العدو المنهزم ، وجمع الغنائم ، وناداهم قائدهم عبد اللّه بن جبير فلم يلتفتوا إليه ، ولم يثبت منهم إلا بعض الرماة من الذين يقدِّرون معنى الطاعة والانضباط وأهمية التقيد بالأوامر . وأمر ابن جبير من بقي معه من الرماة (١٠ رجال) بالانتشار ليمنعوا أي محاولة التفاف[2] .

وجاءت (اللحظة الحرجة) في المعركة ، أي اللحظة التي يبدأ فيها تبدل مسار القتال ، وتظهر بوادر النصر أو الهزيمة . **ومن المعروف أن التخلخل الذي يصيب صفوف أي من الجيشين المتحاربين في هذه اللحظة ، يتبعه تخلخل في الجيش المقابل ، فالجيش المهزوم تخلخله الهزيمة ، والجيش المنتصر تخلخله نشوة الظفر وإعادة الترتيب لاستثمار النصر** . وكان خالد بن الوليد يرقب المعركة بعين القائد المحنّك ، وينتظر الفرصة المناسبة للتدخل في « لحظة الأزمة » . ولما لاحظ ضعف الحامية على الجبل ، قام بحركة التفاف من وراء الجبل ، وكانت الشمس تضرب في عيون من بقي من الرماة ، ففاجأهم ، ولم يفدهم ثباتهم واستماتتهم

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٣، ص ٦٥. والطبري التاريخ ، ج ٢، ص ٥٠١.

(٢) الطبري : التاريخ ، ج ٢، ص ٥٠٧. ويراجع رضا : محمد رسول الله ، ص ١٩٣. وخطاب م. س. ص ١٨١.



جبل أحد
هزيمة المشركين
جبل الرماة
التفاف خالد بن الوليد
المسلمون
حرة واقم
اتجاه الشمال
رجوع المنافقين
صخور بركانيّة
حرة الوبرة
المدينة
الى بدر
قباء

غـزوة أحُـدْ

في القتال ، فقد استطاع قتلهم مع قائدهم ، ثم انقضّ بخيالته على ظهور المسلمين يعمل فيهم تقتيلاً .

وسمع صوت ينادي : « إن محمداً قد قتل » فتشتت المسلمون تحت وقع المباغتة . ولما رأى المشركون ما فعل خالد عادوا ثانية الى المعركة وأوقعوا المسلمين بين فكّي الكمّاشة . وفي غمرة الاضطراب انسحب بعض المسلمين الى المدينة ليطلب من عبد اللّه بن أبي سلول أن يطلب لهم الأمان من أبي سفيان ، وتشتت بعضهم الآخر في أطراف ميدان المعركة . . وثبت الصابرون المجاهدون الذين يحملون إيماناً لا تزعزعه الجبال ، وفي مقدمتهم أنس بن النضر الذي رفض الانسحاب ، ووقف بين المسلمين قائلاً : « يا قوم إن كان محمد قد قتل ، فإن رب محمد لم يقتل ، فقاتلوا ما قاتل عليه محمد ، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء . وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء . ثم شدَّ بسيفه وقاتل حتى قتل »[1] .

لكن الرسول ظلّ محافظاً على رباطة جأشه رغم استشهاد خيرة رجاله ، وفي اللحظات الحرجة يتميز القادة من مدعي القيادة ومغتصبيها أو ممن يتسلمها مصادفة أو وراثة وهو غير أهل لها . لقد رأى الوضع المؤلم الذي يعاني منه أصحابه ، فحدد لهم « نقطة ازدلاف » ـ تجمع ـ يجتمعون فيها ، كي لا ينفرد بهم المشركون وهم بين مقاتل لوحده أو فارٍّ من المعركة ، وكانت « نقطة الازدلاف » الشّعب في الجبل ، فاتجه إليه الرسول ومعه أبو بكر وعمر وعلي وطلحة والزبير وجماعة من المسلمين بلغوا الثلاثين ، وراح يقاتل ويقاتل معه أصحابه قتال المستميت . وقد التف حوله أصحابه وأخذوا يتساقطون شهداء دونه ، والمشركون يضغطون

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ٥١٧ وما بعدها ، وابن هشام ، السيرة ج ٣ ، ص ٨٤ وما بعدها .

عليهم ، حتى جرح الرسول عدة جروح ، ووقف أمامه أبو دجانة يردّ السهام بظهره . وعندما خلص أحد المشركين الى الرسول ، رماه صلوات اللّه عليه بحربة كانت سبب وفاته ، وأخذ يزود سعد ابن أبي وقاص بالنبال ، وسعد يرمي بها المشركين ، فقد كان سعد من أمهر رماة زمانه[١] .

وعلم المسلمون المشتتون في أرض المعركة بأن الرسول لم يمت ، فبدؤوا التجمع حوله في « نقطة الازدلاف » التي عينها ، فطلب إليهم عندها التراجع نحو الجبل ، جبل أحد ، وعدم السماح للمشركين بالالتفاف حولهم من أعلى الجبل . وعندما حاول المشركون ذلك ثانية منعهم عمر بن الخطاب بمن معه . فأدرك المشركون أنه لم يعد بإمكانهم القضاء على المسلمين ، وكان التعب قد انهك المشركين أيضاً ، وكثر فيهم الجرحى ، فقرروا الانسحاب مكتفين بذلك النصر «المؤقت» . فوقف أبو سفيان على مرتفع وقال : « أنعمتِ فِعال ، إن الحرب سِجال ، يوم بيوم ، أعلُ هُبَل »[٢] .

فقال الرسول لعمر : (قم فأجبه وقل : « الله أعلى وأجلّ . لا سَواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ») . فطلب أبو سفيان من عمر أن يقترب ، وسأله هل قتلوا محمداً . فقال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن ، فانصرف أبو سفيان وهو ينادي موعدكم بدر للعام القادم . فقال الرسول لعمر قل : « نعم هو بيننا وبينكم موعد[٣] » . وهكذا انفصل الجيشان ، وتوقف القتال ، وقد خسر المسلمون أكثر من سبعين شهيداً ،

---

(١) ابن هشام : السيرة ج ٣ ، ص ٨٧ .

(٢) اسم صنم كانوا يعبدونه .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٥٢٦ . وابن هشام ، السيرة ، ج ٣ ، ص ٩٩ .

بينما لم يزد عدد قتلى المشركين عن ثلاثة وعشرين رجلاً[1] .

إن القائد الناجح يضع نفسه مكان خصمه ، ويناقش ما لديه من معطيات ، ثم يطرح على نفسه السؤال التالي : « لو كنت مكانه ماذا أفعل ؟ » والقائد الناجح يعيش قضيته ما دامت روحه تخفق بين جنبيه . لذلك لم يغب عن ذهن الرسول وهو يعاني من الجراح والتعب ما يمكن أن يقوم به المشركون . لقد كانت لديهم فرصة للقيام بهجوم حاسم على المدينة ، ولهم فيها « طابور خامس » يتعاون معهم ، ولهم فيها يهود المدينة وهم ينتظرون اللحظة المناسبة للتخلص من المسلمين ، ولو أنهم فعلوا ذلك لقطعوا الطريق على المسلمين وعرضوهم لمصير قاتم .

وبما أن الاحتمال وارد ، فقد اتخذ الرسول قراره لمجابهة الحالة التي يمكن أن تطرأ ، ولخص قراره بقوله : « فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم فيها ثم لأناجزنهم فيها » . وأصدر أوامره لعلي أن يخرج في أثر القوم فينظر ماذا يفعلون ، فإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة ، وإن امتطوا الإبل وجنبوا الخيل[2] فهم يقصدون مكة .

ولما جاء علي بالخبر أنهم ركبوا الإبل تنفس الرسول الصعداء وأيقن أنهم توجهوا إلى مكة . لكن القائد يحسب دائماً حساب الخدعة ، ويحتاط لها . ولذلك أرسل الرسول سبعين رجلاً من أصحابه ليتبعوا المشركين ويتأكدوا من عدم وجود نية لديهم في الرجوع[3] .

---

(١) لمعرفة أسماء شهداء أحد : يراجع ابن هشام السيرة ، ج ٣، ص ١٢٩، وخطاب، الرسول القائد . ص ١٩٤ .

(٢) أي ساقوها معهم دون أن يركبوها ، لأن العرب كانوا إذا عزموا سفراً طويلاً ركبوا الإبل ولم يركبوا الخيل .

(٣)الطبري : التاريخ، ج ٢، ص ٥٢٧ .

وبعدما وارى المسلمون قتلاهم وضمدوا جراحهم ، عمد الرسول إلى تظاهرة عسكرية تعيد للمسليمن معنوياتهم ، وترهب أعداءهم ، وتظهر لليهود والمنافقين والأعراب أن خسارة هذه المعركة لم توهن عزيمة المسلمين ولم تؤثر على مقدرتهم القتالية ، ففي اليوم التالي للمعركة نادى مناديه بالناس أن يتهيؤوا لِملاحقة العدو ، وأن لا يخرج أحد لم يشترك في معركة أحد بالأمس . وانطلق بالجيش حتى بلغوا « حمراء الأسد » على بعد ثمانية أميال من المدينة ، بينما كان جيش المشركين قد بلغ « الروحاء »[1] ، على بعد ٦٠ ـ ٧٠ كم تقريباً ، وعسكروا هناك .

في الروحاء أدرك المشركون خطأهم ، وتداولوا أمرهم ، فقرروا العودة للقضاء على المسلمين واستئصالهم . وهذا هو الأمر الطبيعي ، لأن غاية الحرب تدمير قوات العدو والقضاء عليها . ولكن مناورة « إظهار القوة » التي قام بها الرسول فعلت فعلها . فبعد أن قرر المشركون العودة للقتال ، اعتقاداً منهم بأن المسلمين في المدينة يبكون قتلاهم أعلمهم رجل من خزاعة « حلفاء الرسول » أن الرسول خرج وراءهم على رأس قوة كبيرة من المسلمين تتحرق شوقاً للأخذ بثأر معركة أحد ، عندها عدل المشركون عن قرارهم . وعمد أبو سفيان إلى مناورة معاكسة ترهب المسلمين ، فأرسل إليهم من يخبرهم أن قريشاً عائدة لقتالهم ، بينما تابع طريقه إلى مكة . فأقام الرسول ثلاثة أيام ينتظر قريشاً ، ولما علم بتوجهها إلى مكة رجع بقواته إلى المدينة[1] .

نتائج المعركة :

كانت معركة أحد ولا شك هزيمة « مؤقتة » للمسلمين ، ولكننا لا نستطيع أن نعتبرها نصراً حاسماً للمشركين ، وبخاصة أنهم لم يستثمروا

---

(١) الطبري : م. س ، ج ٢ ، ص ٥٣٥ .

الفوز الذي حققوه في المعركة ، وانسحبوا منها في لحظة غير مناسبة ، دون أن يقلبوا النصر الأوليَّ المحقق إلى نصر حاسم .

واستطاع الرسول أن يخرج من المعركة بخسائر لا تتجاوز العشرة بالمائة من قواته التي خاض بها المعركة . وأخذ جيشه دروساً أفادته فيما بعد ، وأفادت « الاستراتيجية » الإسلامية على مدى الأيام .

الدروس المستفـادة :

١ ـ تبين أن النصر لا يرتبط بتعداد القوات ، فقد انتصر المسلمون في بدر ولم ينتصروا في أحد رغم أن نسبة تفوق المشركين كانت متقاربة في المعركتين .

٢ ـ ظهرت أهمية تطهير الصفوف من المنافقين وذوي العقيدة المزعزعة . وكان انسحاب عبد الله بن أبي بن سلول درساً لم ينسه المسلمون أبداً ، حتى أن أبا بكر لم يسمح للمرتدّين بعد وفاة الرسول (ﷺ) بالمشاركة في جيوش الفتح .

٣ ـ علّمت المسلمين أن سنن الحيـاة لا تتبدل ، فهم عنـدما يـأخـذون بأسباب النصر ينتصرون ، وعندما يتهاونون فيها ينهزمون . إنها سنّة الله في خلقه ، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً .

٤ ـ علمتهم أهمية الانضباط العسكري والتقيّد بتعليمات القائد مهما كانت الظروف والأحوال . فقد تبيّن لجميع المسلمين أن السبب الأول في الهزيمة يعود إلى تهاون الرماة في تنفيذ الأوامر وتركهم الجبل ، مما حرم مؤخرة المسلمين من الحمـاية ، ومكّن خـالد بن الـوليد من الالتفاف عليهم . وقد نزل في أحد كثير من الآيات ، ومنها قوله عزّ وجلّ :

﴿ وإذ غدوتَ من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعدَ للقتالِ والله سميع

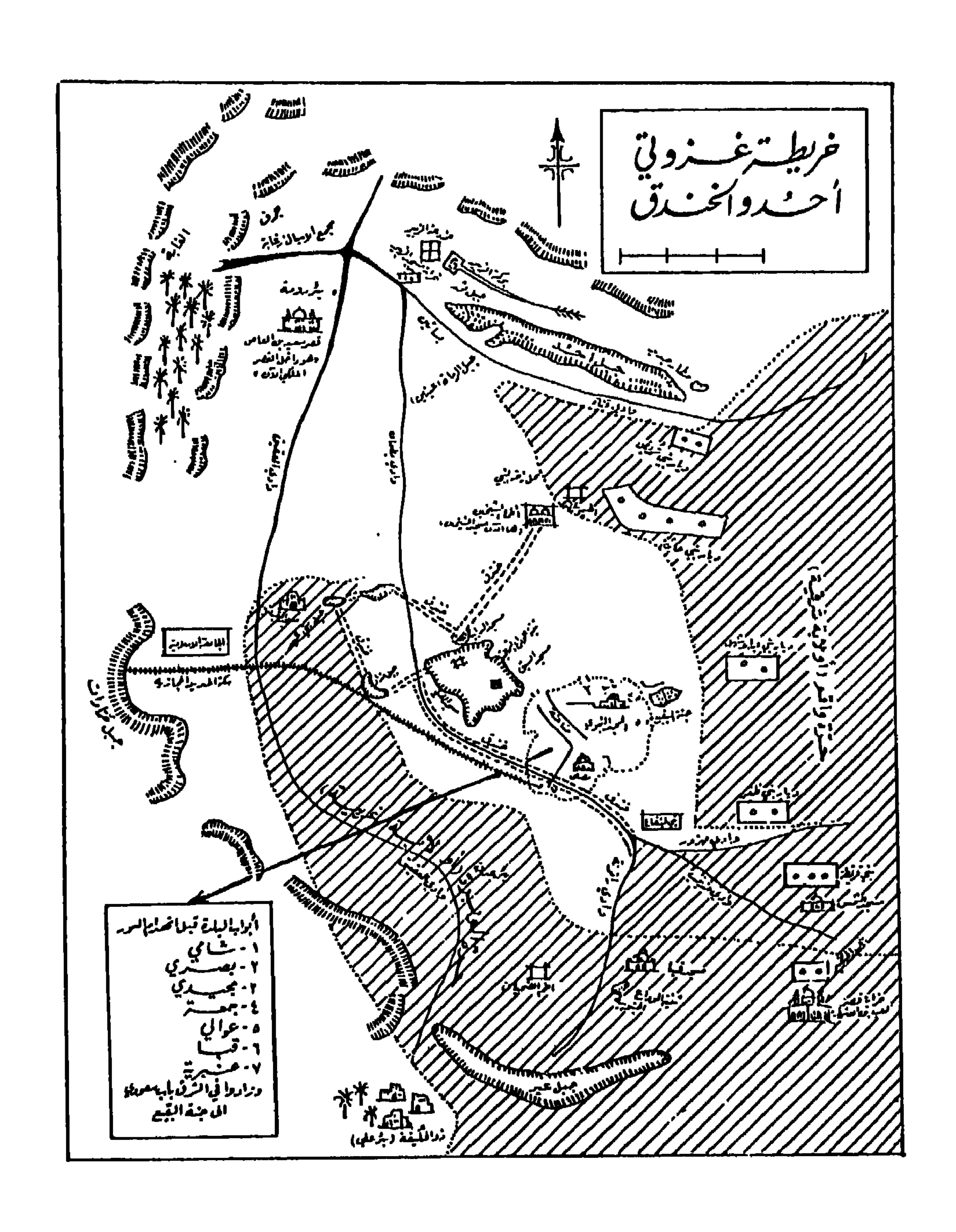
عليم * إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا واللهُ وليُّهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[1] .

﴿ ولقـد صَدقكم اللّهُ وعـدَه إذ تَحُسّونهم بـإذنـهِ حتى إذا فَشِلتم وتنازَعتم في الأمرِ وعصَيْتم من بَعدِ ما أراكم ما تُحبّون ، منكُم من يُريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صَرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عَفا عنكم واللهُ ذو فضلٍ على المؤمنين ﴾[2] .

---

(١) آل عمران ، ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) آل عمران ، ١٥٢ .



عن حميد الله : مجموعة الوثائق للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص ٧١

غزوة الأحزاب (الخندق)

(شوال سنة ٥ هـ)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكـروا نعمةَ الله عليكم إذ جـاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَروها وكانَ اللهُ بمـا تعملون بصيراً * إذ جاؤوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكُم وإذ زاغتِ الأبصـارُ وبلغت القلوبُ الحَنـاجِـرَ وتـظنّـونَ بـالله الـظُنُـونَـا * هنـالِـكَ ابتلي المؤمنـونَ وزُلـزِلـوا زِلـزالاً شديداً ﴾[1] .

ـد أحـــد :

عـانى المسلمون بعـد أحـد من تعـديـات القبـائـل ، وخيـانـات ـمنافقين ، ونقض عهود يهود . وبلغ من تجرؤ القبائل عليهم أن قدم على سول الله بعد غزوة أحد جماعة من قبيلتي « عَضَل » و« القَارَة » فقالوا :

يا رسول الله ، إن فينا إسلاماً ، فابعث معنـا نفراً من أصحـابك ـفقهوننا في الدين . . . فبعث رسول الله معهم ستة من أصحابه بأمـرة حدهم « مَرْثَد بن أبي مرثد » . ولما وصلوا إلى ماء لقبيلة هُذَيْل اسمه الرجيع » غدر الكفار بالمرشدين ، وساعدتهم هذيل ، وعرضوا عليهم ـلاستسلام لأنهم لا يريدون قتلهم ، بل يريدون بيعهم من قريش . ولكن

---

(١) الأحزاب ، ٩ ـ ١١ .

بعضهم قاتل حتى قتل ، وبعضهم أُخذ أسيراً وبيع في مكة ، حيث قتله كفار قريش ، وتعرف هذه الحادثة في كتب السيرة والتاريخ « بيوم الرجيع » أو «غزوة الرجيع »[1] .

وقد استغل المنافقون هذه الواقعة لنشر الشائعات ، وكان من أقوالهم : « يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لا هم قعدوا في أهلهم ، ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم » . حتى نزل فيهم قول الله تعالى : **﴿ وَمِنَ الناسِ مَن يُعجِبُكَ قَوْلُهُ في الحياةِ الدُنيا وَ يُشهِدُ اللهَ على مَا في قَلْبِهِ وهو ألدُّ الخِصام ﴾**[2] .

وحدث بعد أربعة أشهر من غزوة أحد ، أي في صفر من السنة الرابعة للهجرة ، أن قدم « أبو بَراء » عامر بن مالك ملاعبُ الأسنة على الرسول ﷺ في المدينة ، وأشار عليه أن يبعث بعض أصحابه إلى أهل نجد يدعوهم إلى الإسلام ، ويكونون في جوار أبي براء ، الذي لم يكره الإسلام ولم يعتنقه . فبعث الرسول ﷺ المنذر بن عمرو في أربعين صحابي من خيار المسلمين . فساروا حتى نزلوا في مكان بين أرض بني عامر وبني سُليم اسمه « بئر معونة » . وبعثوا كتاب رسول الله مع أحدهم ، « صرام بن ملحان » ، إلى عامر بن الطُّفيل ، فقتلَ عامرٌ الرسولَ ، حامل كتاب رسول الله ، واستعدى عليهم بني عامر فلم يجيبوه إكراماً لجوار عامر بن مالك . فاستعدى قبائل من سُليم ، فخرجوا جميعاً ، وأحاطوا بسرية المسلمين وأنشبوا القتال ، فأسفرت المعركة عن استشهاد جميع المسلمين إلا كعب بن زيد الذي تركوه جريحاً بين القتلى ، وعمرو بن أمية ، أحد اثنين كانا يرعيان دواب السرية . وقد أورد

---

(١) ابن هشام : السيرة، ج ٣ ، ص ١٧٨ . والطبري - تاريخ ج٢ ، ص ٥٣٨ .
(٢) البقرة ، ٢٠٤ .

هذه الحادثة ابن هشام تحت عنوان « حديث بئر معونة »[1] وهي تدل بالإضافة إلى سابقتها على مدى استهانة قبائل الجزيرة بأمر المسلمين بعد أحد .

أما يهود فقد بلغ أمرهم أن خان بعضهم عقده مع الرسول ﷺ وجواره ، فحاول بنو النضير قتل الرسول غِيلة في أثناء زيارته لبيوتهم مع رهط من أصحابه ، وكان قد جاءهم مستعيناً في دفع دية قتيلين قتلهما عمرو بن أمية بعدما نجا من واقعة بئر معونة[2] .

ولما أحسّ الرسول منهم ذلك ، استأذن لقضاء حاجة ، وغادر مكانه ، وكانت خطتهم أن يلقي عليه أحدهم ، عمرو بن جحاش ، صخرة . ولما لم يعد ، رجع أصحابه ، فأخبرهم بالأمر ، وأمر المسلمين بالسير إليهم . فتحصنوا في حصونهم ، فبدأ بقطع نخيلهم ، وحرق بساتينهم ، فقذف الله في قلوبهم الرعب ، وطلبوا من الرسول أن يحقن دماءهم مقابل استسلامهم وجلائهم عن المدينة بما حملت إبلهم من أموال دون سلاح ففعل . فخرجوا إلى خيبر وبلاد الشام[3] . فكان من أشرافهم الذين نزلوا خيبر : سلام بن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وحُييّ بن أخطب ، وسيكون لهم دور كبير في غزوة الأحزاب كما سنرى لاحقاً .

ثم غزا رسول الله في جمادى من السنة نفسها غزوة ذات الرقاع ، ولم يحصل فيها حرب[4] .

---

(١) ابن هشام : سيرة، ج ٣ ص ١٩٣ . والطبري تاريخ ج ٢ ، ص ٥٤٥ .
(٢) ابن هشام : سيرة ، ج ٣ ص ١٩٩ . والطبري تاريخ ج ٢ ، ص ٥٥١ .
(٣) ذكرها بعض الرواة قبل أحد ، والأرجح أنها بعد أحد وبعد بئر معونه . يراجع ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٤ ص ٧٤ .
(٤) ابن هشام : سيرة ، ج ٣ ، ص ٢١٤ .

ولما مضى عام على أحد ، خرج الرسول ﷺ في شعبان لميعاد أبي سفيان ، ونزل « بدر » ينتظره . وخرج أبو سفيان ، وفي الطريق بدا له الرجوع فقال : « يا معشر قريش ، إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن . وإن عامكم هذا عام جدب ، وإني راجع فارجعوا »[1] .

ولما لم يحضر أبو سفيان ، وأخلف موعده ، عاد الرسول ﷺ إلى المدينة ، وقد ارتفعت معنويات المسلمين لأن عدوهم هاب لقاءهم ، وانطلقت ألسنة الشعراء منهم بالفخر والاعتزاز وقد عرفت هذه الغزوة باسم « بدر الآخرة » .

وفي ذي الحجة غزا الرسول غزوة « دومة الجندل » ولم يصلها ، ولم يحصل فيها قتال . وأمضى بقية سنة أربع للهجرة في المدينة[2] .

قبيل الخندق :

أدرك يهود خطر الإسلام عليهم مبكرين . فهم أولو كتاب بالاسم فقط ، يحرمون ويحللون بحسب أهوائهم ، يأكلون الربا ويرتكبون الفواحش ، ولا يهمهم إلا جمع المال والتفرقة بين الناس ، والتعالي عليهم ، وسلب أموالهم . وكانوا يظنون أن المشركين سيقضون على الإسلام في مهده ، فهادنوا المسلمين أول الأمر ضناً بأنفسهم وبأموالهم . ولما لم ينتصر المسلمون في أحد ، حاول بنو النضير قتل الرسول ، ليقضوا على الإسلام بقتل نبي المسلمين وقائدهم ، وبعدما أجلوا عن المدينة ، علقوا آمالهم على اللقاء الموعود بعد عام من غزوة أحد بين المشركين بقيادة أبي سفيان والمسلمين بقيادة الرسول الكريم ، فلما

---

(١) ابن هشام : سيرة ، ج ٣، ص ٢٢٠ .

(٢) ابن هشام : سيرة ، ج ٣، ص ٢٢٤ .

أخلف أبو سفيان موعده ، خاب ظنهم ، وأدركوا نتائج ذلك التخاذل ، فقرروا التحرك . وانطلق أشرافهم من بني وائل ومن بني النضير الذين أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة ، منهم حيي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق وغيرهما ، فجاؤوا قريشاً في مكة وحرضوهم على قتال المسلمين ، ووعدوهم بمؤازرتهم والوقوف بجانبهم ، وشهدوا لهم بأن دينهم « الشرك » خير من دين محمد ﷺ « الإسلام » فسرت قريش بشهادة يهود ، وهم أهل كتاب ، ونشطوا لمحاربة الرسول[1] .

ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان ، فحرضوهم أيضاً على مقاتلة الرسول ، وذكروا لهم ما كان من شأنهم مع قريش ، وموعد الحرب ، وأن يهود سيكونون في طليعة المحاربين ضد المسلمين . وبذلك اجتمعت قوات كبيرة من المشركين توزعت كما يلي :

قوات المشركين[2] :

٤٠٠٠ أربعة آلاف ، مجموع رجال قريش بما في ذلك عبيدها ومواليها . وقد عقدوا اللواء في دار الندوة ، وحَملهُ عثمان بن طلحة . وكان على رأسهم أبو سفيان قائداً عاماً . وكان معهم ١٥٠٠ بعير و ٣٠٠ فرس .

٧٠٠ سبعمائة ، قوات بني سليم ، وقد التحقوا بقوات قريش في « مُرِّ الظهران » ، وكانوا بقيادة سفيان بن عبد شمس .

٤٠٠ أربعمائة ، بنو مرة ، بقيادة الحارث بن عوف .

---

(١) ابن هشام : سيرة، ج ٣، ص ٢٢٥ . والطبري ، تاريخ، ج ٢، ص ٥٦٤ . وابن كثير البداية والنهاية : ج ٤، ص ٩٤ . ويراجع خطاب ، الرسول القائد، ٢٢٥ .

(٢) ابن هشام : سيرة، ج ٣، ص ٢٢٦ . خليل ، دراسة في السيرة ، ص ٢١٠ . خطاب ، الرسول القائد ، ص ٢٢٦ .

٤٠٠ أربعمائة ، بنو أشجع ، بقيادة مسعر بن رُخَيلة بن نويرة .

٤٥٠٠ أربعة آلاف وخمسمائة ، بنو أسد ، بقيادة طليحة بن خويلد الأسدي . ومعهم غطفان وفزارة ، ومعها ألف بعير ، يقودها عيينة ابن حصن .

فبلغ مجموع قوات الأحزاب عشرة آلاف بقيادة أبي سفيان[1] .

لم يكن المسلمون غائبين عما يجري من إعداد لغزو المدينة ، وكان عيونهم وجواسيسهم ينقلون إليهم الأخبار بسرعة ودقة وأمانة ، وهذه عناصر مهمة جداً في جمع المعلومات والإفادة منها ، فالقرار الصحيح لا بد له من توافر معلومات صحيحة ، وكافية ، وفي الوقت المناسب .

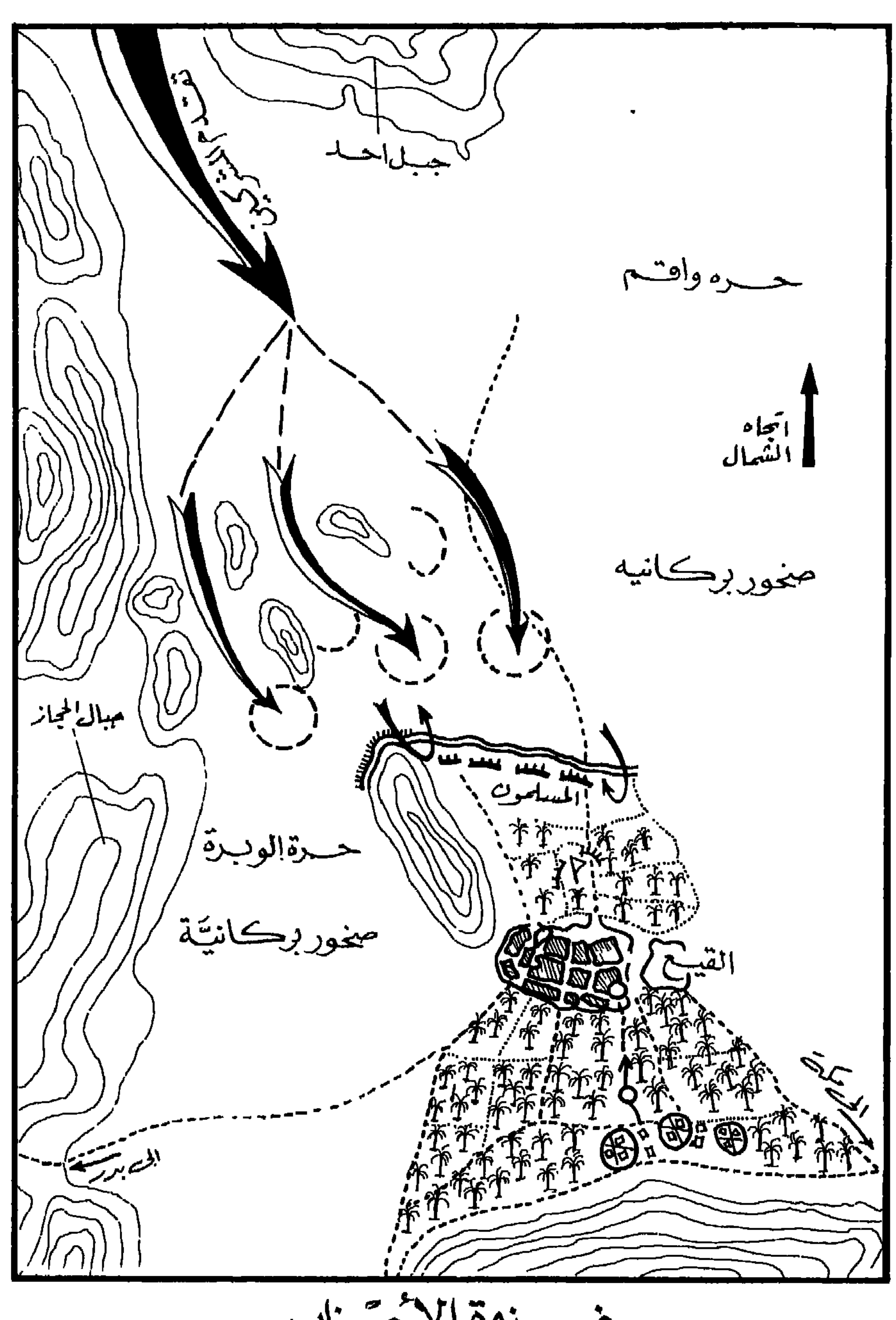
جمع الرسول أصحابه ، ووضعهم في صورة ما يجري طالباً رأيهم في كيفية مواجهة عدوهم الغاشم .

وكان المسلمون قد واجهوا المشركين في وقعتين مهمتين ، في بدر وأحد . لكن القوات الزاحفة هذه المرة لم يسبق لهم أن واجهوا مثلها ، لا عدداً ولا عُدّة . فقد كانت قوات المسلمين لا تتجاوز الثلاثة آلاف بمن فيهم « المنافقين » الذين كانوا يشكلون نسبة كبيرة قياساً بمجموع قوات المسلمين ، وهذا ما جعل القرار الأمثل هو في الدفاع عن المدينة ، اعتماداً على موقعها الجغرافي المناسب للدفاع ، وذلك بالتحصن فيها والاستفادة القصوى من جميع الإمكانات المتوافرة .

كان واضحاً أن أي مهاجم للمدينة ، سيضطر للمهاجمة من اتجاه الشمال ، لأن المدينة محاطة من الشرق بصخور بركانية وما يعرف بـ « حرَّة واقم » ومن الجنوب ببساتين نخيل يليها جبال . ومن الغرب

---

(١) ابن سعد : طبقات ، ج ٢ ، ص ٦٦ .



غزوة الأحزاب

بـ « حرة الوبرة » وصخور بركانية تعيق تقدم الجيوش .

وفي أثناء وضع خطة الدفاع ، أعطى سلمان الفارسي رأياً كان له الأثر الأكبر في ربح المعركة . قال : « إنّا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا »[1] أي حفرنا خندقاً يمنع العدو من التقدم نحونا . فأعجب الرسول ﷺ بالفكرة ، وأمر بحفر الخندق من جهة الشمال بين حرة واقم من الشرق وحرة الوبرة من الغرب . وقد شكل هذا الخندق فيما بعد مفاجأة للأحزاب اضطرتهم الى الوقوف أمامه عاجزين عن عبوره . وهذه المفاجأة كانت العامل الأهم في كسب المعركة .

الخنـــدق :

لا أهمية للخندق ان لم ينجز في الوقت المناسب ، وان لم يُغطِّ المنطقة الصالحة للتقدم كلها ، وان لم يكن عريضاً وعميقاً بقدر كاف لمنع الخيل من اجتيازه .

وكان الخندق اللازم لتغطية المنطقة يبلغ ما بين ٣٥٠٠ ـ ٤٠٠٠ متر ، بعمق حوالي خمسة أمتار وعرض ستة أمتار أو أكثر بقليل . وبناء على ذلك فقد قسم الرسول المسافة وحدات طولية ، كل وحدة بطول ثلاثين متراً كلف بها عشرة رجال ، أي كان على كل رجل أن يحفر ٣×٦×٥=٩٠ متراً مكعباً . فاذا علمنا أن حفر الخندق استغرق شهراً ، يكون كل رجل قد حفر بمعدل (٣ م^{3}) ثلاثة أمتار مكعبة يومياً على أقل تقدير ، وعلى افتراض صحة رواية إنجاز العمل في شهر كامل وليس في أقل من شهر[2] . وهذا عمل مجهد ، فالحفر يواجه صعوبات من صخور

(١) الطبري : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٦٦ .

(٢) طلاس : الرسول العربي وفن الحرب ، ص ١٩٨ ـ ١٩٩ . خليل ، دراسة في السيرة ص ٢١٠ .

وأحجار وأرض قاسية ، ولما يستتبع الحفر من نقل التراب بوسائل بدائية ، ولهذا كان المسلمون يعملون بجد ونشاط بإشراف الرسول نفسه ومساعدته . فقد كان يعمل بالحفر بيده ، بل إذا استعصت صخرة شكوا إليه أمرها فعمد إلى معالجتها بيديه الشريفتين[1] .

تمّ حفر الخندق واتخذت قوات المسلمين مواقعها الدفاعية خلفه باتجاه المدينة ، مستفيدة من حرة واقم لحماية ميمنتها وجبل سلع وبساتين النخيل لحماية مؤخرتها ، وحرة الوبرة لحماية ميسرتها . ووزع الرسول ﷺ مخافر الحراسة على مداخل المدينة ، وعند طرفي الخندق وفي مكان لم ينته العمل فيه بالشكل الكامل . وعين دوريات الارتباط والمراقبة ، وتم تأمين حماية المؤخرة ، والنساء والصبيان والبيوت .

الحصـــار :

وصلت قوات المشركين من جهة الشمال ، كما كان منتظراً ، وعسكرت قريش كما يقول الطبري بمجتمع الأسيال[2] ، من رومة ، بين الجرف والغابة (أو زغابة كما يقول ابن هشام[3] وهو الأصوب وهي في مجمع الأسيال فيجمع بين الروايتين) . وعسكرت غطفان ومن تابعهم من أهل نجد في مكان اسمه « ذنب نقمى » إلى جانب جبل أحد . وربما زاد عدد المهاجمين بالتحاق الكثير من الأعراب الذين لا هم لهم سوى السلب والنهب .

---

(١) البخاري : المختصر، ص ٣٦٩، الحديث ١٦٢٦ « عن جابر رضي الله عنه قال : إنّا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كدّية (قطعة صلبة) شديدة فجاؤوا النبي فقالوا : هذه كُدَيَّة عرضت في الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً ، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكُدية فعاد كثيبا أهيل » (أي رملاً).

(٢) الطبري : تاريخ ، ج ٢ ص ٥٧٠ .

(٣) ابن هشام : سيرة ج ٣ ص ٢٣٠ .

وكانت قوات المسلمين في مواقعها ، تراقب بيقظة وتتهيّأ لمواجهة أي طارىء .

كانت خطة الغزاة ، كما أحكمها زعماء يهود مع زعماء المشركين ، أن تتقدم قوات المشركين من الشمال باتجاه المدينة لاحتلالها ، وفي الوقت ذاته يتحرك يهود بني قريظة من خلف المسلمين ، وكانوا ما يزالون في المدينة ، وبينهم وبين المسلمين معاهدة تعاون ودفاع مشترك .

وتنفيذاً لتعهدات خونة يهود للمشركين ذهب حيي بن أخطب ، رأس المؤامرة ، الى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم . فلما سمع به كعب أغلق دونه حصنه ، ولكنه ما زال يناديه ويلح عليه حتى وافق على استقباله ، وفي خلال اللقاء استطاع حيي بن أخطب إقناع كعب بنقض عهده مع الرسول ، فنقض العهد وتبرأ منه[1] .

ولما علم الرسول بالأمر ، أرسل وفداً على رأسه سعد بن معاذ سيد الأوس ، وسعد بن عبادة سيد الخزرج ، للتأكد من صحة الخبر ، وقال لهم : انطلقوا حتى تنظروا ، أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فان كان حقاً فالحنوا لي لحْناً نعرفه ، [أي أخبروني بواقع الحال بطريقة رمزية] ولا تفتّوا في أعضاد الناس [كيلا تنهار الجبهة الداخلية] ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس[2] ، [حتى تقوى عزائمهم] .

فخرجوا حتى التقوا بيهود فوجدوهم على أخبث حال ، وشتموهم وذكروا الرسول ﷺ بسوء ، وقالوا : لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد . فعاد الوفد إلى الرسول وقالوا له « عضل والقارة » . (أي غدروا كغدر

---

(١) ابن هشام : سيرة ج ٣ ، ص ٢٣١ .
(٢) ابن هشام : سيرة ج ٣، ص ٢٣٢ .

قبيلتي عضل والقارة اللتين مرّ معنا غدرهم بأصحاب الرسول في الرجيع).

فكان جواب الرسول ﷺ الله أكبر ! أبشروا يا معشر المسلمين . . . كان هذا جوابه لتقوية معنويات أصحابه ، أما واقع الحال ، فإن الخبر بدأ بالانتشار بين المسلمين واشتدَّ الخوف ، وعمَّ البلاء . وكان على المسلمين أن يحرسوا النساء والأطفال بالإضافة إلى حراسة الخندق . فعين الرسول لذلك مجموعتين : الأولى من مائتي رجل بقيادة سلمة بن أسلم ، والثانية من ثلاثمائة بقيادة زيد بن حارثة .

وأخذ المنافقون يُخَذِّلون المسلمين ، ويبثون الشائعات ، ويتهكمون على المسلمين ، حتى أن أحدهم قال : « كان محمد يَعِدُنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط »[1] .

أما المشركون ، فقد فوجئوا بالخندق ، فلم يستطيعوا التقدم بحسب الخطة الموضوعة ، ففرضوا الحصار على المدينة ، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبل والسهام ويرد عليهم المسلمون برمي مماثل .

ولما مضى على الحصار ما يقارب الشهر ، أرسل الرسول إلى قائدي غطفان : عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف المُرِّيِّ ، فعرض عليهما ثلث ثمار المدينة ، على أن يرجعا بمن معهما ، وكتب بذلك كتاباً ، واشترط لإبرامه موافقة أصحاب العلاقة من أهل المدينة . فاستدعى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ، وعرض عليهما الأمر ، فقالا : « يا رسول الله ، أمر تحبه فنصنعه ، أم شيء أمرك الله عز وجل به ، لا بد لنا من عمل به ، أم شيء تصنعه لنا ؟ قال : لا ، بل لكم ، والله ما أصنع

(١) ابن هشام : سيرة ، ج ص ٢٣٣ .

ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة . . . »[1] .

فقال له سعد بن معاذ : « يا رسول الله ، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شرك بالله عز وجل وعبادة الأوثان ، ولا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا ثمرة إلا قِرىً (ضيافة) أو بيعاً . أفَحينَ أكرمَنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ! ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فقال رسول الله ﷺ : فأنت وذاك ! فتناول سعد الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب »[2] .

أدرك قادة غطفان مغزى هذا الموقف ، ولم ينسوه حتى انتهاء الحصار ، وربما أثر في معنوياتهم أن وجدوا أناساً مستعدين للقتال حتى الموت دفاعاً عن عقيدتهم ومدينتهم .

« لم يكن حصار المشركين وحده هو الذي يضيق الخناق على المسلمين بل كان هنالك من الداخل ما يزيدهم إرهاقاً وخوفاً وعناءً . . . .

الأقوات القليلة المتناقصة يوماً بعد يوم ، وشبح الجوع الذي لا يرحم ، والبرد القارص في ليالي الشتاء الطويلة ، والحرب النفسية العاتية التي شنتها جيوب المنافقين من صفوف المسلمين مخذلة معوِّقة مخوفة . . والسهر القاسي في الليالي الطويلة حتى إن محمد بن مسلمة قال : كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرَّجه الله . ثم جاء انتقاض بني قريظة علامة خطر أكيدة لمعسكر المسلمين الصامد ، فعظم البلاء واشتد الخوف حتى إن الرسول محمد ﷺ لم يكن يسمح لأحد من أصحابه بالتوجه إلى داخل

---

(١) الطبري : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ .
(٢) الطبري : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ .

المدينة إلا وهو يحمل سلاحه حذراً من غدر بني قريظة »[1] .

صحيح أن الضائقة اشتدت على المسلمين ، ولكن الأحزاب أيضاً ضجوا وضجروا ، لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً بعد هـذا الحصار كله . فعمد فرسانهم إلى مكان ضيِّق في الخندق ، أغفله المسلمون ، فعبر منه عِكرمة بن أبي جهل ، أشهر فرسانهم ، ومعه جماعة من خيرة الفرسان . وما أن تجاوزوا الخندق وأصبحوا بينـه وبين جبل سَلَع حتى خرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، فسدّوا الثغرة حيث عبر المشركون . ولما رأى ذلك فرسان قريش سارعوا إليهم ، وفي مقدمتهم عمرو بن عبد ودّ ، فبارزه علي بن أبي طالب وقتله[2] ، فهربت خيله حتى اجتازت الخندق ، وقتل مع عمرو رجلان ، وأصيب سعد بن معاذ بسهم قطع أحد عروق ذراعه الرئيسة ، وبقي جرحه ينزُّ حتى مات بعد المعركة .

وفي اليـوم التالي ، اقتحم المشـركون من ذلـك المكان أيضـاً . ودارت معارك طوال النهار حتى فاتت المسلمين الصلوات[3] . وحـاول خالد بن الوليد ، وكان لا يزال مشركاً ، أخـذ المسلمين على غِرَّة فلم يـوفق ، وانتهى القتال مـع انتهاء ذلـك النهار . ولم تحصـل صدامـات جماعية بعد ذلك على الإطلاق . ولكن الطلائع والدوريات استمرت . . المشركون يأملون في أخذ المسلمين على غرّة ، والمسلمون يحـرسون النقاط الهامة ، ويراقبون تحركات المشركين كيلا يأخذوهم على غرّة .

مسلمٌ يغير مسار الحصار :

في هذه الأثناء أسلم أحد رجالات عطفان المعروفين واسمه « نعيم ابن مسعود» ولم يعلن إسلامه، بل جاء إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول

---

(١) خليل : دراسة في السيرة ، ص ٢١٣ .
(٢) الطبري : تاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٧٤.
(٣) ابن سعد : طبقات ، ج ٢ ، ص ٦٨ . والنويري : نهاية الارب ، ج ١٦ ص ١٧٤ .

الله ، إني قد أسلمت ، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي ، فمرني بما شئت . فقال له رسول الله ﷺ : « إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فان الحرب خدعة » . فخرج نعيم حتى أتى بني قريظة ، وكان صديقاً لهم ، فقال لهم ما معناه : إن الصِلات والودّ بيننا يفرض علي أن أنصحكم . فقريش وغطفان جاؤوا المدينة من بلاد أخرى ، وهم يحاولون انتهاز فرصة ما ، ويبغون الغنيمة ، فإن لم يستطيعوا الظفر بها عادوا إلى بلادهم ، وتركوكم مع الرجل في بلدكم ، ولا طاقة لكم به . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهائن من أشرافهم ، يكونون لكم ضماناً ليقاتلوا معكم ولا يتخلوا عنكم . فأعجبهم ذلك وقرروا العمل بنصيحته .

ثم جاء إلى قريش ، وبعدها غطفان فقال لهم ما معناه : إن يهود أرسلوا إلى محمد وقالوا له : إنا ندمنا على ما فعلناه ، فهل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم ، نسلمهم لك ، فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم ، فأرسل إليهم بموافقته . فإن بعث اليهود يطلبون رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً[1] .

ثم إن أبا سفيان وقادة غطفان ، أرسلوا في ليلة سبت من شوال ، عكرمة بن أبي جهل على رأس جماعة من قريش وغطفان إلى بني قريظة فقال لهم : « إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخفّ والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه[2] . فكان جوابهم أن اليوم يوم سبت لا نعمل فيه ، ثم إننا لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا ، فإننا نخاف إذا اشتد عليكم البلاء أن تتركونا مع محمد ولا طاقة لنا به » .

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ وما بعدها .
(٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٥٧٩ .

فلما رجعت الرسل بمقالة يهود ، قالت قريش وغطفان إن الذي ذكر نعيم بن مسعود لحقٌّ . فأرسلوا إلى بني قريظة رافضين أن يدفعوا إليهم برجل واحد . فقال بنو قريظة حين وصلهم الخبر : صدق نعيم بن مسعود ، إن القوم لا يريدون أن يقاتلوا ، فإن وجدوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك عادوا إلى بلادهم .

وهكذا اختلف الحلفاء وتزعزعت الثقة بينهم . وبعث الله عز وجلّ ريحاً شاتية كثيرة البرد ، فجعلت تقلب قدور الأحزاب ، وتخرب بيوتهم .

ولما علم الرسول بتفرق كلمتهم ، دعا حذيفة بن اليمان وكلفه بالتسرب إلى معسكرهم ليلاً لمعرفة ما يدور فيه ، والعودة إليه بالخبر الصحيح .

نفَّذ حذيفة المهمة على أكمل وجه ، وعاد ليخبر الرسول بما شاهد :

كان الظلام دامساً ، والريح شديدة ، والنيران مطفأة ، فقام أبو سفيان فقال : « يا معشر قريش ، لينظر امرؤ جليسه ، قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت : من أنت ؟ قال : أنا فلانُ ابن فلان . ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكُرَاع والخفّ[1] . وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قِدْرٌ ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء . فارتحلوا فإني مرتحل[2] .

بهذه الكلمات ، أنهى أبو سفيان غزوة الأحزاب ، وبدأ

---

(١) الكُرَاع : اسم يطلق على الخيل والبغال والحمير . والخف : بمثابة الحافر للإبل . وقصد أبو سفيان بقوله ، أن خيلهم وبغالهم وحميرهم وإبلهم قد هلكت .

(٢) ابن هشام ، سيرة ، ج ٣ ، ص ٢٤٣ . ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

الانسحاب ، فكلف خالد بن الوليد بحماية مؤخرة المشركين بفرسانه ، وسار على رأس قريش باتجاه العودة إلى مكة . وبذلك أنهى العمليات الهجومية التي يمكن أن تقوم بها قريش ضد المسلمين إلى الأبد .

أدرك ذلك رسول الله ﷺ ، فوقف على الخندق ، وبعدما جال ببصره في الأفق ، التفت إلى أصحابه وقال : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم[1] » . وقد أثبتت الأيام صدق قوله ، وصحة استنتاجاته ، فقد كانت غزوة الخندق آخر عمل هجومي تقوم به قريش .

كانت خسائر المسلمين في المعركة ستة شهداء ، وخسائر المشركين أربعة نفر . ونزل فيها قرآن كثير[2] .

تحليل المعركة :

نتيجة المعركة ، فشل تام لقريش ، بقيادة أبي سفيان وحلفائها . ونصر للمسلمين بقيادة الرسول القائد العظيم .

ويمكن اختصار أهم أسباب فشل المشركين بما يلي :

١ ـ عدم وحدة القيادة ، واختلاف أهداف المهاجمين . فقد كانت قريش تهدف إلى القضاء على الدين الإسلامي ، وغطفان تأمل بنهب المدينة وفرض أتاوة على أهلها ، يفسر ذلك موافقتهم على الانسحاب من المعركة مقابل ثلث ثمار المدينة ، الأمر الذي رفضه الأنصار كما مر معنا . ويهود بني قريظة ترددوا كثيراً حتى وافقوا على مخطط أبناء دينهم من يهود الذين أجلوا عن المدينة إلى خيبر . وقد

---

(١) البخاري : المختصر ، ص ٣٧٠ ح ١٦٢٧ « عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : قال النبي يوم الأحزاب : (نغزوهم ولا يغزوننا) .

(٢) راجع سورة الأحزاب .

امتازوا بالتردد وعدم الثقة بحلفائهم من أول الحصار حتى آخره ، وكانوا يأملون أن يقضي الأحزاب من قريش وغطفان على المسلمين دون أية تضحيات فعلية منهم في المعركة .

٢ ـ اختيار المسلمين موقفاً دفاعياً في داخل المدينة ، بالإضافة إلى موقع المدينة الحصين طبيعياً من ثلاثة اتجاهات ، ناهيك عن استكمال ذلك الموقع الحصين بالخندق الذي كان له دوران مهمان :

الأول : حقق مفاجأة للمهاجمين قلب خططهم رأساً على عقب .

الثاني : حرم المهاجمين من خوض معركة غير متكافئة كانوا يحلمون بالنصر فيها لتفوقهم الهائل في العدَد والعُدَّة .

٣ ـ طريقة الدفاع « المرنة » التي اعتمدها الرسول ﷺ ، فقد كانت قواته جاهزة باستمرار للتحرك باتجاه أية ثغرة وسدها بسرعة . كما أن انتظام الدوريات والمراقبة المستمرة والشاملة حرم المشركين من انتهاز أية فرصة .

٤ ـ ثبات المسلمين ، واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم ، ظهر ذلك بجلاء عندما رفض سادة الأوس والخزرج دفع أتاوة من ثمار المدينة لزعماء غطفان ، مما جعل أولئك الزعماء يدركون خطورة المعركة التي تنتظرهم فيما لو حصلت ، وربما حملهم ذلك على تقويم جديد لمواقفهم .

٥ ـ سوء اختيار زمان المعركة من قبل المشركين ، فقد كان الشتاء قاسياً ، وهم لم يعتادوا البرد الشديد ، ولم يتمكنوا من تأمين الإمدادات لقواتهم الكبيرة . وكان مقامهم في العراء تحت الخيام يحرمهم الدفء الذي تؤمنه الأبنية ، وكثيراً ما اقتلعت الرياح خيامهم وأطفأت نيرانهم حتى ضجوا بموقفهم عندما طال الحصار دون نتيجة .

وكان قرار الانسحاب في لحظة من تلك اللحظات القاسية التي اشتدت فيها الرياح ، والأعاصير حتى ظنوا الموت آتيهم من غير حرب .

٦ ـ الحرب النفسية المدمرة التي قادها ابن مسعود بحنكة عالية تعجز عنها أرقى أجهزة المخابرات المعاصرة ، فقد استطاع وحده أن يفرق صفوف الأحزاب ويزعزع الثقة في نفوسهم مما جعلهم يحجمون عن الدخول في المعركة وحسم الحصار بالمواجهة كما مرّ معنا[(١)]

وكان من نتائج هذه المعركة أن كشفت أهمية تحصين الجبهة الداخلية ، وضرورة التنبه للمجموعات المعادية ، التي يخرسها الخوف في أثناء السلم ، وتحركها الأحقاد عند أول فرصة سانحة لتكون عوناً للأعداء على الحلفاء .

لذلك نجد الرسول ﷺ عمد إلى تطهير المدينة من بني قريظة عقب فك الحصار مباشرةً وقبل إلقاء السلاح .

---

(١) اتبع يهود هذا الأسلوب ضد المسلمين بنجاح باهر ، ابتداء من موقف عبد اللّٰه بن سبأ ومخططه في أثناء الفتنة التي رافقت مقتل الخليفة الثالث عثمان رضي اللّٰه عنه ووقعة الجمل ، وحتى هذا التاريخ ، بينما لا نجد في التاريخ الإسلامي حادثاً مماثلاً لما فعله ابن مسعود . (راجع الفتنة ووقعة الجمل ، اعداد أحمد راتب عرموش ، ط ٥ ، دار النفائس) .

الباب الثاني

مرحلة الهجوم

وفيه أربعة فصول :

الفصل الأول : اتفاق الحديبية .
الفصل الثاني : بعد الحديبية .
الفصل الثالث : فتح مكة .
الفصل الرابع : بعد الفتح .

الفَصْلُ الأوَّلُ

اتفاقُ الحُدَيْبيَّة

(في ذي القعدة سنة ٦ هـ)

﴿ إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً * لِيَغفرَ لَكَ اللهُ ما تَقدَّم من ذَنبِكَ وما تأخَّرَ ويُتم نِعمتَهُ عليكَ ويَهديكَ صراطاً مستقيماً * ويَنصركَ الله نصراً عزيزاً ﴾[٢] .

---

(١) سميته اتفاقاً لأن الهدنة، لغة، كما جاء في لسان العرب: السكون بعد الهيج. ويقال للصلح بعد القتال هدنة، وربما جعلت للهدنة مدة معلومة. وهي تعني في المصطلح الحديث : وقف الحرب إلى حين . وغالباً ما تكون بانتظار التوصل الى تسوية محددة بين الطرفين المتنازعين وتوقيع معاهدة الصلح . بينما الصلح هو إنهاء لحالة الحرب بشكل كامل ، بحيث يحل السلام مكان القتال والعداء .

ولذلك فإن « صلح الحديبية » هو في واقعه هدنة ، بالمفهوم الحديث للهدنة ، لأنه كان ينص على إيقاف القتال والأعمال العدائية بين الطرفين مدة محددة . وقد درجت كتب السيرة على تسميته صلحاً آخذة بالمعنى اللغوي الواحد للكلمة . وقد كان عمر رضي اللّه عنه اكثر دقة في تسميته ذلك الصلح هدنة حين قال : « فلما وقعت القضية أسلم في الهدنة اكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول اللّه ﷺ الى يوم الحديبية » .

ـ راجع ص ١٩٩ من هذا الكتاب ـ .

وقد فضَّلتُ تسميته « اتفاقاً » كيلا تكون التسمية ذريعة لدعاة الصلح مع العدو مستندين على سابقة « صلح الحديبية » الذي كان في اللفظ صلحاً وفي المضمون هدنة . وإن جاء في سياق البحث اسمه صلحاً فذلك تمشياً مع ما جاء في كتب التاريخ والسيرة ، فاقتضى التنويه .

(٢) الفتح ، ١ ـ ٣ .

بعد الأحـزاب :

عاد رسول الله ﷺ بجيشه الظافر من غزوة الأحزاب إلى المدينـة ضحى . وتنفس المسلمـون الصعـداء ، فقـد زال كـابـوس رهيب عن صدورهم ، وكسبوا معركة البقاء بعدمـا كان وجـودهم مهدداً بـالزوال . ولكن ، قبل الاسترخاء ، وبعد استراحة لم تتجاوز الساعات ، أذَّن مؤذن رسـول الله ﷺ بعيد الـظهر قـائلاً : « لا يصلّين أحـد العصـر إلا ببني قريظة » .

لقـد قـرر الـرسـول تنـظيف قـاعــدتـه من الأعــداء والمنـافقين والجواسيس ، بعدما كشفوا أقنعتهم عن وجوه الغدر والخيانة . فسلم رايته إلى علي بن أبي طالب وقدَّمه ، وسار بالمسلمين وهم ثلاثة آلاف ، معهم ستٌ وثلاثون فرساً . فحاصر حصون بني قريظة خمساً وعشرين ليلة[1] . وكان معهم في تلك الحصون « حيي بن أخطب »[2] ، دخل حصونهم وحوصر معهم وفاءً منه للوعد الذي قطعه لزعيمهم « كعب بن أسد » عندما فاوضه على الخيانة ، وأقنعه بنقض عهده مع رسول الله ﷺ .

---

(١) ابن هشام : سيرة ، ج ٣ ص ٢٤٦ .

(٢) حيي بن أخطب أحد زعماء بني النضير ، من يهود المدينة ، الذين أجلاهم المسلمون عنها . وهو من قادة يهود الذين حرضوا قريشاً وغطفان على مهاجمـة المسلمين في المدينة . وفي أثناء الحصار (في غزوة الخندق) جاء الى كعب بن أسد زعيم بني قريظة الذي كان قد حالف الرسول (ﷺ) ، وألح عليه حتى أقنعـه بنقض عهده مـع المسلمين ، والانقلاب عليهم ، ووعده إن رجعت قريش ولم تنل من محمد وأصحابه أن يأتي الى كعب ويدخل معه في حصنه حتى يصيبه ما يصيبه . وقد وفى بوعده ، وناله ما نالهم فقد قطعت رأسه بعد استسلام بني قريظة .

ذكر ابن هشام في السيرة ج ٣ ، ص ٢٥٢ انه لما أُتي به ليقتل « فلما نظر الى رسول اللّه ﷺ قال : أما واللّه ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يَخذُل اللّه يُخْذَل ، ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، إنه لا بأس بأمراللّه ، كتاب وقدر وملحمة كتبها اللّه على بني اسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه » .

ولم يجد اليهود بعدما ضُيِّقَ عليهم الخناق وشدِّد الحصار ، سوى النزول على حكم رسول الله ، الذي فوض حليفهم قبل الإسلام « سعد ابن معاذ » بالحكم في أمرهم . وكان حكمه حلاً جذرياً ، نطق به بعدما أخذ العهد على الجميع بقبول حكمه . لقد حكم بقتل الرجال ، وقسم الأموال ، وسبي الذراري والنساء[1] . . وبذلك انتهى وجود يهود في المدينة إلى الأبد .

وكأني بالرسول في المدينة بعد هذه المرحلة الشاقة ، يُطرق مفكراً ، يستعيد في ذاكرته قسوة قريش عليه وعلى أصحابه ، ويستعرض ما لاقاه من أذىً هو وأصحابه ، ويدرك أن قريشاً لن يقرّ لها قرار ما لم تقض عليه وعلى دينه . . . ثم ينتقل بتفكيره إلى الأعراب الذين وصفهم القرآن بأنهم أشدّ كفراً ونفاقاً ، وقد أظهروا أنهم على استعداد دائم لمساعدة أعدائه والانقضاض على قاعدته .

والقائد الحكيم لا ينتظر اعداءه حتى يطرقوا بابه ، ولا يفسح لهم في المجال حتى يتوحدوا ضده . ولهذا قرر الرسول الكريم ﷺ القيام بعدة حملات « إجهاضية وتأديبية » تهدف إلى معاقبة كل من أساء إلى الرسول ودعوته كيلا يقدم على الإساءة مرة أخرى ، كما تهدف إلى إنذار كل من يفكر بالإساءة ، ليعلم مسبقاً أن اعتداءه لن يمر بدون عقاب كما تهدف أيضاً إلى إثبات وجوده ، قوة فاعلة على صعيد الجزيرة العربية كلها ، وتقوية مركزه العسكري والمالي . ولتحقيق تلك الأهداف أرسل السرايا وقاد الغزوات المبينة فيما يلي :

ـ سرية عبد الله بن عتيك إلى « أبي رافع سلام ابن أبي الحقيق

---

(١) ابن هشام : سيرة ، ج ٣ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ وانظر البخاري : المختصر ، ص ٣٧٠ حديث ١٦٢٩ .

النضري » بخيبر وكان هدفها قتل أبي رافع لأنه جيّش غطفان ضد الرسول ، ودفع الأموال لتعبئة الجيوش وتسييرها لمحاربة المسلمين .

- سرية محمد بن مسلمة إلى القُرَطاء ، وهم بنو قُرط وقريط من بني كلاب ، بهدف إثبات الوجود ، وبث الرعب في قلوب الأعراب .

- غزوة بني لِحْيان بناحية « عسفان » انتقاماً لعاصم بن ثابت وإخوانه الذين قتلهم بنو لحيان .

- غزوة ذي قَرَد تأديباً لعيينة بن حصن الذي أغار على نوق لرسول الله وسلبها وقتل ابن أبي ذر الغفاري .

- سرية عُكاشة بن محصن الأسدي بهدف إثبات الوجود والحصول على غنائم ، لتقوية جيش المسلمين .

- سرية محمد بن مسلمة إلى بني ثعلبة بذي القصة ، بهدف الاستطلاع ، وجلب المعلومات .

- سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى « ذي القصة » ، في عملية « إجهاضية » قبل أن يغيروا على سرح (أنعام) المدينة ، بعدما علم بنيتهم تلك .

- سرية زيد بن حارثة إلى بني مسلم بـ « الجَمُوم » ، بقصد إثبات الوجود وجلب الغنائم .

- سرية زيد بن حارثة إلى « العِيص » بقصد الاستيلاء على عير لقريش ، إضراراً بقريش ، وتقوية للمسلمين .

- سرية زيد بن حارثة إلى بني ثعلبة من الطرف بقصد إثبات الوجود وجلب الغنائم .

- سرية زيد بن حارثة إلى « حِسمى » ، انتقاماً لاعتداء قبائل تلك المنطقة على رسول رسول اللّه إلى قيصر الروم .

ـ سرية زيد بن حارثة إلى « وادي القوى » .
ـ سرية عبد الرحمن بن عوف إلى « دومة الجندل » .
ـ سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر « بِفَدك » .
ـ سرية عبد الله بن رواحة إلى « أسير بن رزام » اليهودي بخيبر .
ـ سرية كِرز بن جابر الفِهري إلى « العرينين » .

ـ سرية « عمرو بن أمية الضمري » و « سلمة بن أسلم » إلى أبي سفيان بمكة . وسببها أن أبا سفيان حاول اغتيال الرسول في المدينة بوساطة عميل أرسله من مكة ، وقد اكتشف أمره فأرسل الرسول عمرو بن أمية وسلمة ليغتالا أبا سفيان جزاءً نكالاً على فِعلته .

وهذه السرايا مشروحة في كتب السيرة ، يمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع إليها .

على طريق العمرة :

بعدما وطَّد الرسول سلطته في المدينة ، وفيما حولها ، تطلع إلى الجنوب ، إلى مكة ، قبلة العرب ، فوجد أنه غير قادر على فتحها ، وقريش فيها ما زالت قوية تحوك المؤامرات ، وتتربص به وبدعوته الدوائر .

ونظر إلى الشمال ، فإذا يهود ما زالوا في خيبر يحاولون تقوية حلفهم مع قريش وتشكيل « كماشة » تحيط بالمدينة من الشمال والجنوب . وكي يستطيع التقدم بدعوته لا بد له من كسر هذه الكماشة ، وتحييد أحد الطرفين لمتابعة انطلاقه في دعوته .

هذه المرة قرر القيام بعمل سياسي ، فاستنفر أصحابه إلى العمرة ، واستنفر معهم أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى أن تصده قريش عن البيت الحرام . فأبطأ معظم الأعراب ، وخرج معه ، في أرجح

الروايابت ، ألف وأربعمائة صحابي من المهاجرين والأنصار[1] معتمرين لا يريدون حرباً ، وكان خروجهم في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة .

كان العرب يقدسون الكعبة ، وأراد الرسول بعمله أن يكسب الرأي العام لدى القبائل العربية ، إلى جانبه ، فأشاع أنه يريد العمرة ، ولا يريد حرباً ، ولذلك لم يحمل رجاله سوى السيوف في أغمادها . وساق معه الهدي[2] ، حتى إذا وصل « ذا الحُليفة » صلى الظهر ثم أحرم بالعمرة ، وأشعر الهدي (وضع له إشارة) على عادتهم في ذلك الزمن . واتخذ للركب حيطة فسيّر أمامه طليعة من عشرين فارساً بقيادة عباد بن بشر[3] .

وانتشر خبر خروجه كالريح في جزيرة العرب . . ، وكان للرسول ما أراد ، فقد أصبح خبر خروجه على كل شفة ولسان في جزيرة العرب ، وانقسم الناس بين مؤيد ومعارض ومراقب . ووصل الخبر الى أسماع قريش فاجتمع رجالها يتداولون الأمر ، واختلفت الآراء في السلوك الواجب اتباعه حيال المسلمين القادمين من الشمال . وكان القرار صدَّهم عن دخول مكة ، فخرج المشركون إلى وادٍ يقال له « بلْدح » وعسكروا فيه ، ووجهوا « خالد بن الوليد » على رأس مائتي فارس إلى موضع في الطريق بين مكة والمدينة اسمه « كراغ الغميم» وفي طريقه إلى مكة التقى الرسول برجل اسمه « بشر بن سفيان الكعبي » ودار بينهما حديث ، يلخص فكرة الرسول التي كان يرغب أن تأخذ بها قبيلته .

---

(١) البخاري : مختصر ، ص ٣٧٢ ، حديث ١٦٣٧ عن جابر رضي اللّه عنه قال : قال لنا رسول اللّه ﷺ يوم الحديبية أنتم خير أهل الأرض ، وكنا الفاً وأربعمائة . . ويراجع الطبري ج ٢ ، ص ٦٢١ .

(٢) الهدي : هو النعم التي تنقل الى الحرم للذبح (الجرجاني ، التعريفات) وفي قلعه جي ، معجم لغة الفقهاء : « هو ما يهدى الى الحرم من النعم وغيرها » .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٢ ، ص ٩٥ .

قال بشر ما معناه : إن قريشاً استعدت للقتال وخرجت لملاقاة الرسول وقد تعاهد رجالها على منع المسلمين من دخول مكة مهما كلفها الأمر.

وقال الرسول : « يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ؟ فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن أظهرني اللّه عليهم دخلوا في الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ واللّه لا أزال أجاهد على الذي بعثني اللّه به حتى يظهره اللّه أو تنفرد هذه السالفة[1] » أي حتى الموت .

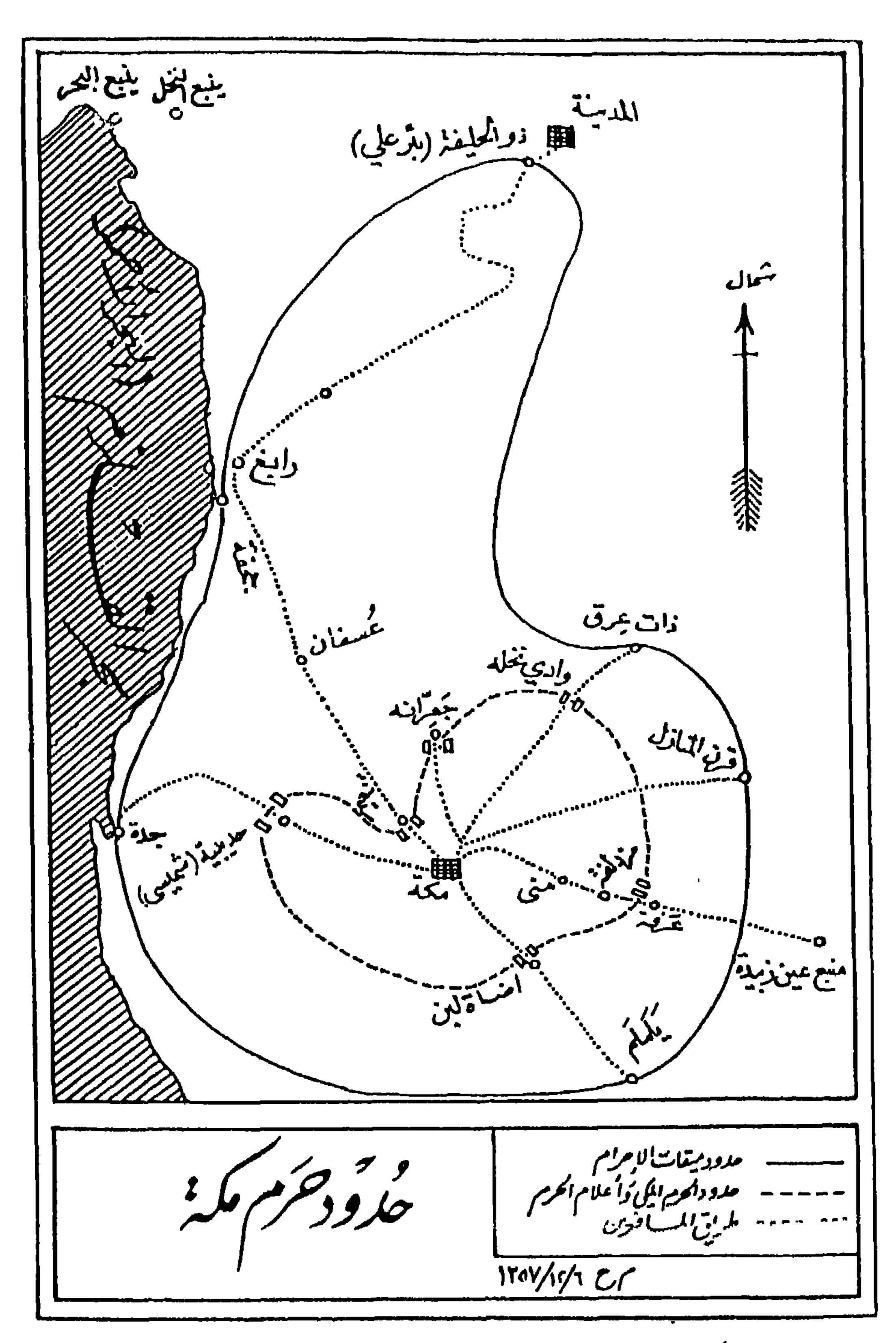
لقد كان واثقاً من النصر ، ضانّاً بعشيرته أن تأكلها الحرب ، فهو يتلهف الى رؤيتها في صفوف جيشه ، لا في صفوف أعدائه .

طـريـق أخـــرى :

وفكّر في الموقف الجديد ، فهو لا يريد حرباً ، والعدو في طريقه ، ولن يترك له الخيار ، فإما أن يحارب ، وهذا ما لا يسعى إليه ، وإما أن يرجع فيترك ذلك أثراً سيئاً على أصحابه وعلى سمعته في الجزيرة العربية . وكان الحل الذي توصل اليه في تغيير الطريق ومفاجأة الناس في مكة . فسأل أصحابه : من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال له رجل من قبيلة أسلم : أنا يا رسول اللّه . فسلك بهم طريقاً وعراً صعباً ، أنهك المسلمين ، ولكنه أفضى بهم في النهاية الى أسفل مكة[2] .

---

(١) الطبري : تاريخ ، ج ٢ ص ٦٢٥ - ٦٢٦ ، والنويري : نهاية الأرب ، ج ١٧ ص ٢١٩ .
(٢) ابن هشام : سيرة ، ج ٣ ، ص ٣٢٣ .



(عن حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للخلافة الراشدة والعهد النبوي ص ٨٩) .

موقف جديد :

ولما رأى المشركون غبار جيش المسلمين من بعيد أدركوا الخدعة ، وعادوا إلى مكة مسرعين . ونزل المسلمون في منطقة الحديبية ، وعسكروا هناك . وقد كان موقف الرسول الذي أعلنه لأصحابه : « لا تدعوني قريش اليوم إلى خِطَّة يسألونني فيها صلة الرحم الا أعطيتهم إياها »[1] .

أما الموقف في قريش فقد كان يتأرجح بين العناد والرغبة في منع المسلمين من تنفيذ هدفهم وأداء عمرتهم من جهة ، والخوف من الحرب من جهة أخرى ، وهم قد عرفوا المسلمين وعانوا من حربهم . والمسلمون اليوم بين أظهرهم ، وبالتالي فان المعركة ستكون في ديارهم ، وما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا ، فقرروا القيام بعمليات « جس نبض » لمعرفة ما يدور في خلد الرسول .

جاء بُدَيْل بن وَرْقَاء الخُزَاعي إلى رسول اللّٰه ، وكانت خزاعة تنصح الرسول وتميل إليه ، وأعلمه أن قريشاً تجهزت لقتاله وصدِّه عن البيت الحرام . فقال له النبي : « إنا لم نأت لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرّت بهم ، فإن شاؤوا مادناهم[2] مدة ، ويخلوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر[3] ، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جمّوا[4] فوالله لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو لينفذن الله أمره »[5] .

---

(١) ابن هشام : سيرة ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ .

(٢) أي : جعلنا بيننا وبينهم مدة نترك الحرب فيها .

(٣) أي : انتصر .

(٤) أي : استراحوا .

(٥) النويري : نهاية الأرب ، ج ١٧ ، ص ٢٢٣ . وحتى تنفرد سالفتي : أي حتى أموت .

نستنتج من كلام الرسول ما يلي :

١ ـ إنه لا يهدف الى قتال قريش في هذه المرحلة ، وإن مجيئه إلى مكة لهدف تعبدي .

٢ ـ رغبته في تحييد قريش ، وإخراجها من حلبة الصراع ولو مؤقتاً .

٣ ـ تصميمه على المضي في دعوته مهما غلت التضحيات .

استمع بديل إلى كلام الرسول واستوعبه ، ونقل ما سمع إلى قريش ، وأعلمهم أن الرسول لم يحضر لقتال ، فاستكبرت قريش وقالت : « إن كان جاء ولا يريد قتالاً فواللّه لا يدخلها (أي مكة) علينا عَنْوةً أبداً ، ولا يحدّث بذلك عنا العرب » . ثم أرسلوا الى الرسول « مِكْرَز بن حَفْص بن الأخْيَفْ » ، فجاء الرسول وسمع ما سمع « بديل » ، فرجع الى قريش وأخبرها بما سمع . فبعثوا شخصاً آخر هو « الحُلَيْسْ بن علقمة » سيد الأحابيش . وكان متديناً ، والرسول يعلم عنه ذلك ، فأمر أصحابه بسوق أنعام الهدي[1] أمامه . فلما رأى الهدي عاد إلى قريش ولم يصل إلى الرسول ، وهدد قريشاً بالوقوف ضدها إن هي منعت الرسول من القيام بواجبه الديني . وكان موقف الحليس أول موقف حازم من أنصار قريش ضد رأي سادة قريش جعلهم يلتمسون من سيد الأحابيش الوقوف على الحياد فقط ليستطيعوا تحصيل شيء ما في المفاوضات .

وقررت قريش المفاوضات :

ثم بعثوا الى الرسول عُرْوَةَ بن مسعود الثقفي ، ودار بينه وبين الرسول حوار طويل ، حضره عدد من صحابة الرسول ، كان عروة يراقبهم ، ويسجل حركاتهم عساه يطلع على ما يفيده من سلوكهم ، ثم

(١) هي الأنعام التي ساقوها معهم ليذبحوها في الحرم ، وتتألف من الإبل والبقر والغنم .

عاد الى المشركين ليعلمهم بملخص ما سمع وما رأى قال :

« يا معشر قريش ، والله لقد وفدت على الملوك ، وفدت على قيصر في ملكه ، وكسرى في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، واللّه إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا عنده خفضوا أصواتهم ، وما يُحدّون النظر إليه تعظيماً له ، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً ، فروا رأيكم » ، وفي رواية : « وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها »[1] .

في الوقت الذي كانت قريش تستطلع آراء الرسول ومواقفه ، وترسل إليه الرجل تلو الآخر فيعود الثاني بما عاد به الأول وأكثر ، كان الرسول أيضاً يرسل إلى قريش رسله ، أرسل أولاً « خِراشَ بن أميَّة الخُزاعي » فعقروا جمله ، وأرادوا قتله فمنعتهم الأحابيش فخلوا سبيله ، فعاد إلى رسول اللّه وأعلمه بما لقيه . فدعا الرسول عمر بن الخطاب ليبعثه الى مكة ، فقال عمر : يا رسول اللّه إني أخاف قريشاً على نفسي ، وليس لي أهل في مكة قادرون على حمايتي ولكني أدُلك على رجل أعزّ بها مني هو عثمان بن عفان[2] ، فبعثه الرسول إلى أبي سفيان وأشراف قريش ليخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته.

بعدما بلّغ عثمان رسالة رسول اللّه قالوا له : « إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول اللّه »[3] .

---

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج ١٧ ، ص ٢٢٦ ، وابن هشام : سيرة ، ج ٣، ص ٣٢٨ .

(٢) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ١٩٩ بتصرف . وابن هشام ، سيرة ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

فاحتبسته قريش عندها وبلغ رسول اللّه أن عثمان قد قتل . عندها قال الرسول ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم » أي لا نغادر هذا المكان حتى نقاتل قريشاً . ودعا المسلمين الى مبايعته ، فبايعه الناس على الموت .

اتفاق الحديبية :

وربما وصل خبر البيعة إلى المشركين ، أو أنهم خافوا نتائج فعلتهم فأرسلوا «سهيل بن عمرو العامري » إلى الرسول وقالوا له : « ائت محمداً فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فواللّه لا تحدِّثُ العربُ عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً[1] ولم يكد الرسول يراه حتى قال لأصحابه : « قد أراد القومِ الصلح حين بعثوا هذا الرجل » . لقد أدرك بحكم خبرته بالرجال أن سهيلاً رجل مفاوضات . . .

وبدأت المفاوضات ، وكان أول شرط لبدئها إطلاق عثمان بن عفان ، فلم يكن الرسول لينسى أصحابه أو يهملهم . فسارعت قريش إلى إطلاقه .

كان صحابة رسول اللّه يطلعون على المفاوضات ، وشروط الصلح ، ويسمعون اقتراحات سهيل بن عمرو وتشدد قريش في عودة المسلمين دون اعتمار . فساءهم ذلك كثيراً فقد كانوا لا يشكون في دخول مكة لرؤيا رآها الرسول ، وقصها عليهم . . . ولكن لما اتفق الطرفان على الخطوط العامة للاتفاق ، أي « وضعوا مسودة الاتفاق » بحسب التعبير السائد في هذه الأيام ، وظهرت بنوده الرئيسة ، وهي :

١ ـ إيقاف الحرب بين الفريقين عشر سنين .
٢ ـ لقبائل العرب الحق في محالفة الرسول (ﷺ) أو محالفة قريش.
٣ ـ من أسلم من قريش بغير إذن وليِّه رده الرسول إلى قريش .

---

(١) ابن هشام : سيرة ، ج ٣، ص ٣٣١ .

٤ ـ من ارتد من المسلمين ولحق بقريش لا يرد إلى المسلمين .

٥ ـ أن يعود الرسول بأصحابه في ذلك العام فلا يدخلون مكة، ولهم في مثل ذلك الوقت من العام التالي أن يعودوا ليس معهم سلاح سوى السيوف في القُرُب ، فتخرج قريش من مكة ويدخلها المسلمون لمدة ثلاثة أيام فقط فيؤدون العمرة ويخرجون بعدها.

ولما رأى المسلمون ذلك أصابهم كدر شديد ، حتى أن عمر بن الخطاب أتى الرسول فقال له: أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى. قال : فعلامَ نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أنا عبد اللّه ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعني[1] .

وكتب عليٌّ الاتفاق بالصيغة التي اقترحها سهيل[2] وفي أثناء كتابة

---

(١) ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٣١ . وقد يستنتج بعض الناس من هذا القول ، ان رسول الله ﷺ كان مأموراً من الله عز وجل في موقفه . وأنا لا أميل إلى هذا الرأي ، لأنه لو كان مأموراً لبين ذلك لأصحابه ، ولما اعترض أحد منهم . ويفسَّر قوله : بأنه لن يخالف أمر الله عامة ، ومنه عدم القتال في العمرة ما لم يُقاتَل . وهذا ما بينه سابقاً بقوله : لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها وها هي قريش اليوم تعرض خطة سلام فعليه أن يوافق عليها حقناً للدماء ، وتنفيذاً لأوامر الله بعدم القتال في العمرة .

وربما كان مأموراً بذلك من الله عز وجل ، ولكنه لم يعلن ذلك لأصحابه ، فلما أعلن ذلك لعمر رضوا جميعهم .

(٢) وتلك الصيغة هي « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وان بيننا عَيْبةٌ مكفوفة . وأنه لا إسلال ولا إغلال . وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب ، لا تدخلها بغيرها » (ابن هشام : مختصر السيرة ص ٢٠١ ـ ٢٠٢) .

الاتفاق ، جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو ، والقيود في رجليه ، وكان قد أسلم فقيَّده الكفار ولكنه استطاع الهرب . فلما رآه أبوه قام إليه وضرب وجهه، وأمسك بتلابيبه واحتج للرسول بأن الاتفاق قد أبرم قبل مجيء ابنه ، فقال له الرسول : « صدقت » . فأخذ يجر ابنه ويلطمه وهو يصرخ والمسلمون ينظرون إليه . ولم يزد الرسول على أن قال له : « يا أبا جندل ، اصبر واحتسب فإن اللَّه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً . إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد اللَّه ، وإنا لا نغدر بهم » .

وشهد على الاتفاق بعد الفراغ من كتابته رجال من المسلمين والمشركين منهم : أبو بكر ، وعمر ، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن ابن عوف وعلي بن أبي طالب كاتب الصحيفة عن المسلمين ، وعبد اللَّه ابن سهيل بن عمرو ، ومِكْرَز بن حفص من المشركين.

كاد الاتفاق أن يزعزع صفوف المسلمين ، حتى أنهم تلكؤوا في التحلل من إحرامهم رغم أمر الرسول لهم بالتحلل ، لأنهم وجدوا في ظاهر الاتفاق تنازلاً للمشركين وعدم مساواة بين طرفي الاتفاق . ولكن الرسول كتم ذلك فهو يعلم من الله ما لا يعلمون . ولذلك بدأ بنفسه فنحر هديهُ ، وحلق رأسه ، فلما رآه المسلمون قاموا يفعلون كما فعل.

وفي أثناء عودة الركب الى المدينة ، كئيباً حزيناً ، فرّج اللَّه عن المسلمين فأنزل على نبيه سورة الفتح : ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفرَ لك اللَّهُ ما تقدم من ذَنْبِكَ وما تأخر ويُتِمَّ نعمتَه عليكَ ويهديك صراطاً مستقيماً** ﴾[1].

---

(١) الفتح : ١ - ٢ .

فهل كان اتفاق الحديبية فتحاً كبيراً ؟

يقول الزهري : « فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس . فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب (أوزارها) وأمِنَ الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة ، فلم يكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينِك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر »[1] .

نتائج اتفاق الحديبية :

يبدو من النظرة السطحية لاتفاق الحديبية أن الرسول قدَّم تنازلات كبيرة لقريش ، ولكن دراسة عميقة لوضع المسلمين قبل الاتفاق وبعده وما نشأ عنه تظهر أن الاتفاق كان فتحاً كبيراً ونصراً عظيماً ، لم يدرك أهميته معظم المسلمين وقت إبرامه ، لأن خيبة أملهم كانت شديدة من عودتهم دون عمرة ، ولما رأوه من عدم مساواة في ردّ من جاءهم مسلماً من قريش وعدم إلزام قريش برد من جاءها مرتداً من المسلمين .

لقد كان المسلمون منذ مُدَّة بسيطة عرضة للمهاجمة والمحاصرة في مدينتهم ، وهم اليوم يتوجهون الى مكة دون خوف أو وجل .

صحيح أنهم لم يتوجهوا إلى مكة لفتحها ، ولكنهم مع ذلك يحطمون كبرياء قريش في عملهم هذا . فإن هي منعتهم من دخول مكة في ذلك العام فلا ضير كبيراً في ذلك ، وبخاصة أن الاتفاق يضمن لهم تنفيذ ذلك في العام التالي .

إن البند الأوَّل في الاتفاق والذي يتضمن إيقاف الحرب لمدة عشر سنين هو مكسب كبير للمسلمين ، وقد أثبتت الأيّام ذلك فقد أعطى

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

المسلمين فرصة العمل على جبهات أخرى ، بعدما جمَّد الاتفاقُ أقوى الأعداء وأشرسهم « قريش » .

والرسول يحمل عقيدة جديدة ينشرها بين الناس ، ويناقش بها الملأ ، فهو يدعو إلى وحدانية اللّه ، وتوحيد العرب تحت راية الاسلام . ودينه الجديد كلّه فضائل ومكارم أخلاق ، وثورة على واقع أليم ، ودعوة الى التحرر من الظلم وعبادة البشر والحجر ، وهو يُعِدُّ أتباعه لِسيادة العالم . هذه الدعوة لا تستطيع أن تقف أمامها في السِلم دعوةُ قريش ، هذا إن كان لها دعوة ، فإلى أي شيء تدعو قريش الناس ؟ إلى عبادة الأحجار وأكل الربا ، وممارسة الفجور . . لهذا ما أن أمَّن المسلمون جبهة قريش حتى وجهوا جهودهم إلى قبائل العرب الأخرى فحققوا من النتائج في سنة واحدة ما عجزوا عن تحقيقه في سنوات.

كذلك فإن مجرد قبول قريش بمفاوضة الرسول جعل المسلمين في نظر عرب الجزيرة كلهم في مستوى قريش ، وهي التي لم تكن لتعترف بهم سابقاً ، وتعدهم جماعة خارجة عن قانونها ، صابئة عن معتقدات الآباء والأجداد . ولم يكتف الاتفاق بذلك بل أعطى للرسول حقاً في محالفة من يشاء من قبائل العرب ، وسمح لتلك القبائل بالدخول في حلف محمد إن شاءت أو في حلف قريش . وهذا البند جعل القبائل الخائفة من قريش والراغبة في حلف الرسول تسرع إلى إعلان محالفتها للرسول ، وشجع القبائل المترددة على حزم أمرها والانضمام الى المسلمين.

أما البند الذي ينص على إعادة من جاء الرسول من قريش مسلماً من غير إذن وليه دون التزام قريش بالمقابل بذلك ، فيبدو أن الرسول عندما وافق عليه كان في ذهنه أن المسلم إن كتم إسلامه بين المشركين كان عيناً للمسلمين في وسط المشركين ، وإن انكشف أمره يكون عبئاً

عليهم ، لأنه صاحب عقيدة راسخة فلا تهزه الرياح ، ولا تقف في طريقه الصعاب . بينما المسلم إن ارتد عن دينه فلا خير فيه ، وليرجع إلى عشيرته بدل أن يكون منافقاً في صفوف المسلمين أو جاسوساً عليهم.

وقد أثبتت الأيام سريعاً حكمة الرسول في قبول هذا الشرط وبُعد نظره ، فقد تجمع المسلمون الذين ينطبق عليهم هذا الشرط في مكان على طريق قوافل قريش إلى بلاد الشام وأخذوا يغيرون على تلك القوافل ، وقطعوا طريق تجارتها مع دمشق، ولما ضاقت قريش ذرعاً بتصرفاتهم ، راجعت الرسول بأمرهم ، فأجابهم أنه لا سلطان له عليهم ، وهو لم يقبلهم في صفوفه تنفيذاً لاتفاق الحديبية ، مما اضطر قريش إلى طلب إلغاء ذلك البند من الاتفاق ، بل وتوسلت إليه أن يكف عنها أذى أولئك المسلمين المؤمنين[1] ويؤويهم . وهكذا ألغت قريش نفسها البند الذي اعتبره المسلمون مجحفاً بحقهم ، وخالياً من المعاملة بالمثل.

وكانت تظاهرة الرسول وخروجه الى العمرة من أكثر الأمور دعاية للدين الجديد في صفوف العرب الذين كانوا يعظمون مكة ويقدسونها . فظهر جلياً لهم أن الرسول يُجلُّ كعبتهم ويحترمها . وأظهرت تلك التظاهرة قريشاً متعنتة مستكبرة تمنع الناس من القيام بواجباتهم الدينية بدون مُسوِّغ .

كما حقق اتفاق الحديبية أحد أهم أهداف الرسول من خروجه معتمراً ، وهو كسر أحد فكي الكماشة التي كانت تطبق على المدينة من الشمال والجنوب . فقد أتاح له الاتفاق تحييد قريش في نزاعه مع يهود الذين كانوا يتجمعون في خيبر بانتظار الفرصة المناسبة للانقضاض عليه . وأصبح باستطاعته القضاء على يهود الشمال دون خوف من دعم قريش

---

(١) ابن هشام : سيرة ، ج ٣ ، ص ٣٣٨. والطبري، تاريخ ج ٢ ، ص ٦٣٩ .

لهم . وهذا ما فعله في أول فرصة سانحة.

وكان لقيام الرسول بالعمرة في العام التالي أطيب الأثر في نفوس المسلمين ، ونفوس العرب أجمعين وشعرت قريش بالمهانة وبأن العد العكسي لسلطانها قد بدأ فعلاً.

لهذه الأسباب مجتمعه ، عدَّ اتفاق الحديبية فتحاً مبيناً . ولم يطل الأمر بقريش ، فأخطأت في تقديراتها ، وأساءت بتصرفاتها ، فنقضت عهدها ، فاغتنم الرسول الفرصة ، وأتى في هذه المرة فاتحاً فدخل مكة ، وقضى على أئمة الشرك ، وحطم الأوثان كما سنبينه لاحقاً .

الفَصْلُ الثَّانِي

بَعدَ الحُدَيبِيَّة

﴿ لَقَد رضيَ اللَّه عن المؤمنينَ إذ يُبايعونَكَ تَحتَ الشَّجرةِ فَعَلِمَ ما في قُلوبهم فأنزَل السكَينةَ عَليهم وأثابَهمُ فَتحاً قريباً ﴾[1] .

أبو بصير يؤدب قريش :

ما كاد الرسول ﷺ يصل المدينة حتى أتاه أبو بصير ، عتبة بن أسيد ابن جارية ، وهو من الذين آمنوا بمكة ، وحبسوا فيها . فبعث كفار قريش إلى الرسول كتاباً ، يطالبون فيه بتسليم عتبة ، وأرسلوا كتابهم مع رجلٍ من بني عامر ومولى له . فقال رسول اللَّه ﷺ لأبي بصير : « يا أبا بصير إنَّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن اللَّه جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك قال: يا رسول اللَّه، أتردُّني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ قال : يا أبا بصير، انطلق، فإن اللَّه تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً »[2] . فانطلق معهما ، حتى إذا استراحا في مكان يسمى « ذو الحليفة » ، فكر أبو بصير في خطة يهرب بها من حارسيه

(١) الفتح ، ١٨ .
(٢) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ٢٠٤ .

فسأل السيدَ فيهما عن سيفه : أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر ؟ ومن عادة كل صاحب سلاح أن يفاخر بسلاحه . فاغتنم أبو بصير نقطة الضعف هذه ، وقال للرجل عندما أجابه بنعم : دعني أنظر اليه . وما كاد يمسك بالسيف حتى أهوى به على الرجل فقتله ، وفر المولى عائداً الى المدينة ، ودخل على الرسول وقال له : قتل صاحبكم صاحبي ، وقبل أن ينهي كلامه وصل أبو بصير وقال للرسول : يا رسول اللّه ، وفت ذمتك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه ، أو يعبث بي . فقال رسول اللّه : « ويل امه مِحَشّ حرب (أي موقدها) لو كان معه رجال »[١] .

ثم انطلق أبو بصير حتى نزل في مكان اسمه « العيص » على ساحل البحر ، بطريق قوافل قريش ، في طريقها الى بلاد الشام .

ولما سمع المسلمون ، من المستضعفين الذين بقوا في مكة ، وحال اتفاق الحديبية دون التحاقهم بالمدينة ، ما فعل أبو بصير، وقول الرسولِ في وصفه ، سارعوا للالتحاق به . فتمكن هو ومن معه ، وقد بلغوا السبعين ، من قطع طريق قريش ، وضيقوا عليها ، حتى لا يمر منها رجلٌ إلا قتلوه ، ولا تمر بهم عير إلا صادروها ، حتى اضطرت قريش للكتابة إلى الرسول تناشده أن يؤوي إليه أولئك الأبطال ، فلا حاجة لها بهم[٢] . وبذلك ألغت قريش أكثر البنود إجحافاً في عقد الصلح .

نهاية خيبر :

خيبر ، البلدة المعروفة حتى الآن بهذا الاسم في شمالي الجزيرة العربية . كان ينزل بها يهود عاهدوا الرسول على أن يقفوا على الحياد بينه وبين أعدائه . ولكنهم كعادة يهود لم يلتزموا مواثيقهم ، وحالفوا قريشاً

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٣٨ . الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٦٢٦ .
(٢) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٦٢٩ .

ضد الرسول. فما أن عقد الرسول الاتفاق مع قريش حتى تفرغ لهم. فأقام في المدينة « ذو الحجة » وبعض « المحرم »[1] ثم خرج الى خيبر.

كان يهود خيبر في تحالف مع قبائل غطفان ، ولذلك تركزت خطة الرسول على قطع مدد غطفان عن خيبر ، فسار بجيشه حتى نزل بين الطرفين[2] . ولما سمعت غطفان بمنزله حشدت قواتها ، ثم تحركت باتجاه خيبر . علم الرسول ﷺ بتحركها ، فأرسل وحدة من قواته لتغير على منازلها ، وكانت قد قطعت مرحلة عندما فاجأها خبر قوات المسلمين تغير على منازلها ، فعادت أدراجها لتنقذ أهلها وأموالها ، وتركت خيبر لتواجه مصيرها وحدها .

بدأ جيش المسلمين بقيادة النبي العربي بفتح حصون خيبر الواحد تلو الآخر ، واليهود ينتقلون من حصن إلى آخر حتى استقروا في آخر حصنين لهم وهما « الوَطِيحُ » و السُّلالِم»[3] ، ولما اشتد عليهم الحصار ، وسمع بهم أهل « فَدَك » تدخلوا في الصلح على أن يخلي اليهود أموالهم وما ملكت أيديهم ، وينجوا بأرواحهم فيلتحقون بفَدَك . ثم عرض اليهود أن يقوموا هم برعاية ممتلكاتهم مقابل نصف مردودها يدفعونه للمسلمين ، فوافقهم الرسول على ذلك ، ثم صالح أهل فدك على مثل ذلك.

كانت خسائر المسلمين لا تكاد تذكر ، ولم يعكر صفو ذلك النصر سوى محاولة امرأة يهودية هي زينب بنت الحارث تسميم الرسول (ﷺ)،

---

(١) ابن هشام : سيرة ، ج ٣ ، ص ٣٤٢. وفي الواقدي ، المغازي، ج ٢ ، ص ٦٣٤ ان خروجه كان في صفر .

(٢) ابن هشام ؛ سيرة ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ .

(٣) ذكر ابن هشام في السيرة ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ وما بعدها أن أول حصن افتتحه المسلمون حصن ناعم وآخرها الوطيح والسلالم .

فأهدت إليه شاة مشوية بعدما أكثرت السم في ذراعها ، وعممته على جميعها ، ولكن الرسول لم يسغ ذلك اللحم ، بينما أكل منه صحابي جليل هو بشر بن البراء ، فكان سبب وفاته مسموماً.

وعاد الرسول إلى المدينة ، فوصل إليها مع قدوم جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، عائدين من هجرتهم الى الحبشة .

عمرة القضاء :

وبقي الرسول في المدينة ، يبعث السرايا والغزوات ، حتى كان ذو القعدة ، الشهر الذي صده المشركون فيه عن العمرة ، فخرج معتمراً يؤدي « عمرة القضاء » حسب اتفاقه مع قريش.

ولما سمعت قريش بقدومه خرجوا من مكة ، ودخل المسلمون ، والمشركون يراقبونهم ، وقد شيّعوا عن المسلمين أنهم في عسر ومشقة، فأمر الرسول أصحابهُ أن يُروا المشركين من أنفسهم قوة . فجعل عضده الأيمن فوق لباس الإحرام ، وأخذ يهرول وصحابته معه ثلاثة الأشواط الأولى ، وما زال المسلمون حتى اليوم يقتدون برسولهم فيهرولون في الأشواط الثلاثة الأولى من طوافهم.

وبعد ثلاثة أيام ، وهو الوقت المحدد في الاتفاق ليترك المسلمون مكة بعده ، أرسل الكفار يطلبون من الرسول مغادرة مكة ، فغادرها متجهاً نحو المدينة.

فأنزل الله عز وجل قوله : ﴿ **لقد صدَق اللّهُ رسولَه الرؤيا بالحق لتَدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء اللّه آمنين محلّقين رؤوسكم ومُقصّرين لا تخافونَ فعَلِم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً**﴾[1] .

---

(١) الفتح ، الآية ٢٧ .

غزوة مؤتة :

في السنة الثامنة من الهجرة ، وفي جمادى الأولى بعث الرسول ﷺ جيشاً مؤلفاً من ثلاثة آلاف رجل[1] إلى جهة مؤتة ، وهي قرية صغيرة في جنوبي بلاد الشام . وسبب إرسال ذلك الجيش أن النبي ﷺ بعث « الحارث بن عمير » رسولاً إلى ملك بصرى ، فلما نزل الحارث « مؤتة » هاجمه عمرو بن شرحبيل الغساني فقتله ، فقرر الرسول الانتقام لمقتل رسوله وعين زيد بن حارثة قائداً على ذلك الجيش وأوصاهم فقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد اللّٰه ابن رواحة »[2] .

وكأني بالرسول ﷺ يدرك أهمية ذلك البعث وخطورته ، ويتهيب مواجهة جيش الروم وأعوانهم فيعين ثلاثة قادة ، يخلفُ واحدهم الآخر إن أصيب .

وقد حدث في تلك المعركة ما تحسب له الرسول ﷺ فقد مضى جيش المسلمين حتى نزل بلدة « معان » ، البلد المعروف في جنوبي الأردن في هذه الأيام . وهناك بلغ جيش المسلمين أن « هرقل » حشد مائة ألف جندي في منطقة البلقاء ، وانضم إليهم مائة ألف أخرى من قبائل « لَخْم » و « جُذَام » وغيرهما[3] .

بلغت أخبار العدو جيش المسلمين ، فأمضوا ليلتين في منطقة معان يتشاورون ويتدارسون الموقف . فاقترح بعضهم أن يكتبوا إلى الرسول يخبرونه بعدد عدوهم وقوته ، ويتركوا له القرار في أمرهم .

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ١٥ .
(٢) ابن هشام : مختصر السيرة ص ٢١٤ .
(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ١٦ ـ ١٧ .

ولكن عبد الله بن رواحة كان متشوقاً للشهادة فلما رأى موقف الناس قال : « يا قوم ، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون : الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين : إما ظهور ، وإما شهادة . فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة »[1] .

فانطلق جيش المسلمين حتى وصل حدود منطقة البلقاء ، وكان جيش هرقل في إحدى قرى تلك المنطقة واسمها « مَشَارِف » . فنزل جيش المسلمين بلدة « مؤتة » ، واستعدوا لملاقاة الروم .

كان تفوق الروم كبيراً ، ولكن المسلمين قاتلوا ببسالة بقيادة زيد بن حارثة ، حامل راية رسول الله ، الذي حافظ على تلك الراية مرفوعة حتى سقط شهيداً . فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب ، فقاتل حتى استشهد . فلما قتل جعفر آلت القيادة حسب أوامر الرسول الى عبد الله بن رواحة ، ولكنه لم يلبث حتى قتل أيضاً ، فأخذ الراية أحد أبطال المسلمين « ثابت ابن أقرم» ، وصاح بالجيش أن اختاروا لكم قائداً ، فاختاروا خالد بن الوليد .

كان خالد بن الوليد قائداً حكيماً ، يعرف كيف يقاتل ، ويعرف متى يجب أن يقاتل ، كما يعرف متى يجب أن ينسحب ، فقدَّر أن معركته انتحار ، فوضع خطة سريعة للانسحاب بجيشه . أوهم الروم بوصول إمدادات كبيرة إليه ، في حين كان ينسحب بجيشه من أرض المعركة . . . قال الواقدي ؛ « حدثني عَطّاف بن خالد قال : لما قتل ابن رواحة مساءً بات خالد بن الوليد فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقته ، وساقته مقدّمته ، وميمنته ميسرته ، وميسرته ميمنته ، فأنكروا [أي الروم] ما كانوا

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ص ١٧ . وابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٢ ص ١٢٩ .

يعرفون من راياتهم [أي رايات المسلمين] وهيآتهم ، وقالوا : قد جاءهم مددٌ ! فرعبوا فانكشفوا منهزمين ، فقُتلوا مقتلةً لم يُقتلها قوم »[1] .

وهكذا عاد جيش المسلمين إلى المدينة ، فاستقبله المسلمون في المدينة بالحزن والبكاء والاستنكار ، حتى اضطر الرسول للثناء على ذلك الجيش وتطييب خواطر مقاتليه، والتنويه بما بذله من جهود في محاربة الأعداء . وبشر المسلمين بالعودة إلى القتال والنصر[2] .

عدة سرايا :

وفي سنة ثمان هجرية من جمادى الآخرة أرسل الرسول ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل بهدف ضرب جمع لقبيلة قضاعة[3] كانوا ينوون الإغارة على أطراف المدينة ظناً منهم أن المسلمين كسرت شوكتهم بعد مؤتة فنجحت السرية في مهمتها ، وشتت القبائل وفرضت هيبة المسلمين .

ثم أرسل في رجب سرية بقيادة أبي عبيدة بن الجراح عرفت باسم « سرية الخَبَط »[4] إلى حي من جُهينة[5] لجهة البحر الأحمر ولم يحصل فيها قتال .

وفي شعبان أرسل سرية أبي قتادة الأنصاري إلى « خَضِرة » وهي أرض محارب في نجد وعادت بمغانم كثيرة بعدما قتلت عدداً من

---

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٦٤ . وساقة الجيش : مؤخرته .

(٢) ذكر ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٤ قال : « وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون يا فُرّار ، فررتم في سبيل اللّه ، قال ، فيقول رسول اللّه ﷺ : (ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار ان شاء اللّه) » .

(٣) ابن سعد : طبقات ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

(٤) الخبط : اسم طعام أكلوه نتيجة جوع شديد أصابهم .

(٥) ابن سعد : طبقات ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

الأشخاص . وكانت أشبه بإغارة بطولية نفذها خمسة عشر رجلاً[1] .

وفي رمضان سنة ٨ هـ بعث أبا قتادة الأنصاري في سرية أخرى إلى « بطن إضَم » ليوحي إلى الناس بأنه توجه إلى تلك الناحية تغطية على توجهه إلى مكة لفتحها[2] .

---

(١) ابن سعد : طبقات ، ج ٢ ، ص ١٣٢ .

(٢) ابن سعد : طبقات ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

الفصل الثالث

فتح مكة

(رمضان سنة ٨ هـ)

﴿ إذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ * ورأيتَ الناسَ يَدخلونَ في دينِ اللهِ أفواجاً * فَسَبِّح بحمد رَبِّكَ واستغفره إنَّه كانَ توَّابا ﴾[1] .

خطيئة قريش :

مضت سنتان على اتفاق الحديبية تقريباً ، من ذي القعدة سنة ٦ هـ إلى رمضان سنة ٨ هـ ، استطاع الرسول ﷺ خلالها القضاء على القوة العسكرية ليهود ، حلفاء قريش وسندها في محاربة الإسلام . ودخلت قبائل كثيرة في الإسلام ، وزاد حلفاء المسلمين ، لدرجة جعلت الرسول ينتظر فرصة سانحة للانقضاض على قريش ، قلعة الكفر في جزيرة العرب ، واجتثاث الشرك من جذوره .

لم يطل الانتظار كثيراً ، فقد كان بنو بكر حلفاء قريش ، دخلوا في حلفهم بعد اتفاق الحديبية، وكانت قبيلة خزاعة حلفاء الرسول، تحالفوا معه بعد الاتفاق أيضاً . وكان بين بني بكر وخزاعة ثارات قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام .

---

(١) النصر ، ١ ـ ٣ .

فلما كانت الهدنة اغتنمها بنو بكـر ، فهاجم فـرع منهم هم « بنو الديل » ، بقيادة نوفل بن معاوية ، خزاعةَ ليلاً ، وبغتوهم على ماء لهم اسمه « الوتيـر ». ولما نشب القتـال ، أمدت قـريش حلفاءهـا بني بكر بـالسلاح ، وقـاتل بعض فـرسان قـريش معها مستخفين بـالليل ، حتى اضطرت خزاعة إلى الالتجاء إلى الحرم ، فلاحقها بنو بكر وقاتلوها فيه منتهكين حرمة الكعبة وغير مبالين بالحلف المعقود بين المسلمين وبين خزاعة[1] .

لم يدرك القرشيون فداحة الخطأ الذي ارتكبوه في مناصرتهم بني بكر ، ونقضهم عهدهم مع الرسول . ولم يكن أمام خزاعة بعدما أصابها ما أصابها إلا الالتجاء إلى الرسول حليفها الأقوى ، تطلب نصرته .

خزاعة تستنجد بالمسلمين :

قصـد عمرو بن سـالم الخزاعي المـدينة المنـورة ، ودخـل على الرسول ﷺ في مسجده وهو جالس بين الناس فقال أبياتاً مؤثرة من الشعر منها :

يـا ربِّ إني نـاشـدٌ محمـداً　　　حلف أبينـا وأبيـه الأتـلدا[2]

إلى أن قال :

هم بيّتـونـا بـالـوتيـر هجّـدا　　　وقـتلونـا رُكّـعـا وسُجّـدا[3]

فتأثر المسلمون ، وتأثر الرسول ﷺ فقال له : « نصرت يا عمرو بن سالم » .

ثم قدم على الرسول « بديل بن ورقاء » ومعه نفر من بني خزاعة ،

---

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٢ ، ص ٧٨١ وما بعدها .
(٢) الأتلد : القديم .
(٣) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ٢٢١ .

وهم كانوا قد التجؤوا إلى داره عندما ضيّق بنو بكر وقريش عليهم الخناق ، فشهد عند الرسول بما أصاب خزاعة ، وبمساعدة قريش بني بكر على خزاعة .

ندم لا ينفع :

أدركت قريش خطأها ، وخافت عواقب استهتارها ، ونقضها عهدها مع الرسول ﷺ ، فارتأى قادتها إرسال أبي سفيان إلى المدينة ليؤكد «عقد الصلح» ويزيد في مدته، فقدم أبو سفيان المدينة، ودخل على ابنته «أم حبيبة » وهي زوج رسول الله ﷺ ، وذهب يجلس على فراش الرسول ﷺ فطوته عنه ، وكان تصرفها أول موقف جفاء يواجهه في مهمته . فخرج من عندها حتى أتى رسول الله ، فكلمه ، فلم يرد عليه . فذهب إلى أبي بكر وطلب منه أن يكلم له رسول الله ، فأبى ذلك . فتركه إلى عمر بن الخطاب فصدّه بقسوة وجفاء ، فدخل على علي بن أبي طالب وطلب نصيحته ، فأعلمه أنه لا يستطيع أن يفيده بشيء ، وتوسط لدى فاطمة بنت الرسول فلم يلق أذناً صاغية . وهكذا عاد أدراجه إلى مكة ليبلّغ قريشاً فشَلَ مهمته[1] .

الموقف في المدينة :

أمر رسول الله ﷺ أهله أن يجهزوه ، دون أن يعلن عن وجهته ومقصده . ثم أعلن للناس وجهته ، وطلب منهم المحافظة على سر هذه العملية لأهمية المفاجأة فيها فقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها »[2] . ومع ذلك ، وقبيل مسيره ، أقدم أحد الصحابة على عمل نادر في صفوف المسلمين ، لم يسبق له مثيل . فقد

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٣٩ .

كتب « حاطب بن أبي بلتعة » رسالة إلى قريش ، يعلمهم فيها بأمر الرسول ، وأرسلها مع امرأة إلى مكة .

أُخبر الرسول ﷺ بما فعل حاطب ، فأمر علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام باللحاق بالمرأة ، ومنعها من إكمال مهمتها .

أدرك الفارسان المرأة ، ونفذا المهمة ، واستعادا الرسالة ، وسأل الرسول « حاطب » « ما حملك على هذا ؟ » قال : والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيَّرت ولا بدلت ، ولكني امرؤ ليس لي في القوم [في قريش] من أصل ولا عشيرة ، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليه[1] .

استاء الصحابة من تصرف « حاطب » وتحمس عمر بن الخطاب فطلب من الرسول الإذن بضرب عنقه ليكون عبرة للمعتبرين ، ولكن ماضي حاطب الجليل وجهاده في غزوة بدر شفعا له عند الرسول فعفا عنه[2] .

سار جيش الرسول ﷺ باتجاه مكة ، واستوعب الجيش المهاجرين ، والأنصار جميعاً لم يتخلف منهم أحد ، وانضم إليه مسلمو القبائل ، ثم نزل في مكان اسمه « مُرُّ الظهران » ، وكان عدده عشرة آلاف مقاتل . توزعت كما يلي :

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٤١ .

(٢) روى الطبري في تاريخه ج ٣ ، ص ٤٩ قال : « قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعني فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر : لعل الله قد اطلع الى أصحاب بدر يوم بدر فقال : **اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** » . ومما يجدر ذكره أنه لم يحدث ضرر للمسلمين نتيجة تصرف حاطب ، وذلك مما يسوغ العفو عنه على عكس ما لو تمكن من إيصال رسالته ونشأ عن ذلك أذى وقع بالمسلمين .

٤٠٠	من بني غفار
٤٠٠	من بني أسلم
١٠٠٠	من بني مزينة
٧٠٠	من بني سُليم وقيل ألفاً
١٤٠٠	من بني جهينة
٣٩٠٠	من الأنصار والمهاجرين وطوائف العرب
٦١٠٠	من بني تميم وقيس وأسد[١] .
١٠٠٠٠	

ذهول أبي سفيان :

كان مشركو قريش في حيرة من أمرهم ، لم تصلهم أخبار عن الرسول ، ولم يعرفوا بخبر مسيره إليهم . ولم يكن في ذلك الزمان من واسطة للاتصال سوى انتقال الرجال لنقل الأخبار . فكان بعض قادة قريش وفرسانها يخرجون إلى مشارف مكة عساهم يتلقون مسافراً ، فيعرفون منه خبراً .

وصادف أن العباس بن عبد المطلب ، ابن مكة البار ، وأحد سادة قريش قبل الإسلام وبعده ، رأى قوة جيش المسلمين وأدرك أن هذا الجيش إن دخل مكة عنوة فسيكون في ذلك هلاك قريش وذلها إلى آخر الدهر . فضّن ببلده وعشيرته أن يصيبها الهلاك والخراب فقرر الاتصال بقريش وحضها على الاتصال بالرسول والاتفاق معه على الاستسلام والسلام .

خرج العباس من معسكر المسلمين على بغلة رسول الله ، واتجه

---

(١) ابن هشام : ج ٤ ، ص ٤٢ .

نحو مكة لينفذ خطته ، فسمع صوتاً عرفه . إنه صوت أبي سفيان بن حرب يقول لـ « بُدَيل بن وَرْقاء » : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ، ولا عسكراً . فيجيبه بديل : هذه خزاعة ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أذلّ وأقلّ[1] .

كان أبو سفيان مع حكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، خرجوا يتحسسون الأخبار في تلك الليلة ، فسمع العباس مناجاتهم ، فاغتنم الفرصة ونادى أبا سفيان ، ودار بينهما حديث . . . عرض العباس في خلاله فكرته .

وأدرك أبو سفيان خطورة الموقف ، فسأل العباس النصيحة . فاقترح العباس أن يصطحب أبا سفيان ويأتي به إلى الرسول فيستأمنه ، ويتفق معه على شروط الاستسلام . وافق أبو سفيان على الفكرة ، وجاء مع العباس حتى دخلا على رسول الله .

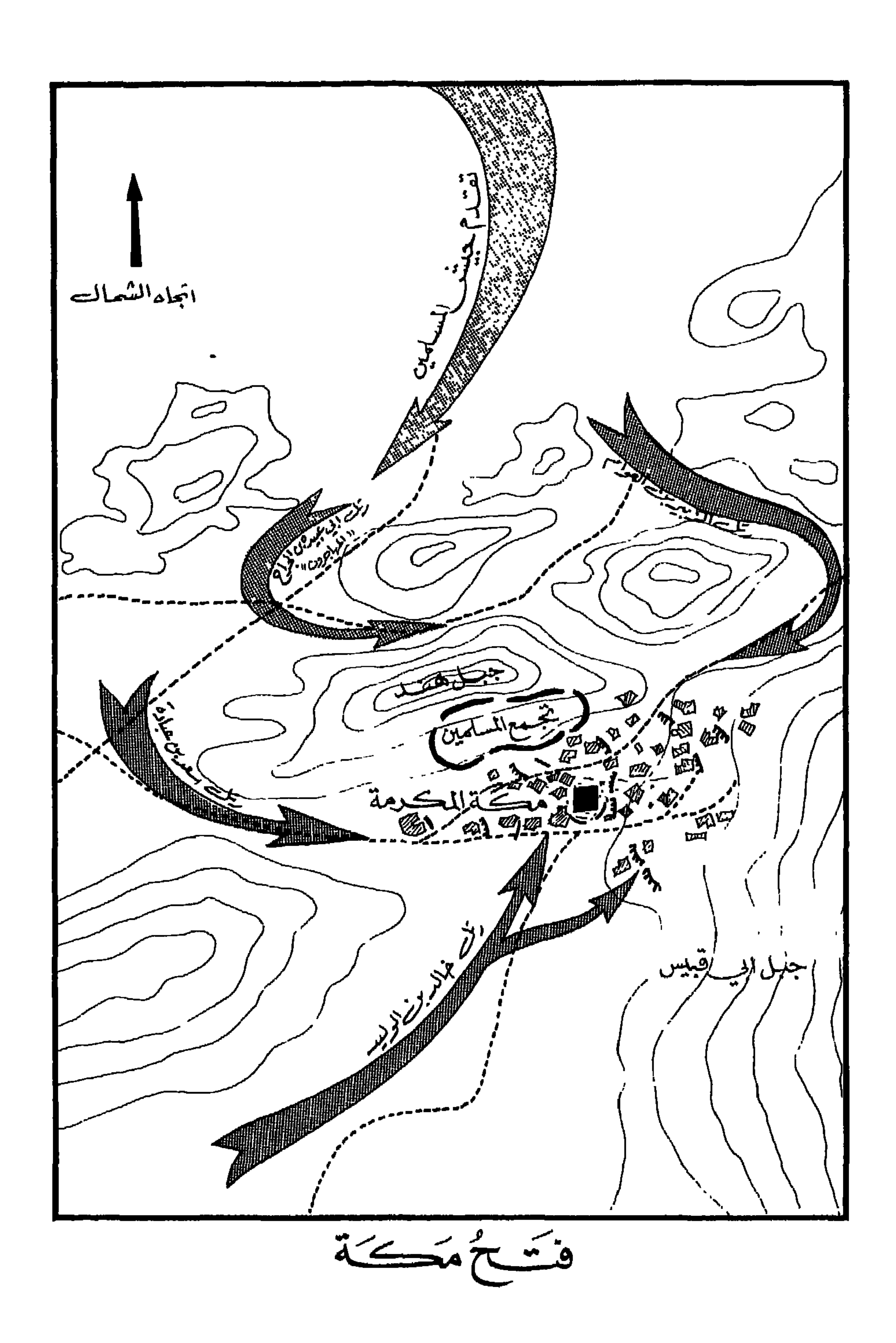
أراد عمر بن الخطاب الانتقام من أبي سفيان ، وضرب عنقه ، ولكن الرسول القائد الحكيم الذي بعث رحمة للعالمين ، لا مكان للانتقام في قلبه ، وليس الانتقام من مهمته ، وهو حريص على العنصر العربي ليكون دعامة للإسلام ، وعلى قريش سيدة العرب . وهذا أبو سفيان يعلن في حضرته : « أشهد أن لا آله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول اللّه» .

اتفق الرسول مع أبي سفيان على الاستسلام ، ودخول جيش الرسول مكة دون قتال ، وأن من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن بقي في بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن .

وكيلا يوسوس الشيطان لأبي سفيان بأي أمر ، فيذهب النهار بإسلام الليل ، أراد الرسول أن يُريَ أبا سفيان صوابَ قراره ، وأنه لم يعد

---

(١) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٥٢ .



اتجاه الشمال
تقدم جيش المسلمين
جبل هند
تجمع المسلمين
مكة المكرمة
جبل أبي قبيس
رتل خالد بن الوليد

فتح مكة

باستطاعة أية قوة في الجزيرة العربية أن تقف أمام جيش المسلمين . فطلب من العباس أن يوقف أبا سفيان عند مضيق الوادي ، فتمر أمامه كتائب جيش المسلمين كلها ، ويرى بأم عينه قوة الجيش الظافر .

وقف العباس في نقطة مختارة ، وبجانبه أبو سفيان ، وأخذت القبائل تمر أمامهما الواحدة تلو الأخرى ، وأبو سفيان يتعجب ويسأل من هؤلاء ؟ ويجيبه العباس ، هذه قبيلة « كذا » وهو لا يبدي تعجباً كبيراً حتى مرّت القبائل كلها .

وجاء دور كتيبة رسول الله ، وفيها المهاجرون والأنصار ، فأذهل منظرهم أبا سفيان فقال : « سبحان الله من هؤلاء ؟ » فأجابه العباس : « هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار » . فقال : « ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة »[1] .

وانطلق أبو سفيان إلى قومه يقول لهم : « ويلكم ، لا تغرّنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به . . » ثم أعلمهم أن من دخل المسجد الحرام فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن » .

خطة دخول مكة :

وكان الرسول قد وضع خطته لدخول مكة بحيث تتفرق القوات في منطقة ذي طوى[2] إلى عدة أرتال :

- رتل بقيادة سعد بن أبي عبادة مهمته دخول مكة من جهة الغرب .
- رتل بقيادة خالد بن الوليد مهمته دخول مكة من الجنوب ، من منطقة

---

(١) البخاري : المختصر ، ص ٣٧٩ ، حديث ١٦٦٢ .

(٢) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

« اللِّيط » أسفل مكة . وكان خالد على المجنبة اليمنى . وكان معه قبائل أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وغيرهم .

- رتل بقيادة أبي عبيدة بن الجراح مهمته دخول مكة من الشمال الغربي .
- رتل بقيادة الزبير بن العوام مهمته دخول مكة من الشمال الشرقي ، من منطقة « كدى » . وكان الزبير على المجنبة اليسرى .

أما من جهة الشرق ، فإن جبل أبي قبيس يمنع تقدم أي جيش .

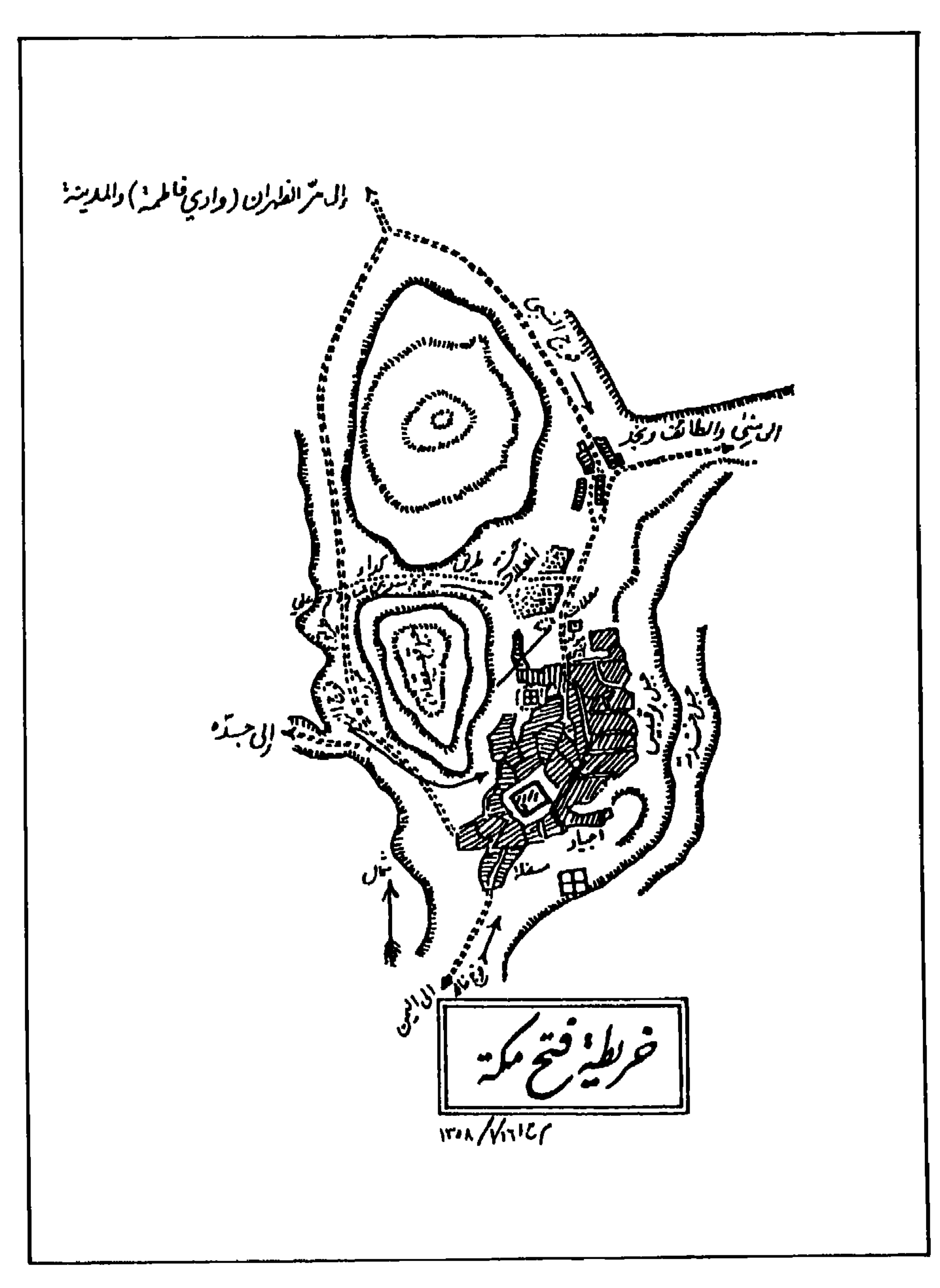
وحدد الرسول لقواته مركز تجمع عام على السفح الشرقي لجبل هند ، من جهة مكة ، وأعطى أوامر مشددة إلى قواته ألا تقاتل إلا من يقاتلها ، ليتم الفتح بأقل خسائر ممكنة ، ودون إراقة دماء . وتقدم الرسول فدخل خلف رتل أبي عبيدة من « أذاخِر » حتى نزل بأعلى مكة ، وهناك ضُربت قبته ، على سفح جبل هند .

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في آن واحد . ولم تلق تلك القوات مقاومة تذكر باستثناء رتل خالد بن الوليد . فقد تجمع متطرفو قريش ومنهم صفوان بن أمية ، وعِكرِمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو وغيرهم ، مع بعض حلفائهم في مكان اسمه « الخندمة » وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام ، وصمموا على القتال . فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة ، وشتت شمل أفرادها . وبذلك أكمل جيش المسلمين السيطرة على مكة المكرمة .

وبعدما اطمأن الناس تقدم الرسول الكريم ، يحيط به صحابته حتى وصل الكعبة الشريفة فطاف بها سبع مرات ، وهو على راحلته ، يشير إلى الحجر بمحجن[1] ثم وقف على باب الكعبة والناس مجتمعون ينظرون

---

(١) عود معوج الطرف ، يمسكه راكب البعير بيده .



(عن حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص ٨٨)

إليه ، فقال : « لا آله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرةٍ أو دمٍ أو مال يُدَّعىٰ ، فهو تحت قدميَّ هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج .

ألا وقتيلُ الخطأ شبه العمد ، بالسوطِ والعصا ، ففيه الدية مُغلَّظة ، مائة من الإبل ، أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب » .

ثم تلا هذه الآية :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[١] .

ثم قال : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم !

قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء[٢] .

ثم أمر الرسول بتنظيف الكعبة من الصور والتماثيل ، وهدم الأصنام . وأعاد إلى عثمان بن طلحة مفتاح الكعبة ، وقال له : اليوم يوم برٌّ ووفاء . وكان فتح مكة في العاشر من رمضان سنة ٨ هـ .

ثم أقام الرسول ﷺ بمكة خمسة عشر يوماً[٣] ، نظم فيها شؤونها ، وأرسل في أثنائها في هدم الأصنام القريبة منها . فقضى على آخر مظاهر الوثنية في الحجاز .

---

(١) الحجرات ، ١٣ .

(٢) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ٢٣٤ .

(٣) الطبري : تاريخ ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

أما القتلى في المعركة ، من الطرفين ، فلا يكاد يذكر عددهم ، فقد كانت أوامر الرسول صريحة بعدم قتل أحد سوى ستة نفر حددهم بأسمائهم ، ومعظمهم أسلموا ثم ارتدوا وتجاوزوا الحدود في معاداتهم للإسلام ، ومع ذلك فقد عفا عن معظمهم فيما بعد ، وكان منهم عِكرمة ابن أبي جهل أحد فرسان الفتح الإسلامي .

تحليل غزوة الفتح :

إن الفتح يعود بنا بالذاكرة إلى قول الرسول العظيم ، والقائد الحكيم ، بعد غزوة الأحزاب : « لا تغزوكم قريش بعد اليوم بل تغزونها » . وصحّ حدس الرسول بعد سنوات قليلة وها هي قريش تصبح ركناً من أركان الإسلام وقوة كبيرة في جيش المسلمين .

ونستطيع أن نأخذ من فتح مكة دروساً وعبر كثيرة أهمها :

١ ـ أهمية معرفة إمكانات العدو وقدراته بدقة ، فلو أن قريشاً كانت على علم بتطور قوة المسلمين ، وأدركت أنهم كانوا يتمنون اللحظة التي يتخلصون فيها من قيود اتفاق الحديبية للدخول معها في معركة حاسمة ، لما جازفت وساعدت قبيلة بكرٍ في قتالها ضد حلفاء الرسول (ﷺ) .

٢ ـ إن الهدنة قد تكون مرحلةً تسبق الصلح ، وقد تكون فرصةً يستعدُّ فيها كل طرف لينقضَّ على عدوه في الوقت المناسب له ، أو بعد انتهاء الهدنة . والقائد الحكيم لا يضيِّعُ هذا الوقت الثمين ، بل يستثمره دون تلكؤ ، في إعداد العُدَّةِ لساعة استئناف القتال .

٣ ـ هناك حالاتٌ لا تمكن المصالحةُ فيها ، ولا التعايش بين الطرفين المتقاتلين ، كما كانت الحال بين المسلمين والمشركين ، وفي هذه الحالة لا تنتهي الحرب إلا بانتصار أحد الطرفين ، والقضاء على

الطرف الآخر ، أو باقتناع المهزوم بصواب مبادىء المنتصر واعتناقها عن قناعة لا عن إكراه ورضوخ للقوة .

وكان الرسول يعلم ذلك ، فركز جهودَه على تقوية جيشه بحيث استطاع الانتصار بسهولة على عدوه ، ثم دعاه للدخول في الإسلام ، فاقتنع المشركون بدعوته ، وانضموا إلى صفوفه .

٤ ـ ضرورة إزاحة العوائق المادية ، والطواغيت التي تحول دون نشر الدعوة بالقوة ، ليتأمن للناس مناخٌ من الحرية ، يستطيعون فيه اختيار عقائدهم وممارسة شعائرهم دون خوف من سلطة ، أو إكراه من حاكم مستبد ،

ولعلَّ أهم السمات التي برزت في غزوة الفتح هي التالية :

١ ـ **الإعداد الجيد للمعركة** : فقد بلغ عدد جيش الفتح عشرة آلاف مقاتل ، مجهزين أحسن تجهيز ، تسمح به أحوال المسلمين في ذلك الوقت .

٢ ـ **المحافظة على السرية التامة** : فقد أمر الرسول (ﷺ) صحابته بالتجهز للحرب ، ولكنه لم يعلن عن وجهته ، حتى لأهله ، إلا متأخراً . وكان الناس يتجهزون للخروج في مهمة ، لكنهم لا يعرفون العملية التي تنتظرهم .

وعندما اضطر قبيل التحرك للإعلان عن وجهته ، نظراً لصعوبة المهمة ، وبعد السفر ، أمر صحابته بالمحافظة على السرية التامة ، كي يستطيع تحقيق المفاجأة .

٣ ـ **تحقيق المفاجأة** : وقد تمكن جيش المسلمين ، نتيجة التشدد في المحافظة على السرية التامة ، من مفاجأة المشركين ، والظهور فجأة على مقربة من مكة بقوات كبيرةٍ لا قبل لقريش وحلفائها بمواجهتها .

٤ ـ **اللجوء إلى الحرب النفسية**: فقد تعمد الرسول (ﷺ) نشر قواته على بقعة كبيرة من الأرض . ولما أشعلوا نيرانهم ليلاً ، غطوا منطقة واسعة جداً ، عرف أبو سفيان من كثرتها أنها أكبر من أن تكون نيران خزاعة أو غيرها فأصابه كثير من الوجل ، وبدأ الخوف يتسرب إلى نفسه من أن يكون ما يراه قوات المسلمين جاءت تهاجم مكة .

ولما سمع العباس عم الرسول (ﷺ) حديثه مع صاحبه « بُديل بن وَرقاء » وهو الرجل الحكيم الخبير بالرجال ونفسياتهم ، اغتنم الفرصة وهوَّل الأمر على أبي سفيان ، حتى أقنعه بالاستسلام . واستكملت الحرب النفسية على رئيس مكة بأمر الرسول (ﷺ) بوضعه في مكان بحيث تمر جميع قوات المسلمين بأسلحتها وعنفوانها أمامه ، الأمر الذي ثبَّط عزائمه ، وجعله يجد عزته وعزاءه في إعلان استسلامه بصياحه « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .

٥ ـ **توزيع القوات** : رغم موافقة أبي سفيان على تسليم مكة، فقد كان الموقف يتطلب الحيطة والحذر ، والاستعداد الدائم لأية مواجهة مفاجئة . ولذلك فقد أمر الرسول (ﷺ) بتوزيع قواته ، ودخولها من عدة جهات في أربعة أرتال .

٦ ـ **حكمة التصرف بعد النصر** : لم يبدر عن الرسول (ﷺ) بعد دخوله مكة أي تصرُّف يمكن أن يثير المنهزمين . فهو فاتحٌ ليس كغيره من المحتلين . وهو يعود إلى بلده وأهله ، لا يحملُ غلاً ولا حقداً ، ولا يجد في انتصاره وسيلةً للتكبُّر أو التجبُّر . ويعبر عن سروره بالفتح بتواضع جمٍّ ، وشكرٍ لله ظهر في إطراقهِ رأسه على راحلته ثم طوافه بالبيت وأدائه للصلاة .

واستطاع في موقف إنساني نبيل أن يستميل أهل مكة ، وهم الذين وقفوا ينتظرون حسابهم ، فإذا بالرسول (ﷺ) يعفو عنهم ويقول لهم « اذهبوا

فأنتم الطلقاء » وهذا التصرف الحكيم جعلهم يدخلون في الدين الجديد دون استثناء تقريباً .

٧ ـ نهاية الوثنية : كان من أهم نتائج فتح مكة تحطيم الأوثان وزوالها من حياة العربي وعقيدته إلى الأبد . فقد كانت مكة وما جاورها مركزاً لأهم أصنام العرب ، وها هي هذه الأصنام تقع تحت ضربات فؤوس المسلمين فتتحطم وتهوي على الأرض كأي جدار قديم ، بل وتداس بالأقدام ، فلا تنتقم لنفسها ، ولا يثور لكرامتها أية قوة غيبية كان بعض العرب يعتقدون بوجودها .

٨ ـ ظهور المسلمين قوة عظمى في جزيرة العرب : وبعد فتح مكة، وتحقق أمنية الرسول (ﷺ) بدخول قريش في الإسلام، برزت قوة كبرى في الجزيرة العربية ، لا يستطيع أيٌّ تجمع قبلي الوقوف في وجهها وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة ، لإزالة حكومات الظلم والطغيان ، وتأمين الحرية لخلق الله كي يدخلوا في دين الله ، ويعبدوه وحده من دون سواه .

بعد الفتح

﴿ ويومَ حُنين إذ أعجبتكم كَثرتكم فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾[1] .

هدم الأصنام :

بدأ الرسول ﷺ بعد فتح مكة مباشرة بالقضاء على مظاهر الشرك في جزيرة العرب فأرسل في ٢٥ رمضان سنة ٨ هـ خالد بن الوليد على رأس ثلاثين فارساً إلى العُزَّى[2] ليهدمها .

وبعث سرية يرأسها عمرو بن العاص في رمضان أيضاً بمهمة هدم « سَواع »[3] فهدمه .

ووجه سرية من عشرين فارساً بقيادة سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة[4] فهدمها .

ثم كلف خالد بن الوليد بعدما رجع من هدم العزى بالتوجه إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام ، فوجدهم قد أسلموا . ويبدو أنه لم

(١) التوبة : ٢٥ .
(٢) العُزَّى : اسم صنم .
(٣) سواع : صنم هذيل .
(٤) مناة : صنم كان في مكان اسمه المشلل وكان سابقاً للأوس والخزرج وغسان .

يصدقهم ، وأمر بأسرهم بعدما ألقوا السلاح اعتماداً منهم على إسلامهم ، ثم أمر آسريهم بقتلهم ، فقتل بعضهم أسراه ، وترك بعضهم أسْراه تحرُّجاً من قتل أناس ربما كان إسلامهم صحيحاً . وغضب الصحابة ، واتهموا خالداً وشكوه إلى الرسول ﷺ الذي بلغ من تأثره من فِعلة خالد أن قال : «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد »[1] . فحروب المسلمين هي حروب دعوة لا حروب سيطرة . ولكنه اكتفى بدفع ديات القتلى وترك خالداً على قيادته ، معتبراً عمله خطأ اجتهاد لا خطأ تعمُّد .

غزوة حنين :

لما رأت قبائل هوازن وثقيف ما حلّ بقريش تشاور قادتها فيما بينهم ، وقرروا أن يبدؤوا المسلمين بالهجوم قبل أن يتوجه المسلمون لقتالهم ، وكانت منازلهم في الطائف وحولها . فجمع قائدهم سيد هوازن « مالك بن عوف النصري » قبائل : هوازن ، وثقيف ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر ، وبعض بني هلال وسار بهم حتى نزل في مكان اسمه « أوطاس » ، وتخلفت عنه قبائل منها : كلاب وكعب وهلال وغيرهم .

وكان مالك في الثلاثين من عمره ، فارساً شجاعاً قوياً ، قليل الخبرة والحكمة في القيادة ، فاصطحب معه الأموال والنساء والأولاد . وكان بين أنصار مالك بن عوف شيخ مجرب وفارس مشهور هو « دريد بن الصمة » سيد بني جشم تروي كتب التاريخ أنه كان قد تجاوز المائة والستين سنة ، وعمي فلا يستفاد منه إلا بإعطاء الرأي الحكيم . ودار بينه وبين مالك بن عوف حوار يجدر ذكره لما فيه من العبرة : نزل دريد في أوطاس عن بعيره ولمس الأرض بيده وسأل عن المكان ، فلما أخبروه أنهم في « أوطاس » قال : « نِعْمَ مجال الخيل » فهو يعرف المكان ، ويعرف صلاحيته

---

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٣ ، ص ٨٨١ .

للقتال ، ثم سأل : « أيا معشر هوازن ، أمعكم من بني كلاب أحد ؟ فقالوا لا » ، وسأل أمعهم من بني كعب أحد ، أو من بني هلال بن عامر أحد ، فلما أجابوه بالنفي قال : « لو كان خيراً ما سبقتموهم إليه ، ولو كان ذِكراً أو شرفاً ما تخلفوا عنه ، فأطيعوني يا معشر هوازن ، وارجعوا ، وافعلوا ما فعل هؤلاء » . فالرجل خبير بالناس ويعرف حكمة زعماء القبائل التي سأل عنها ، ولما عرف تخلفها أدرك خطأ ما تُقدم عليه هوازن ، ثم طلب الاجتماع بمالك ، ولما جاءه سأله : « يا مالك ، ما لي أسمع رغاء[1] البعير ، ونهاق الحمير ، وخوار البقر ، وبكاء الصغير ، وثغاء[2] الشاء ؟ » قال مالك : سقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم . قال دريد : ولمَ ؟ قال مالك : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله وولده ونساءه حتى يقاتل عنهم . قال : فأنقض[3] « دريد » بيده ثم قال : راعي ضأن ، ما له وللحرب ؟ وهل يَردُّ المنهزمَ شيءٌ . إنها إن كانت لكم [أي إن انتصرتم] لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه . وإن كانت عليك فضحت في « أهلك ومالك »[4] . . وتجادل الرجلان ، واتهم دريد مالكاً بالجهل بالحرب ورد مالك بإتهام دريد بالتقدم في السن ، ونصح دريد هوازن بترك القتال والعودة إلى ديارها فهدد مالك بالانتحار إن أخذت هوازن برأي دريد ، فتدارسوا أمرهم وامتثلوا لأمر مالك .

ولما سمع الرسول ﷺ بخروج هوازن وثقيف ومن معهم بعث عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي في مهمة استطلاع وتجسس ليأتيه بأخبارهم ، فنفَّذ المهمة على أكمل وجه وعاد إلى الرسول ﷺ وأعلمه بما

---

(١) رغاء البعير : الأصوات التي تصدرها الإبل .
(٢) ثغاء الشاء : الأصوات التي تصدر عن الغنم .
(٣) أي صفق باحدى يديه على الأخرى .
(٤) الواقدي ، المغازي ، ج ٣ ، ص ٨٨٧ - ٨٨٨ .

عزموا عليه . فقرر الرسول ﷺ الخروج لملاقاتهم فهو المنتصر ، وهو المهاجم ومن الخطأ التحول من الهجوم إلى الدفاع .

توجه الرسول صوب حنين[1] في شوال سنة ٨ هـ ومعه عشرة آلاف مقاتل جاؤوا معه من المدينة وألفان انضموا إليه من أهل مكة[2] ، وبعضهم ما زال على شركة خرج يلتمس السلب والنهب أو عصبية وتأييداً لعشيرته .

كذلك أرسل مالك بن عوف ثلاثة جواسيس يأتونه بأخبار المسلمين ، ولما عرف بتوجههم نحوه سبق المسلمين إلى وادي حنين ، وهو واد أجوف فيه شعاب ومضائق كثيرة ، فوزع جنوده فيه في الليل على شكل كمائن متفرقة ، وأمرهم بالاختفاء ، وأن يمطروا جيش المسلمين بنبالهم ويحملوا عليه بإشارة منه حملة واحدة .

وعبأ الرسول قواته في وقت السَّحَر ، وجعل مع كل كتيبة لواء « راية » ، والكتيبة ليست تشكيلة قتالية محددة العدد كما هي في هذه الأيام ، بل كانت الخزرج كتيبة ، والأوس كتيبة ، والمهاجرون كتيبة وهكذا ، بحيث تشكل كل قبيلة أو أكثر كتيبة . وجعل لجيشه مقدمة من قبيلة سُليم بقيادة خالد بن الوليد[3] .

تقدم جيش المسلمين مع بزوغ الفجر ، وفي طليعتهم كتيبة سليم ، وبعدما توغلوا في الوادي فاجأتهم كمائن هوازن في غبش الصبح ، فهاجت الخيل بفرسانها وتراكضت الإبل يدوس بعضها بعضاً . وفعلت المفاجأة فعلها ، فولت خيل سليم راجعة ، وبشكل آلي تبعهم أهل مكة ،

---

(١) اسم وادٍ من أودية مكة يقع شرقها بحوالي ثلاثين كيلومتراً (البلادي ، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص ١٠٧) .

(٢) و (٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٥٠ .

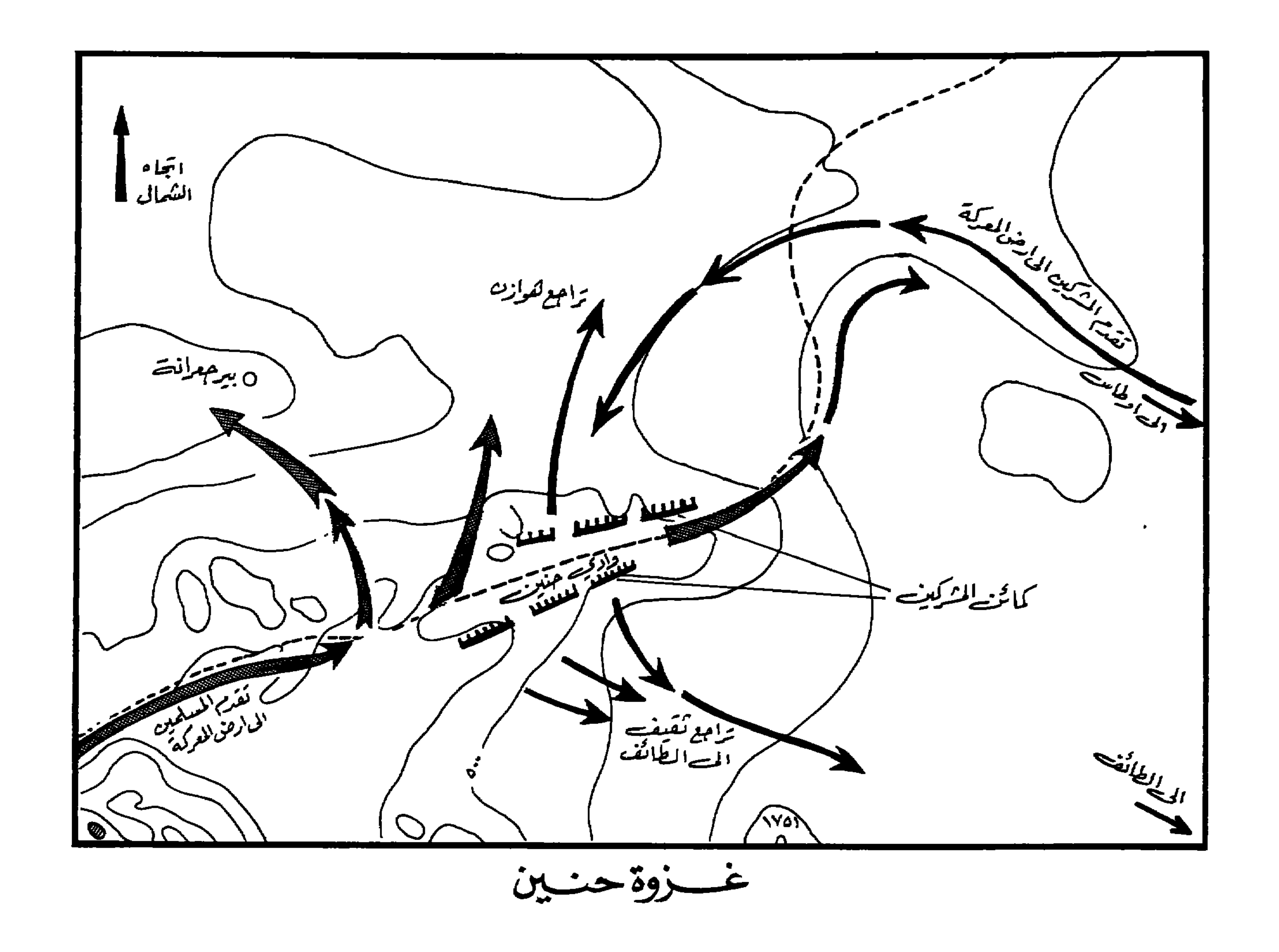
وهم كما عرفنا حديثو عهد بالإسلام لم يدخل الإيمان قلوبهم ، أو منافقون خرجوا لجمع الغنائم . وعمت الفوضى فانكشف الناس وولوا مدبرين . ولم يثبت إلا الرسول ﷺ ومعه بعض صحابته وآل بيته من المسلمين الأولين من المهاجرين والأنصار ، اتجه بهم إلى الجهة اليمنى من الوادي ، وهو ينادي الناس ، والناس لا يلوون على شيء .

في هذه اللحظات الحرجة حيث تدبُّ الفوضى ، ويتخلخل تنظيم الجيش تظهر الرجال وتبرز القيادات الفعلية . ولذلك نرى الرسول القائد ﷺ يحافظ على رباطة جأشه ، وصفاء ذهنه ، ويتذكر الذين اعتنقوا الإسلام مبكرين ودافعوا عنه ضعيفاً عن اقتناع وإيمان . وبما أنه يدرك فعل العوامل النفسية في الرجال أمر عمه العباس ، وكان جهوري الصوت ، أن ينادي بالجيش بأعلى صوته فيقول : « يا معشر الأنصار يا أصحاب السَّمُرة[1] ، يا أصحاب سورة البقرة » . وأخذ الرسول ﷺ ينادي هو أيضاً : (يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عبد الله ورسوله) ، وما كاد الصوت يصل إلى أسماع الأنصار والمهاجرين حتى أقبلوا نحوه كأنهم الإبل حنَّت على أولادها وهم يقولون : لبّيك يا لبّيك[2] ، ثم حمل المسلمون الذين عادوا إلى ميدان المعركة على المشركين . وحمي الوطيس ، والرسول يشجع جنوده ويقول : « أنا النبي لا كَذِبْ أنا ابن عبد المطلب » ، وما هي إلا ساعات حتى انقلب ميزان المعركة وتحول المنهزم منتصراً ، وولى المشركون هاربين ، بعضهم باتجاه أوطاس ، وبعضهم نحو نخلة ، وبعضهم لم يوقفهم إلا وصولهم إلى الطائف ، وهم ثقيف . فأصدر الرسول أوامره فوراً بمطاردة المشركين . وصادف أن مرَّ

---

(١) الشجرة التي بايع الأنصار تحتها النبي ﷺ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٥١ . والواقدي، المغازي ج ٣ ، ص ٨٩٧ - ٨٩٩ وقد استعمل ابن سعد تعبير « الإبل حنت على أولادها ، بينما قال الواقدي : فعطفوا عطفة البقر على أولادها » .


اتجاه الشمال
بير جعرانة
تراجع هوازن
تقدم المشركين الى ارض المعركة
الى اوطاس
وادي حنين
كمائن المشركين
تقدم المسلمين الى ارض المعركة
تراجع ثقيف الى الطائف
الى الطائف
١٧٥١
٥٠٠

غزوة حنين

بأناس متجمهرين حول امرأة قتيلة ، فاستجلى منهم الأمر ، فقالوا : امرأة قتلها خالد ، فسارع بإرسال تعليماته إلى خالد : لا تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً[1] . وهكذا نرى الرسول لا يتهاون في أحلك الظروف بمخالفة المبادىء الإنسانية السامية ، ويصدر تعليمات تتحول إلى تشريع عام على مرِّ العصور .

ووقف مالك بن عوف على ثنية حتى مضى أضعف أصحابه ، وهو موقف قائد شجاع لا ينسى رجاله في الساعات الحرجة . وبعدما تأكد من هرب الجميع ، انسحب إلى الطائف وتحصن فيها مع قبيلة ثقيف أنصاره .

أمر النبي بجمع الغنائم ، وحفظها في منطقة الجعرانة ، فبلغت ستة آلاف نسمة من السبي ، وأربعة وعشرين ألف بعير ، وأكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة[2] وترك عليها جماعة تحرسها وتوجه إلى الطائف معقل قبيلة ثقيف .

حصار الطائف :

تقدم الجيش المظفر باتجاه الطائف ماراً بنَخْلَة اليمانية ، ثم قَرَنْ ثم المُلَيحْ ، ثم بُحْرَةِ الرُّغاء[3] ، طريق الضَّيِّقة[4] ، نَحْب ، ونزل بالقرب من الطائف ، والطائف حصن منيع ، وأهلها ثقيف من أغلظ العرب وأشدهم بأساً ، حتى أنهم قتلوا أحد زعمائهم « عروة بن مسعود » لأنه

---

(١) العسيف : الأجير .
(٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .
(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ، ص ٣٤٦ .

دعاهم إلى الإسلام[1] . فلما اقترب المسلمون من حائط الحصن وجه المحاصرون نبالهم نحوهم فقتلوا عدداً من المسلمين مما اضطرهم إلى التراجع خارج مرمى النبال ، وفرضوا الحصار بضعاً وعشرين ليلة ويقال سبع عشرة ليلة[2] .

وأمر الرسول بقطع نخيلهم ، وأعلن أن من أتاه من عبيد ثقيف فهو حر طليق ، فخرج إليه عدد منهم . وأخذ يرمي الحصن بالمنجنيق ، ودخل بعض المسلمين تحت دبابة من خشب ، وزحفوا باتجاه الحصن ليحرقوا جداره أو يهدموه ، فرمتهم ثقيف بالحديد المحمى المذاب ، فاضطروا للخروج من تحت « الدبابة » ، فرموهم بالسهام فقتلوا عدداً منهم ، فأمر الرسول بإتلاف مزارعهم ، ثم عدل عن ذلك بعد مفاوضات ، وربما لقناعته بأن تلك المزارع ستكون للمسلمين فيما بعد .

ولما طال الحصار ، ورأى الرسول ﷺ مناعةَ حصن الطائف ، وعلم من العبيد الهاربين بما لدى المحاصَرين من أغذية ومؤن استشار أصحابه في الاستمرار بالحصار أو رفعه ، وبخاصة أن الغنائم ما زالت في الجعرانة ، ولم يمض على فتح مكة إلا القليل . وكأني به قرر رفع الحصار ، ولكنه أراد أن يكون ذلك بإشارة من أصحابه . فقال له أحدهم ، نوفل بن معاوية الدائلي : « يا رسول الله ثعلب في جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك[3] » .

وبعد المشاورات أصدر الرسول ﷺ أوامره برفع الحصار عن الطائف. فقال له أحد الصحابة : يا رسول الله أحرقتنا نبالُ ثقيف فادع الله

---

(1) الواقدي : المغازي ج ٣ ، ص ٩٦١ .
(2) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٤ ، ص ٣٤٧ .
(3) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ٤ ص ٣٥٠.

عليهم، فقال: «اللهم آهْدِ ثقيفاً»[1]. وانصرف المسلمون عن الطائف مخلفين وراءهم اثني عشر شهيداً[2]، بعد حصار استمر شهراً في بعض الروايات[3].

توزيع الغنائم:

عاد الرسول ﷺ بجيشه إلى «الجعرانة» حيث كان السبي والغنائم. وانتظر مدة لا يوزع شيئاً منها على أمل أن تأتيه هوازن مسلمة. ولكن الناس ألحوا عليه في تقسيم ما غنموه، فبدأ بتقسيم الأموال، وأعطى أموالاً كثيرة لجماعة من حديثي العهد بالإسلام، طلقاء مكة، الذين كانوا إلى الأمس القريب يناصبونه العداء ويجيشون الجيوش للقضاء عليه وعلى دعوته، وهم قادة قريش وأشرافها، ومنهم أبو سفيان بن حرب وابناه معاوية ويزيد، وصفوان بن أمية، ومالك بن عوف، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو. أعطاهم الرسول عطاء من لا يخشى الفقر، ليؤلف قلوبهم، ويحبب الإسلام إلى نفوسهم، وقد اشتهر هؤلاء باسم «المؤلفة قلوبهم». وهم لا يختلفون في العصر الحاضر عن المتنفذين في أقوامهم الذين تدفع لهم المخابرات لتشتري سكوتهم أو تعاونهم وتأييدهم.

ولما رأى الأنصار أن الرسول ﷺ أعطى قريشاً وأجزل العطاء، ووزع الغنائم في قبائل العرب ولم يعطهم شيئاً، استاؤوا، وكثر بينهم

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٣٥٠ وذكر انه حديث غريب رواه الترمذي. وذكرته لتأكيد حرص الرسول على هداية الناس وبعده عن الرغبة في الانتقام، ومحافظته على العربي الذي يدخره لنشر الاسلام. وابن هشام ج ٤، ص١٣١ وأضاف «وأتِ بهم».

(2) ابن هشام: السيرة، ج ٤، ص ١٢٩.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، ص ٣٥٠.

الكلام حتى قال بعضهم « لقي والله رسول الله ﷺ قومه »[1] فجاءه سعد ابن عبادة، وقال له: «إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا[2] عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت[3] ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء »[4] .

فطلب منه الرسول أن يجمع له الانصار ، فجمعهم ، ووقف الرسول يخاطبهم مخاطبة الأب لأبنائه ، والمحب لاحبائه ، فذكّرهم بتاريخهم معه، ومناصرتهم إياه ثم قال: «ألا ترضون. . . أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً[5] وسلكت الأنصار شعباً ، لسلكت شعب الأنصار . . . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم[6] » .

وهكذا أنهى الرسول ﷺ في دقائق فتنة كادت تقع في صفوف جيشه .

وجاءه وفد هوازن مسلماً فور الانتهاء من تقسيم الغنائم ، وطلبوا منه إعادة أموالهم وأبنائهم ونسائهم إليهم . فخيرهم بين النساء والذراري وبين الأموال فاختاروا أولادهم ونساءهم فأعادها إليهم ، وطلب من أصحابه أن يعيدوا ما أخذوه إلى إخوانهم الجدد في الاسلام عن طيب خاطر ، ومن

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٤، ص ١٤١.
(٢) أي : غضبوا .
(٣) اي الغنائم التي غنمتها .
(٤) ابن هشام : السيرة ، ج ٤، ص ١٤٢.
(٥) أي وادياً متفرعاً من واد .
(٦) ابن هشام : السيرة ، ج ٤، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ . واخضلوا لحاهم : أي بللوها بالدموع.

رفض منهم اشترى منه ما بيده من ذلك السبي دَيناً يسدده له من أول فيء يصيبه[1] . وبهذا الشكل أرضى الجميع .

وسأل ﷺ وفد هوازن عن قائدهم في حنين « مالك بن عوف النصري » ، فاخبروه أنه بالطائف مع ثقيف فقال لهم : « أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل »[2] . فلما علم مالك بذلك هرب من الطائف وأتى الرسول مسلماً فرحب به وعينه قائداً على من أسلم من قومه ، فجعل يقاتل ثقيفاً ، حلفاءه بالأمس ، وضيق عليهم الخناق وحصرهم في الطائف فلا يخرج لهم قطيع إلا أغار عليه ، ولا رجل إلا قتله أو أسره .

ثم خرج رسول الله ﷺ من الجعرانة معتمراً بعدما ترك بقايا الغنائم في منطقة « مرّ الظهران » ، فلما فرغ من عمرته ، عين عتّاب بن أسيد عاملاً له على مكة ، وترك معه معاذ بن جبل يفقه الناس في الدين ويعلمهم القرآن[3] ، وعاد إلى المدينة يصحبه المهاجرون والأنصار، طليعة المسلمين ونواة أول دولة إسلامية في التاريخ .

دروس وعبر من حنين والطائف :

١ ـ الدرس الأول من غزوة حنين : هو أن الكثرة ليست دائماً هي سبب النصر ، ويؤكد ذلك القرآن الكريم بقوله : ﴿ **لقد نصركم اللّهُ في مواطنَ كثيرةٍ ويومَ حُنينٍ إذ أعجَبتكُم كثْرتكُم فلم تُغنِ عنكم شيئاً وضاقَت عليكُم الأرضُ بما رحُبَت ثمّ وَليتُم مدبرين** ﴾[4] . فللنصر

---

(١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢، ص ١٥٥ .
(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ١٣٣ .
(٣) الطبري : تاريخ ، ج ٣، ص ٩٤.
(٤) التوبة ، ٢٥ .

عوامل كثيرة قد يكون التفوق العددي أحدها ، ولكنه ليس العامل الوحيد . ولعل الحروب العربية مع اليهود في العصر الحاضر أكبر شاهد على تأكيد ذلك . فالعرب أكثر من اليهود بعشرات المرات ، ومع ذلك لم يستطيعوا حتى الآن استرداد الأرض المغتصبة . فهناك عوامل كثيرة لا مجال للتوسع فيها غير العدد تؤمن التفوق لطرف ما على الآخر(١) .

٢ ـ الدرس الثاني : أهمية العقيدة في تحقيق النصر ، فلما انهزم جيش المسلمين في بداية معركة حنين لم يثبت مع النبي إلا المسلمون الأولون ، راسخو الإيمان بينما كان حديثو العهد بالإسلام أول المنهزمين ، وبينهم فرسان شجعان عرفوا بالبأس والثبات .

٣ ـ الدرس الثالث : أثر المعنويات البالغ في تحقيق النصر . فما أن سمع المسلمون صوت العباس يضرب على الوتر الحساس ، فيُذَكِّر الأنصارَ بمواقفهم السابقة حتى اندفعوا نحو مصدر الصوت ملبين ، ومن منعه فرسُه أو أخره بعيره عن ذلك تخلى عنه وتقدم راجلاً بسيفه وترسه .

٤ ـ الدرس الرابع : أهمية القيادة التي تُعدُّ قدوة المقاتلين . فلو كان على رأس جيش المسلمين قائد غير الرسول ﷺ ، وكان من الهاربين ، كما فعل قائد قوات المشركين ، لكانت نتيجة المعركة مختلفة تماماً .

٥ ـ الدرس الخامس : عندما يتحصن العدو في مكان منيع فليس من الضروري هدر طاقات الجيش في حصاره ، طالما هو لا يستطيع

---

(١) يجب ألا يفهم من هذا أن العرب استخدموا طاقاتهم في حروبهم مع إسرائيل ، فالعكس هو الصحيح . والمقصود من هذا الكلام لفت العرب لاكتشاف مصادر الضعف ومواطن الخلل التي تحول بينهم وبين النصر .

التأثير على مجريات الأمور، ولا يؤثر في المجهود الحربي للأصدقاء . ولهذا تجنب الألمان الذين اكتسحوا أوربا في الحرب العالمية الثانية الدخول إلى المدن بدباباتهم السريعة واكتفوا بالالتفاف حولها ومتابعة تقدمهم .

٦ ـ الدرس السادس : أنه مهما كان الجيش انضباطياً فقد تحدث ثغرات تؤثر في معنوياته ، وربما استغلها العدو لينفذ من خلالها إلى قلوب عساكره . والقيادة الناجحة تلاحظ معنويات الأفراد التابعين إليها ولا تترك مجالاً للتأثير فيها . فلما تأثر الأنصار من توزيع الغنائم بالشكل الذي بدا لهم أنه غير عادل ، سارع الرسول إلى تطييب خواطرهم . ومع أنه اعطاهم كلاماً ، وأعطى غيرهم مالاً ، فقد كانوا مسرورين راضين .

٧ ـ الدرس السابع : إذا كان بعض الناس يباعون ويشترون، فإن القائد الناجح لا يبخل في شرائهم ، ولكن عليه أن يتنبه إليهم فلا يسمح لهم ببيع أنفسهم بعدما يصبحون في صفوفه ؛ فالذي يباع مرة يباع مرات ، وهو رهن إشارة الذي يدفع أكثر . ويمكن ضمان ولائهم بدعوتهم إلى الإسلام وتعزيز قيمه في عقولهم وقلوبهم ، فإذا ما دخل الإيمان قلوبهم تعذر على العدو شراؤهم . كذلك يمكن إغراء أصحاب النفوذ لينتقلوا إلى صفوف الأصدقاء بما لا يخالف العقيدة . ولهذا فقد أغرى الرسول مالك بن عوف النصري قائد المشركين في حنين حتى هرب من الطائف . ولم يوافق على ترك صنم ثقيف يوماً واحداً ، عندما جاءه وفدها مفاوضاً ، كما سنرى فيما بعد .

إسلام ثقيف :

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة تاركاً بني ثقيف في الطائف جزيرة في

بحر من المسلمين ، ولم تمض أشهر حتى أدركت ثقيف أنها لا قدرة لها على محاربة العرب الذين دانوا بالإسلام ، فأرسلت وفداً يفاوض الرسول ﷺ ، ودارت بين الوفد وبين الرسول مفاوضات طريفة[1] لا مجال للتوسع فيها ، ويهمنا الإشارة إلى طلب الوفد فيها تنازلات في العقيدة ، منها: أن يسمح لهم بالزنا والربا وغيرهما، ويترك لهم صنمهم «اللات» لمدة ثلاث سنين . وكان الرسول يرفض طلباتهم الواحد تلو الآخر ، حتى اقتصروا على مطلب واحد ، ظنوه صغيراً ومقبولاً وهو : أن يترك لهم « اللات » شهراً واحداً ، ولكنه أبى أن يتركه يوماً واحداً ، ففي أمور العقيدة لا مساومات ولا تنازلات . عندها أعلنوا إسلامهم وكتب لهم الرسول كتاباً ، وعين لهم قائداً من أصغرهم سناً ، هو عثمان بن أبي العاص لما رأى فيه من علامات النجابة والحرص على تعلم القرآن والتفقه في الدين . . ولم يمنع صغر سنه من تعيينه ، فالعمر لا يدخل في حساب المزايا إلا عندما تتساوى بقية الصفات في عدد من الأشخاص المؤهلين . وأرسل معهم أبا سفيان والمغيرة ابن شعبة لهدم « اللات » .

وبدأ الرسول ببعث السرايا إلى مختلف الجهات في الجزيرة التي دانت له في معظمها ، وكانت مهمات هذه السرايا مختلفة عما سبقها .

فقد أرسل الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق لجمع الصدقات . وأرسل قطبة بن عامر في صفر سنة ٩ هـ الى بني خثعم بناحية تبالة[2] في عملية إغارة ليلية .

وبعث الضحاك بن سفيان الكلابي في سرية إلى بعض بني بكر

---

(١) الطبري ، تاريخ ، ج ٣، ص ٩٦ وما بعدها. والواقدي : المغازي ، ج ٣، ص ٩٦٧ وما بعدها.

(٢) تبالة : واد كبير ذو قرى ومياه ونخل يقع جنوب شرق الطائف . (البلادي - معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص ٥٩).

اسمهم « القُرَطاء » ، وعلقمة بن مُجَزِّز المُـدلجي في ربيع الثـاني سنة ٩ هـ إلى جهة نحو الساحل ، لأخبارٍ سمعها عن رؤية أحباش في مراكب في البحر .

غزوة تبوك :

لما رأى هرقل ملك الروم أن المسلمين أخضعوا جزيرة العرب كلها تقريباً لسيـطرتهم ، أدرك الخطر القـادم من الجنوب الـذي يهدد بـلاده بالاجتياح وملكـه بالـزوال ، وبخاصـة أن الإسلام دعـوة للناس كـافة ، وسيعمل المسلمون على تأمين حرية انتشاره ، وهو دعوة تستهوي سكان تلك البلاد الذين كانوا يعانون من الظلم والاضطهاد وينـؤون تحت ثقل الضرائب المفروضـة عليهم . . وقد دخـل في الدين الجـديد عـدد من القبـائـل المتـاخمـة لبـلاد الشـام ، والتي كـانت تخضـع لنفـوذ الـروم وتساعدهم . فقرر هرقل التحرك للقضاء على الخطر قبـل استفحالـه ، فدفع لجماعته أعطيات عام كامل ، وحشد أعداداً هائلة من المقاتلين في بلاد الشام ومعهم قبائل لخم وجُذام وعاملة وغسان(١) .

بلغ الرسول ﷺ نبأ تلك الحشود فقرر المبادأة بالهجوم وأمر أصحابه بالتهيوء لغزو الروم ، في عُسـرة من الناس وشـدة من الحر(٢) ، وأعلم الناس بنيته ووجهته لبعد المسافة وكثرة العدو، وليعلم الجيش ما سيواجهه من مصاعب فيحتاط لها ، وطلب من صحابته التبرع لتجهيـز الجيش ، فتبرعوا بسخاء . وبعد استكمال الاستعدادات تحرك الجيش نحو الشمال في رجب سنة تسع للهجرة وكان تعداده ثلاثين ألف مقاتل معهم عشرة آلاف فرس(٣) .

---

(١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) الطبري : تاريخ ، ج ٣، ص ١٠١.

(٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

ولما وصل الجيش إلى تبوك وجد الروم قد تفرقوا . فهم لما علموا بقوة جيش المسلمين وصلابة عود مقاتليه وارتفاع معنوياتهم قرروا عدم الاصطدام به ، فاقام الرسول في تبوك عشرين يوماً[1] ، وأتاه فيها يُحنَّة بن رؤبّة صاحب أيلة[2] فصالحه رسول الله على الجزية . وأتاه كذلك أهل جرباء وأذرُح فأعطوه الجزية ، وكتب لهم كتاباً .

ثم دعا الرسول ﷺ خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر بن عبد الملك ملك دومة الجندل ، وكان نصرانياً من قبيلة كِندة ، فأسره خالد وجاء به إلى رسول الله ﷺ فصالحه على أن يدفع الجزية وخلّى سبيله .

وبعدما أمضى الرسول في تبوك عشرين ليلة ، عقد في خلالها معاهدات صلح مع أمراء تلك المنطقة ، وأظهر لهم قوة جيش المسلمين ، عاد إلى المدينة فوصلها مظفراً في رمضان سنة ٩ هـ .

نتائج غزوة تبوك :

١ ـ منع الروم من تحقيق أهدافهم المتمثلة في ضرب الدين الإسلامي ومنع انتشاره . وهذا وحده يعدّ نصراً كبيراً .

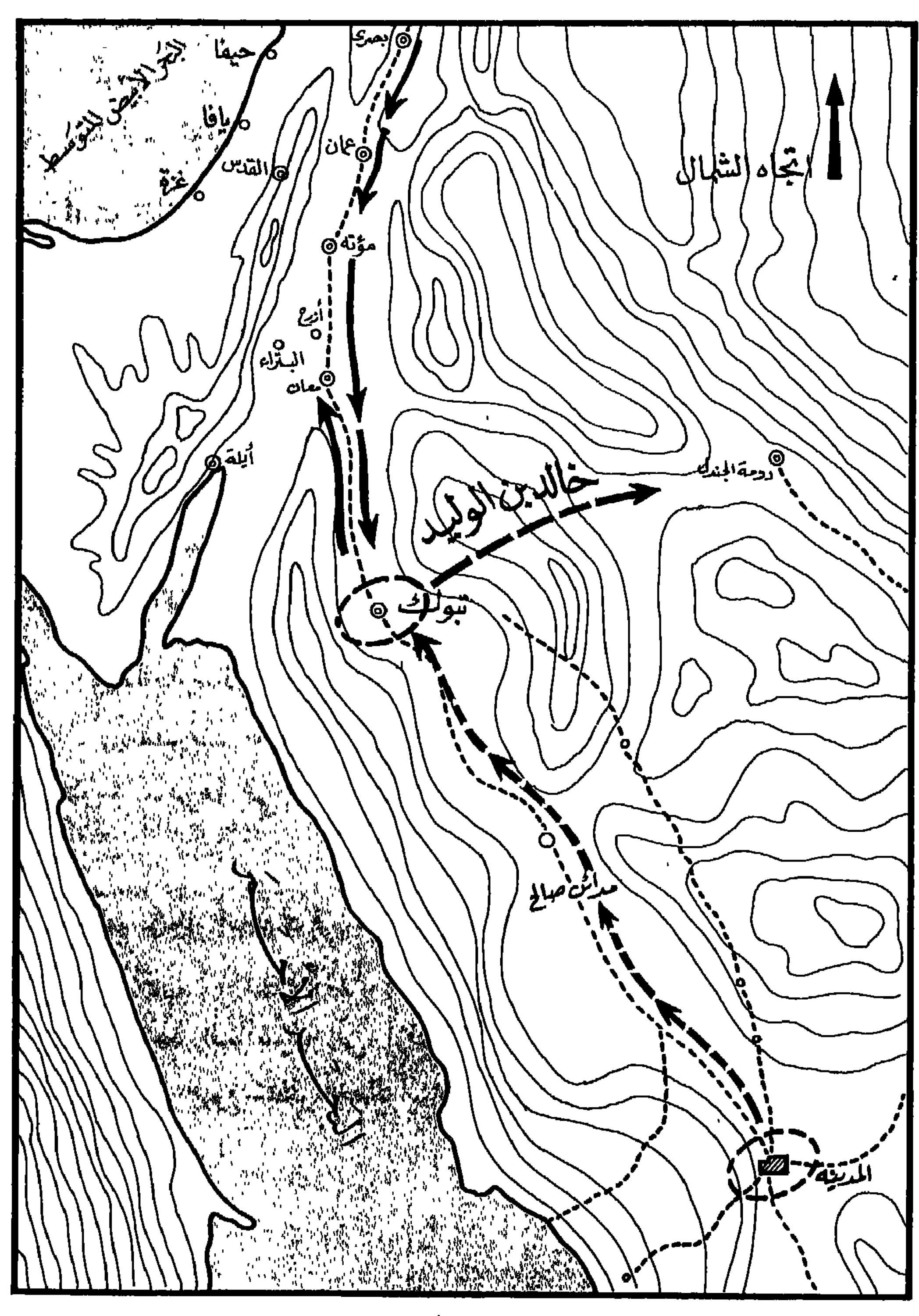
٢ ـ إظهار قوة المسلمين للروم وزرع الخوف في قلوب الأعراب الذين كانوا لا يزالون على شركهم ، فهم قد رأوا بعيونهم القوة العظمى في ذلك الوقت (الروم) تخاف المسلمين وتتحاشى لقاءهم .

٣ ـ رفع معنويات المسلمين الذين كانوا يتحاشون حرب الروم ويخافونهم حتى ان بعضهم تخلف عن المشاركة في تلك الغزوة .

---

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٣، ص ١٠١٥.

(٢) هي « العقبة » الميناء الأردني على البحر الاحمر حالياً . (البلادي ، معجم المعالم الجغرافية ، ص ٣٥).



غـــزوة تــبوك

٤ ـ حسمت حركة المسلمين إلى تبوك تردد القبائل العربية التي كانت تتأرجح بين تأييد الروم والدخول في الإسلام ، فأخذت وفود القبائل تؤم المدينة خاضعة مذعنة معلنة إسلامها وتأييدها .

٥ ـ أدت تلك الغزوة الى إقامة تماس مباشر مع الروم وتنظيم « نقاط ارتكاز » سيكون لها دور في الفتح الإسلامي لبلاد الشام فيما بعد .

نهاية المهمة :

أقام الرسول في المدينة عاصمة دولة الإسلام ، وأناب عنه أبا بكر الصديق ليحج بالناس سنة ٩ هـ بينما تفرغ هو لاستقبال الوفود التي تكاثر قدومها إلى المدينة معلنة إسلامها وانضوائها تحت راية رسول الله ﷺ حتى سميت سنة ٩ هـ « سنة الوفود »[١] .

وبدأ بارسال العمال لجمع الصدَقات ، والمرشدين ليعلموا الناس القرآن ويفقهوهم بالدين . ثم بعث الرسل والرسائل إلى ملوك الدول المجاورة يدعوها الى الاسلام ، والدخول في دين الله الذي ارتضاه لعباده .

ولم يهمل الجهاد في سبيل الله يوماً واحداً حتى انتقل إلى جوار ربه في يوم الإثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ وهو يجهز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد في مهمة الوصول إلى أرض فلسطين[٢] ، فهي الوصية ، وهي الأمانة ، وهي اليوم تنتظر أحفاد أسامة ، وجعفر ، وخالد ...

---

(١) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .
(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ .

الباب الثالث

تحليل عام

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : قيادة الرسول العسكرية

الفصل الثاني : قيادة الرسول السياسية

الفصل الثالث : معايير القيادة الإسلامية

الفصل الأول

قيادة الرسول (ص) العسكرية

﴿ وأعدُّوا لَهم ما استَطَعتُم منْ قوَّة ومِن رِبَاطِ الخَيلِ تُرهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرين من دونهم لا تَعلمونَهم الله يعلمهم ﴾[1] .

تمهيد :

بعدما استعرضنا في الفصول السابقة نماذج مختلفة من أعمال الرسول ومعاركه « غزواته وسراياه » ، وتبيّن لنا أنه كان ـ إذا صحّ التعبير ـ زعيماً شعبياً محبوباً ، وقائداً عسكرياً متميزاً ، وسياسياً بارعاً ، لم تعرف البشرية له مثيلاً ، تجلى ذلك في أثره بأتباعه ، وحبهم له ، واحترامهم لشخصه ، وطريقة معالجته للأمور ، ومعاملته للأصدقاء والأعداء على السواء .

وحيث أنه لا يمكن الفصل الدقيق بين أعماله بصفته القائد العسكري ، وبين أعماله بصفته الرئيس السياسي ، وبخاصة أنه أمضى جزءاً كبيراً من حياته في قتالٍ فعلي مع أعدائه ، أو في التحضير لقتالهم . وبما أن الجمع بين المهام العسكرية والمهام السياسية ضرورة تلجأ إليها الدول المعاصرة في حالات الطوارىء والحروب . لذلك كله لا نستطيع

(١) الأنفال ، ٦٠ .

الفصل بين أعماله وقراراته بصفته القائد العسكري وبينها بصفته الرئيس السياسي . ومع ذلك سنحاول في هذا الفصل التركيز على الجانب القيادي العسكري في حياة رسول اللّه ﷺ .

وقبل الدخول في صلب الموضوع أرغب بالتنبيه إلى أمرين :

الأمر الأول : هو أنني لم أتطرق إلى المعجزات التي كرم الله عزّ وجلّ نبيه ﷺ بها، لا إنكاراً لها ولا تقليلاً من شأنها، بل لأن الرسول ﷺ كان يأخذ في حروبه وجميع أعماله بأسباب النجاح، ولأن في محاولة ردّ كل انتصار إلى تدخل رباني ومعجزة إلٰهية، لا دخل للبشر فيها ، دعوة إلى التواكل وسوء فهم لمضمون الشريعة الإسلامية التي تشير إلى أن الله عزّ وجلّ ينصر من ينصره ، ومن يعدّ للنصر ويأخذ بأسبابه. فيقول عزّ من قائل: ﴿**وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّة ومن رِباط الخيل تُرهبون به عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرينَ من دونِهم لا تعلمونَهم، الله يعلمهم**﴾[1] .

ويقول في آية أخرى : ﴿ **ولينصرنَ اللهُ من ينصرُه ، إنَّ الله لقويٌّ عزيز** ﴾[2] .

كذلك فإن جيش الرسول لم ينتصر في بعض معاركه ، كما حصل في غزوة أحد ، لما ترك الرماة أماكنهم التي حددها لهم الرسول القائد ، واندفعوا وراء الغنائم ، ولم ينقذ ذلك الجيش من كارثة حتمية إلا ثبات الرسول ﷺ مع بعض أصحابه ، وسوء قيادة العدو الذي رضي من الغنيمة بالإياب[3] . وكذلك كاد المسلمون أن ينهزموا إن لم نقل هزموا في معركة حنين ، وفيها يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ **لقد نَصَركم اللهُ في مواطِنَ كثيرةٍ ،**

---

(١) الأنفال ، ٦٠ .

(٢) الحج ، ٤٠ .

(٣) راجع ص ٦٦ من هذا الكتاب . وابن هشام : مختصر السيرة ص ١٤٢ وما بعدها.

ويومَ حُنين إذ أعجَبْتكُم كثرتُكم فلم تُغنِ عنكم شيئاً ، وضَاقَت عليكُم الأرضُ بما رَحُبَت ثم ولَّيتُم مدبرين ﴾[1] .

والأمر الثاني : أنه ربما يتبادر إلى أذهان بعض القراء وجود مغالاة في الحديث عن قيادة الرسول المثالية ، وتطبيقه لمبادىء الحرب ، وهي مبادىء حديثة ، في علم حديث ، لايزال روّادُه ، مختلفين في عدد هذه المبادىء وأهميتها .

فإلى هؤلاء أقول : إن العرب نظموا الشعر قبل ميلاد علم العروض بقرون ، ثم وضع علماؤهم وأدباؤهم أوزان ذلك الشعر الجميل من خلال استقرائهم لقصائده . . وهكذا فإن القادة العسكريين العظام خاضوا مختلف المعارك ، وعلى مرّ العصور ، ومنهم من انتصر ومنهم من انهزم . ثم جاء علماء مختصون فدرسوا عوامل النصر وأسباب الهزيمة في كل معركة وعند كل قائد ، واستنتجوا من دراساتهم قواعد الحرب ومبادئها .

ومما لا شك فيه أن خصائص القيادة الأصيلة صفات فطرية موهوبة تخلق مع الإنسان ولكن تجارب الحياة ودروسها تصقل هذه المواهب وتثريها .

وتتداخل في تكوين شخصية القائد صفاته الإنسانية التي وهبه اللّه إياها ، وخلقه عليها ، والظروف المحيطة به ، والتحديات التي يواجهها ، وميزات الشعب الذي يقوده . . . .

ولذلك كله ليس من الضروري أن تكون نتائج كل معركة اتبعت فيها أساليب محددة مثل معادلة كيميائية نحصل في نهايتها على نتائج واحدة مهما اختلف الزمان والمكان .

---

(١) التوبة ، ٢٥ .

وباختصار : إن القواعد الأساسية لا تختلف في الحروب التقليدية ، ولكن الوصول إلى هذه القواعد ، وإمكانية تطبيق المبادىء ، معادلة صعبة تتداخل فيها عناصرُ كثيرة ، وتختلف هذه العناصر من شعب إلى شعب ومن زمان إلى زمان ، ومن قائد إلى قائد .

وبالعودة إلى سيرة محمد بن عبد الله ﷺ نجده ، عندما كلف بحمل رسالة الله إلى أهل الأرض ، بدأ بدعوة أقرب المقربين إليه للإيمان بالله الواحد الأحد ، والدخول في دين الله . وفي الواقع العملي بدأ بتنظيم حزب سري[1] مبدؤه الإسلام . وعندما انكشف أمر هذا الحزب لم ينكره بل دعا عشيرته إلى الدخول فيه ، وانتقل من مرحلة الدعوة السرية إلى مرحلة الدعوة العلنية ، مع المحافظة على سرية التنظيم .

وكعادة القوى الغاشمة في كل زمان ومكان ، بدأت السلطة المتمثلة بقريش حرباً لا هوادة فيها ضد الفكرة الجديدة التي تدعو إلى التوحيد والعدالة والمساواة بين الناس . ولما رأى الرسول ضعف قاعدته في مكة ، وتبين له استحالة تحويل القوى المتسلطة عليها إلى جانبه ، بدأ يتطلع إلى مكان يستطيع أن يتخذه قاعدة قوية وأمينة .

وعندما دخل بعض أهل المدينة في الإسلام ، وجد فيهم أملاً لم يجده في قريش ، فتطلع إلى المدينة لتكون قاعدته المنتظرة . وبدأ يرسل أصحابه إليها تباعاً ، حتى أذن الله له بالهجرة من مكة إلى المدينة بعد

---

(١) يقول الله عز وجل في سورة المائدة/٥٦ ﴿ ومن يتولى الله ورسوله ، والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون ﴾ والمقصود بحزب الله « المؤمنون » في مواجهة « الكافرين » لأن « المقارنة بين حزب الله الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وبين مصطلح الحزب السياسي الذي برز في القرن العشرين مقارنة غير صحيحة ، تؤدي بالضرورة الى نتيجة باطلة ، وهي تكفير كل من لا ينتمي الى الحزب السياسي الذي يرفع هذه اللافتة » (هويدي : فهمي ، مجلة العربي ، العدد ٣٥٢ ، مارس ٨٨ ، لافتة حزب الله) .

ثلاثة عشر عاماً من الدعوة ، والأمل يحدوه بالعودة فاتحاً .

فور وصوله إلى المدينة بدأ بوضع أسس دولة جديدة تقوم على مبادىء العقيدة الإسلامية ، وليس على القيم والأعراف القبلية التي كانت سائدة في ذلك العصر . أي نَقلَ الناسَ من الولاء للعشيرة والقبيلة إلى الولاء للأمة الواحدة . كما نظم العلاقات الاجتماعية بين عناصر المجتمع الجديد المؤلف من مسلمين ويهود ، في معاهدة عرفت في كتب السيرة باسم « الصحيفة »[1] ، لينتقل بعدها إلى مرحلة « الكفاح المسلح » ضد القوى التي حاربته ومنعته من نشر دعوته في مكة ، والأخرى التي ما زالت تتربص به في المدينة لتنقض عليه إن هو لم يقض عليها ، أو على الأقل ، يحول بينها وبين أية إمكانية لديها للعمل ضده .

ولكي يضمن النصر على هذه القوى كان لا بد من توافر ثلاثة شروط ضرورية لكل نصر :

١ ـ **قيادة ممتازة** : وهذا ما كان متوافراً في الرسول الكريم ﷺ .

٢ ـ **جنود ممتازون** : وهذا ما استطاع الرسول القائد أن يُعدّه من خلال تربيته لاتباعه.

٣ ـ **قضية عادلة** : ولا أعتقد أن أحداً يخالف القول أن الدعوة الإسلامية هي أعدل دعوة عرفتها البشرية وأن جهاد المسلمين الأوائل، بشكل خاص ، كان من أكثر الحروب عدلاً ومشروعية[2] .

ومع أن طبيعة حياة البدوي تجعل منه مقاتلاً ممتازاً ، فإن الرسول ﷺ اهتم بالإعداد العسكري من جميع النواحي ، ابتداءً بالتدريب

---

(١) نص الصحيفة مع تحليل رائع لها في : القاسمي ، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي الحياة الدستورية ، ص ٣٢ وما بعدها .

(٢) للتوسع في موضوع الحرب العادلة ، ومشروعية الحرب في الاسلام يراجع : كمال ، سقوط المدائن ، ص ٣٢٧ . وخطاب ، الرسول القائد ، ص ٤٧٣ .

وانتهاءً بالتسلح[1]، حتى إذا ما شعر بأنه أصبح بإمكانه التعرض للعدو المتمثل في قريش انتقل إلى « مرحلة الصراع المسلح » فأرسل السرايا « ٣٨ سرية » ، وقاد الغزوات « ٢٧ غزوة قادها بنفسه »[2] ، وفتح مكة ، ووحد الجزيرة ، وحارب الرومان ،وأنذر الفرس .ولما مات كان جيش المسلمين يتأهب للتوجه إلى الجبهة الشمالية ، إلى أرض فلسطين ، التي تضم قبلة المسلمين الأولى .

وبذلك فقد حقق الرسول ﷺ في مدة وجيزة ما لم يحققه أي قائد عسكري ، أو زعيم سياسي في مختلف العصور والأمصار . وفيما يلي سنحاول أن نستعرض صفاته القيادية ، ثم نستعرض مدى تطبيقه لمبادىء الحرب بمفهومها الحديث .

يمكن اختصار صفات القيادة المختارة بما يلي :

الصفات القيادية :

١ ـ القدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب .
٢ ـ الشجاعة الشخصية .
٣ ـ الإرادة القوية الثابتة .
٤ ـ تحمل المسؤولية بلا تردد .

---

(١) لما كانت إمكانات المسلمين غير كافية لإنشاء جيش محترف كما كان الحال عند الرومان والفرس ، ولم تكن لديهم أموال اليهود ولا مقدرة قريش على تجهيز جيش قوي ، فقد اتبع الرسول أسلوباً يجعل الأمة كلها محاربة تحت السلاح في أي وقت . إنه أسلوب سبق « الحروب الشعبية » بأوسع معانيها في العصر الحاضر مع فارق كبير هو « هدف الحرب » .

(٢) ابن هشام : السيرة ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ . وفي ابن سعد ، الطبقات ج ١ ص ٦ « كان عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزا بنفسه سبعاً وعشرين غزوة ، وكانت سراياه التي بعث بها سبعاً وأربعين سرية ، وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع : بدر ، وأحد ، وخيبر ، والخندق ، وقريظة ، وفتح مكة ، والمصطلق ، وحنين ، والطائف » .

٥ ـ معرفة مبادىء الحرب والخبرة بأصولها .
٦ ـ نفسية مستقرة ثابتة لا تتبدل في حالتي النصر والهزيمة .
٧ ـ بعد النظر وصحة التوقعات .
٨ ـ معرفة نفسية الجنود وإمكاناتهم ، وخبرة تامة بالرجال .
٩ ـ الثقة المتبادلة بين القائد وجنوده .
١٠ ـ المحبة المتبادلة بين القائد وعساكره .
١١ ـ شخصية قوية مهابة .
١٢ ـ اللياقة البدنية .
١٣ ـ ماضٍ ناصع مجيد .

هذه هي صفات القائد الممتاز ، وسنحاول فيما يلي تبيان مدى تمتع الرسول ﷺ بهذه الصفات .

١ ـ القدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب :

يستطيع القائد أن يصدر قراراً صحيحاً في الوقت المناسب إذا توافرت له المعلومات الكافية ، الصحيحة والدقيقة ، عن العدو ، والصديق والأرض ، وكان حوله أركان حرب « مستشارون » أكفاء ، وكانت لديه الملكات الفعلية الراجحة ، والمحاكمة السريعة .

أما الحصول على المعلومات :

فقد كان من أوائل اهتمامات الرسول ﷺ أن بدأ ، بعدما أنهى تنظيم المجتمع الجديد في المدينة ، بإرسال السرايا ، أي الدوريات الاستطلاعية والقتالية ، باللغة المعاصرة ، لأغراض الحصول على المعلومات عن المنطقة التي تحيط بالمدينة ، ومعرفة الطرق والمسالك التي تؤدي إلى مكة ، والتعرف إلى سكان تلك المناطق ، وإنشاء علاقات ودية معهم ، أو فرض هيبة المسلمين عليهم .

ولذلك فقد أرسل سرية من ثلاثين فارساً ، بقيادة حمزة بن عبد المطلب هدفها الوصول إلى العيص[1] لتهديد طريق قريش التجاري بين مكة وبلاد الشام .

ثم أرسل سرية من ستين فارساً بقيادة عبيد بن الحارث بمهمة الوصول إلى وادي رابغ للغاية ذاتها .

كما أرسل دورية استطلاعية بقيادة سعد بن أبي وقاص .

وقام على رأس قوة من مائتي فارس وراجل فيما عرف بغزوة « ودان »[2] وفي هذه الغزوة وقع « معاهدة عدم اعتداء » مع قبائل « بني ضمرة » وتلت ذلك « غزوة بواط » و« غزوة العشيرة » ، و« غزوة بدر الأولى » ، حتى كانت سرية عبد الله بن جحش في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة قبل غزوة بدر[3] .

وقد أعطى الرسول ﷺ الأوامر لهذه السرية في رسالة مغلقة ، وسلمها لقائد السرية وأمره بالسير إلى جهة حددها له وطلب منه أن يفتح الرسالة بعد مسيرة يومين . وإذا ما فتح الرسالة وعرف المهمة مضى لتنفيذها غير مستكرهٍ أحداً من رجاله على مرافقته .

وكان نص أمر المهمة[4] : « إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى

---

(١) اسم وادٍ بين المدينة والبحر الأحمر . (البلادي ، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص ٢١٩) .

(٢) اسم موضع بين مكة والمدينة . تقع إلى الجنوب الشرقي من بلدة « مستورة » المعروفة في الوقت الحاضر على مسافة أثني عشر كيلو متراً (البلادي ـ معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، ص ٣٣٣) .

(٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٧ وما بعدها . وابن هشام ، السيرة ج ٤ ، ص ٢٥٧ .

(٤) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ١١٤ .

تنزل نخلة[1] فترصَّد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » .

ومن نافلة القول إن المهمة كانت استطلاعية وإن كتمان المهمة بلغ الذروة في السرية ، ولا يختلف عن أحداث الأساليب العسكرية السائدة في العصر الحاضر .

كل هذه السرايا كانت قبل غزوة بدر التي وقعت في ١٧ رمضان سنة ٢ هـ ، أي بعد حوالي تسعة عشر شهراً من هجرة الرسول ﷺ ، وقد حققت الغاية المرجوة منها ، فتعرف المسلمون على الأرض الجديدة المحيطة بهم ، وأصبحوا على علم تام بتحركات قريش . وهكذا علم الرسول ﷺ في السنة الثانية من دورية استطلاعية أن أبا سفيان قادم على رأس قافلة قريش التجارية وهو في طريق عودته من دمشق إلى مكة . ولما قرر الخروج لملاقاة القافلة أرسل دورية استطلاعية أمام قواته . وعند وصوله إلى بدر أرسل العيون « الجواسيس » يجلبون له الأخبار وقام باستطلاع شخصي ليتأكد من موقع قريش وقوتها[2] .

وعندما أسرت إحدى الدوريات غلامين أشرف بنفسه على استجوابهما ، واستطاع بحسن محاكمته أن يستنتج عدد قوات قريش ومكانها .

وأما الشورى ، التي تعد مبدأً أساسياً من مبادىء النظام الإسلامي[3] فقد كان الرسول يعتمدها في الأمور الدنيوية ، وكان يغرس

---

(١) اسم موضع على الطريق القديم بين مكة والطائف . (البلادي ، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ص ٣١٧) .

(٢) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ١٢٠.

(٣) القاسمي : نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي ، الحياة الدستورية ، ص ١٢٧ .

في نفوس أصحابه حب المشاورة ويثني على من يعطي منهم رأياً سديداً ويشجعه . ويعلمهم الفصل بين أمور الدين الموحى بها والمعصوم عن الخطأ فيها ، وبين أمور الدنيا التي يخطىء ويصيب فيها كل الناس ، وهو منهم . لذلك نرى الحُباب بن المنذر عندما لم يعجبه المكان الذي نزلته قوات المسلمين في بدر سأل الرسول ﷺ : « أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟[1] » . فلما أجابه الرسول بأنه الرأي والحرب والمكيدة ، بادر إلى إعطاء وجهة نظره في المكان ، فبين سلبياته ومساوئه واقترح مكاناً أكثر ملاءمة منه ، أمام الماء ، بحيث يشرب المسلمون ويمنعون الماء عن المشركين . وأصغى الرسول ﷺ باهتمام إلى رأي الحُباب ، ولما تبين له صوابه سارع إلى الأخذ به وغير مكان قواته . لم يجد غضاضة في ذلك ، وهذه صفة من صفات القائد المتميز ولكن شتان بين قائد يستمع الأقوال فيدرك أفضلها ويأخذ به ، وبين قائد يستشير أركانه ثم يتشبث برأيه ، ولو كان على خطأ ، أو لا يستطيع التمييز بين الخطأ والصواب فيأخذ بأسوأ الآراء .

لذلك نرى الرسول لم يأخذ برأي أصحابه يوم اتفاق الحديبية، لأن الأخذ برأيهم يخرجه عن الهدف الذي خرج من أجله . لقد كان رأيهم خطأ ورأيه صواباً، فأصر على رأيه، وقد تبين لصحابته فيما بعد خطأ رأيهم وصواب رأيه . ومن الطبيعي في الحالات المماثلة وبعد ظهور النتائج وتأكد صوابية القرار الذي اتخذه القائد ، أن تزداد ثقة الأفراد بقائدهم ويمنحوه ما يستحقه من تقدير وحب واحترام .

وما ذكرناه عن معركة بدر هو مثل توسعنا به قليلاً ، ولكن هكذا كان اهتمام الرسول بالحصول على المعلومات في كل أعماله العسكرية . وبذلك كان دائماً على معرفة تامة بنوايا قريش ، وبما تحوك يهود من

---

(١) ابن هشام ، مختصر السيرة ، ص ١٢٢ .

مؤامرات ، واستطاع نتيجة تلك المعرفة أن يحبط خططهم ويرد كيدهم وينتصر ، باستمرار ، عليهم .

٢ ـ الشجاعة الشخصية :

جميع المسلمين والمطلعين على التاريخ الإسلامي يعرفون شجاعة علي بن أبي طالب ، فهو الذي نام في فراش الرسول في مكة ، عندما تركها مهاجراً إلى المدينة . وهو صاحب المواقف التي يضرب المثل فيها بالجرأة والشجاعة الشخصية ، علي هذا رضي الله عنه يقول : « إنا كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ، وهو أقربنا إلى العدو »[١] .

لقد زجّ الرسول ﷺ بقواته وهي ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلاً يوم بدر في معركة غير متكافئة مع قوات قريش التي تبلغ ثلاثة أضعاف قواته ، وقاتل بنفسه حتى انتصر ، وكان ، بشهادة علي بن أبي طالب ، أقرب المحاربين إلى العدو .

وفي غزوة أحد ، ترك الرماة الذين وضعهم على رأس الجبل أماكنهم ، واستطاعت مفرزة من المشركين بقيادة خالد بن الوليد[٢] اغتنام الفرصة ومفاجأة المسلمين من خلفهم ؛ فاختل توازن جيش المسلمين وكانت هزيمته مؤكدة ، بعدما سقط عدد كبير من القتلى في صفوفه . ولكن الرسول ثبت في مكانه وأخذ ينادي أصحابه ، فتجمع حوله عدد منهم ، استطاع بهم أن يكسر حدة هجوم المشركين وينسحب بمن بقي

---

(١) رواه أحمد والطبراني والنسائي بألفاظ مختلفة .

(٢) وقعت المعركة قبل إسلام خالد .

من قواته نحـو الشعب في الجبل[1] . ولـم يكتف بـذلك فبعـدما التقط الناجون أنفاسهم قام بمطاردة جيش المشركين إلى موضع يقال له « حمراء الأسد » على الطريق بين مكة والمدينة .

وفي معـركة حنين ، بعـد فتح مكـة ، انهزم جيش المسلمين في بادىء الأمر أمام قبائل هوازن وثقيف ، فثبت الرسول مع بعض أصحابه ، واستطاع أن يحول الهزيمة إلى نصر .

هـذه بعض الأمثلة عن شجاعـة الرسـول الشخصيـة ، غنيـة عن التعليق .

٣ ـ الإرادة القوية :

إن أفضل ما يبرز ارادة محمد ﷺ القـوية ، هـو موقفـه يوم جـاء المشركون إلى عمه « أبي طالب » يهددونه ويتوعدونه ويغرونه لكي يقلع عن دعوته . فقال له عمه : « يا ابن أخي ، إن قومك قد جاؤوني فقالوا كذا وكذا ، فأبقِ علي وعلى نفسك ولا تُحَمِّلْني من الأمر ما لا أطيق » فأجابه الرسول ﷺ : « يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّٰه أو أهلك فيـه ، ما تركته »[2] .

فإذا عرفنا أن هذه الحادثة جرت في أول العهد بالدعوة ، وأنه لم يكن مع الرسول إلا رجال قلائل يعدّون على الأصابع أدركنا قوة إرادته ، وشجاعته ، وتصميمه على بلوغ هدفه.

لقد بقي ثلاثة عشر عاماً في مكة يكافح ويجاهد ، ويدعو فيُصدّ ،

---

(١) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ١٤٣.

(٢) ابن هشام ، مختصر السيرة ، ص ٤٤.

فتحمل كل أنواع الاضطهاد والتكذيب والأذى ، لم تلن له قناة ولم تهن له عزيمة . ولما اضطر للهجرة واجه اليهود والمنافقين في المدينة فصبر حتى ظفر .

٤ ـ تحمل المسؤولية بلا تردد :

من أهم صفات القائد أن يتحمل المسؤولية بلا تردد ، فيأخذ على عاتقه تبعة أعمال يقتنع بها ، كما فعل الرسول يوم اتفاق الحديبية . ويتحمل النتائج حسنة كانت أم سيئة . وقد كان في موقف الرسول يوم غزوة أحد مثالاً رائعاً على تحمل المسؤولية . فقد استشار أصحابه لاختيار مكان المعركة ، وكان يفضل أن تكون المعركة في داخل المدينة وشاركه رأيَه معظمُ كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار . ففي القتال في داخل المدينة ميزات لخصها الرسول ﷺ بقوله : « امكثوا في المدينة ، واجعلوا النساء والذراري في الأطم ، فإن دخلوا علينا قاتلناهم في الأزقة ، فنحن أعلم بها منهم ، وارموا من فوق الصياصي والآطام »[1] .

ولكن الكثرة الكاثرة من الفتيان والشبان المتحمسين للقتال ، وبخاصة ممن لم يشهد بدراً منهم رغب في الخروج لملاقاة العدو ، حتى لا يظن العدو أنهم كرهوا الخروج جبناً وتخاذلاً . وأيدهم في رأيهم حمزة ابن عبد المطلب ، فنزل الرسول ﷺ على رأي هذا الفريق المتحمس ، وبخاصة أنهم هم عصب الجيش وقوته ، وقرر الخروج لملاقاة المشركين خارج المدينة . ولما شعر أنصار هذه الفكرة بأنهم أخطؤوا بإصرارهم على موقفهم عادوا الى الرسول يعتذرون ، ولكن الرسول قال لهم : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل »[2] .

---

(١) الواقدي ، المغازي ، ج ١ ، ص ٢١٠ .
(٢) اللأمة : الدرع ، وقيل السلاح . ابن هشام ، مختصر السيرة ص ١٣٧ .

وكانت نتيجة المعركة محزنة ، استشهد فيها من المسلمين واحد وسبعون رجلاً ، بينهم حمزة بن عبد المطلب ، عم الرسول[1] . ومع ذلك لم نسمع في كتب السيرة كلها أن الرسول ذكر الخطأ في الخروج لملاقاة المشركين ، أو أنه ألقى باللوم على الذين أصروا على الخروج من المدينة . فهو القائد ، وهو الذي يتحمل نتائج القرار .

٥ ـ معرفة مبادىء الحرب والخبرة بأصولها :

القادة الأقدمون لم يتخرجوا من مدارس عسكرية أو كليات حربية ، ولكنها الفطرة ثم الخبرة كما ذكرنا سابقاً . وما اصطلح على تسميته « مبادىء الحرب » إنما استخلصها المنظِّرون العسكريون من دراسة تاريخ كبار القادة والمعارك الحاسمة وتحليلها واستخلاص أسباب النصر أو الهزيمة في كل معركة .

وسنحاول أن ندرس مدى تطابق قيادة الرسول مع مبادىء الحرب في نهاية هذا الفصل تحت عنوان « الرسول ومبادىء الحرب » .

٦ ـ نفسية مستقرة ثابتة لا تتبدل في حالتي النصر والهزيمة :

من المعروف الشائع أن أي اضطراب في النفس يفقد الانسان المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح . وفي المعارك يتعرض القائد لمواقف تهز كيان الانسان كله ، أقلها مقتل قائد مهم أو صديق عزيز أو قريب حميم ، ناهيك عن الهزيمة والنصر ، وكلاهما يهز الكيان حتى أن نشوة النصر قد تكون مؤثرة لدرجة تقلب النصر إلى هزيمة ، كما حدث في معركة أحد ، فقد انتصر المسلمون ، ولم يستطع الرماة ضبط أنفسهم فتركوا أماكنهم ، واندفعوا وراء الغنائم ، فاغتنم خالد بن الوليد تلك

---

(١) ذكر الواقدي في المغازي ، ج ١ ، ص ٣٠٠ ان عدد القتلى سبعون رجلاً من الانصار واربعة من المهاجرين .

اللحظة ، والتف من وراء جيش المسلمين .

إن السيطرة على الأعصاب في اللحظات الحرجة والمواقف الحاسمة أمر لا يستطيعه كل انسان . واضطراب النفس يفقد العقل توازنه وقدرته على المحاكمة السليمة واتخاذ القرارات الصحيحة . أما محمدُ بن عبد اللّٰه ﷺ فقد كان مثالاً مدهشاً في هذه الناحية . لقد سيطر على أعصابه يوم أحد فحال دون إبادة جيش المسلمين الفتيّ ، وجعل الأعداء ينسحبون بنصر توهموه نصراً . وسيطر على أعصابه يوم حنين فقلب الهزيمة في أول المعركة إلى نصر في آخرها . وسيطر على أعصابه في غزوة الأحزاب ، عندما حاصر المدينة عشرة آلاف مقاتل من مشركي القبائل المختلفة فاستطاع بهدوئه ، ورباطة جأشه ، منعهم من تحقيق أي هدف ، صغيراً كان أو كبيراً .

والسيطرة على النفس في حالات النصر ولجم الانفعالات على أنواعها قد يكون أصعب من السيطرة عليها في حالات الهزيمة . فكم من قائد قتله غروره بانتصارات وهمية . أما محمد بن عبد اللّٰه ﷺ فقد فتح مكة ، وليس أقدر منه على تقدير أهمية ذلك النصر ، ومع ذلك فقد رآه الناس يدخل مكة حاني الرأس حشوعاً لله وتواضعاً لعباده ، لم يغرُّه نصر ولم يدفعه انفعال لانتقام ، ولم يعرف حقد إلى نفسه سبيلاً .

٧ ـ بُعد النظر وصحة التوقعات :

عندما انكفأت الأحزاب عن المدينة بعد غزوة الخندق . قال الرسول للمسلمين : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم »[١] . لقد لخص في هذه الجملة ، بما أوتي من بعد نظر وحسن

---

(١) البخاري : كتاب المغازي ، باب غزوة الخندق . وللتوسع في الموضوع راجع : خليل ، دراسة في السيرة ، ص ٢١٨ وما بعدها .

تقدير ، الموقف العسكري لـلأعوام القـادمة . وصحت تـوقعاتـه ، فقد أدركت القبائل صعوبة انتصار قريش ، وشكّت قريش في إمكانية جمع القبائل مرة أخرى وضمان ولائها . وانقلب ميزان القوى بشكل واضح .

وفي أواخر السنة السادسة للهجرة خرج الرسول الى مكـة معتمراً وخرج معه ألف وأربعمائة من المسلمين ، وساق الهدي وأعلن أنه لا ينوي حرباً ، إنما خرج زائراً للبيت ومعظماً . ولكن قريشاً استنفرت قواتها ، لتحول بينه وبين قيام المسلمين بعمرتهم . ودارت المفاوضات ، ومـال معظم المسلمين إلى قتال قريش ، ولكن الرسول بقي ثابتاً على هدفه وقبل بشروط الاتفاق الذي عرف بـ « صلح الحديبية » ، وكـان ظاهـر شروط الصلح مجحفاً بحق المسلمين ، فهي تنص على ما يلي :

١ ـ وقف الأعمال القتالية بين الطرفين عشر سنوات .
٢ ـ من أتى محمداً بغير اذن وليه رده إلى قريش .
٣ ـ من أتى من المسلمين إلى قريش لم يردوه إلى المسلمين .
٤ ـ من أحب من العرب ان يحالف قريشاً فله ذلك ويدخل في عقدها ، ومن أحب أن يحالف محمداً ﷺ دخل في عقده .

وقد آلم المسلمين موافقة الرسول على هذه الشروط التي ظنوهـا مُذِلَّة لهم لعدم التوازن والتساوي في ظاهر النصوص ، ولكن الذي حصل فيما بعد أنه تبين للمسلمين وللناس أجمعين فوائد هذه المعاهدة وما خفي فيها على عامة الناس من الطرفين . وهذا هو الفارق بين القادة الملهمين الذين يقرؤون المستقبل وبين الناس العاديين.

لقد تجمع الفارون من قريش وشكلوا عصابة تقـطع الطريق على قوافل قريش ، ولم تستطع قريش منعهم ولا الطلب من محمد أن يمنعهم لأنهم ليسوا في عقده ، فهم خارجون على القانون ، مما اضطر قريشاً ان ترجو محمداً لكي يقبلهم ويكفيها شرهم . وبهذا ألغت قريش بنفسها البند

الذي آلم المسلمين[1].

أما الذين يفرون من المسلمين فهم لا خير فيهم أصلاً ، فليذهبوا الى قريش فذلك أفضل من أن يبقوا « طابوراً خامساً » مخرباً يضاف الى المنافقين الموجودين في المدينة . وقد أفسحت الهدنة في المجال أمام المسلمين ، ليبشروا بدعوتهم ، ويتفرغوا لها ، فزاد عددهم حتى أصبح جيشهم في سنتين ، من يوم الحديبية الى يوم فتح مكة ، عشرة آلاف مقاتل.

ومع أن القوي يستطيع إيجاد الذرائع للتخلص من معاهدات وقعها في ظروف معينة ولا يرغب بالمحافظة عليها ، فإن الرسول ﷺ حافظ على الالتزام باتفاق الحديبية. ولكن إذا كان العدو غبياً مغروراً فإنه ينقض معاهداته من تلقاء نفسه على أمل النصر وتحقيق وضع أفضل . وستكون النتيجة خسارته وانتقاله إلى وضع أسوأ مما كان عليه . وهكذا فقد نقض المعاهدة حلفاء قريش ، فأعطوا بذلك المبرر للرسول ﷺ لفتح مكة بعد سنتين فقط من اتفاق الحديبية .

٨ ـ معرفة نفسيات الجنود وامكاناتهم :

كما أن من لا يعيش مع جنوده ليس مؤهلاً لمعرفة نفسياتهم ، فكذلك ليس كل من يعيش مع جنوده مؤهلاً لهذه المعرفة الواعية ، وكثيراً ما يخفي الناس أهواءهم وميولهم ، وكثيراً ما يظهرون على خلاف حقيقتهم .

أما محمد بن عبد اللّه فقد ولد بين جنوده ، وعاش معهم ، ودرس نفسياتهم وعرف إمكاناتهم فكان يختار الرجل المناسب للمهمة المناسبة . لم يكلف حسان بن ثابت بقيادة أو حرب ، ولم يعط سيفه يوم أحد إلا لمن

---

(١) راجع ص (١٠٨) من هذا الكتاب .

يفيه حقه . فأعطاه لأبي دجانة لأنه كان يعلم من هو أبو دجانة . كذلك لم يولِّ أبا ذر الغفاري ، رغم طلبه الولاية لأنه وجده ضعيفاً لا يستطيع القيام بواجبات الولاية ، بينما سلم خالد بن الوليد القيادة من يوم التحاقه بصفوف المسلمين . وفعلاً لم تنهزم لخالد راية قط طوال حياته العسكرية ، ولذلك لم يعزله يوم أخطأ وأمر بقتل الأسرى في المعركة[1] .

أما محبو المال فقد أعطاهم حتى أرضاهم . قال صفوان بن أمية : ما زال رسول اللّٰه يعطيني من غنائم حنين وهو أبغض الخلق اليّ حتى ما خلق اللّٰه شيئاً أحبّ إليّ منه .

٩ ـ الثقة المتبادلة بين القائد وجنوده :

من الطبيعي أن تكون ثقة جنود محمد ﷺ به عظيمة ، ولِمَ لا ، وهم يرون شجاعته ، وصبره ، وحسن تقديره للأمور ، وغير ذلك من الصفات التي توحي بالثقة ، يضاف إليها إيمانهم بأنه رسول مؤيد من الله عز وجل . ولكن ثقة الرسول بقواته كانت كبيرة أيضاً ، ويكفي للدلالة على ذلك أنه أقدم يوم بدر على زجِّ قواته وهي قليلة التسليح والإمكانات مع قوات تقدر بثلاثة أضعافها ، حسنة التجهيز ، فيها خيرة فرسان قريش وأكفأهم .

١٠ ـ المحبة المتبادلة بين القائد وعساكره :

كان الرسول يحب أصحابه ويعطف عليهم ، كما يعطف الوالد على أبنائه . وكان يعفو عن أخطائهم مهما عظمت ، حتى أن أحد أصحابه أرسل إلى قريش يعلمهم بتحرك المسلمين لفتح مكة ، ومع ذلك رفض قتله أو الاقتصاص منه لماضيه المجيد وما قدمه للإسلام من خدمات[2] .

---

(١) راجع ص ١٣٢ من هذا الكتاب .

(٢) راجع قصة « حاطب بن أبي بلتعة » ص ١١٨ من هذا الكتاب .

وكان المسلمون يبادلونه حباً بحب ، فيوم أحد ضغط المشركون على الناحية التي فيها محمد يهدفون الى قتله ، فتحلق حوله أصحابه يردون السهام والسيوف عنه بأجسادهم .

ولما توفي ، كاد المسلمون يفقدون عقولهم حتى أن عمر بن الخطاب أنكر وفاة الرسول ﷺ وهدد من يقول بأن محمداً قد مات بالقتل[1] ، هذا الرجل الحصيف القوي ، الذي رفع المؤمنون صوتهم بالأذان يوم إسلامه كاد يفقد صوابه ، ونسي ما يقرأ باستمرار في القرآن الكريم .

﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَت من قبلِهِ الرُسُلُ أفإن ماتَ أو قُتلَ انقلَبْتُم على أعْقَابِكم﴾[2] ، ولم يُعده الى رشده إلا صوت أبي بكر يذكره بالآية الكريمة .

١١ ـ شخصية قوية مهابة :

لكي ندرك قوة شخصية محمد ﷺ ونقدرها حق قدرها نستمع الى عروة بن مسعود الثقفي وهو مشرك يصف محمداً للمشركين فيقول : يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد : لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وانهم لن يسلموه لشيء أبداً[3] .

وحدث مرة ، في سنوات الدعوة الأولى ، أن أبا جهلٍ اشترى إبلاً من رجل ، وماطَلَه بثمنها ، فوقف الرجل على جماعة من أهل مكة

---

(١) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ٣١٠ .
(٢) آل عمران ، ١٤٤ .
(٣) ابن هشام : السيرة ، ج ٣ ص ٣٢٨ .

يسـألهم عمَّن يخلص له حقـه من ذلك الـظالم المفتري ، فـدلوه على محمد ، يستهزئون به لما يعرفون من العداوة بين محمـد وأبي جهل . فقدم الرجل على محمد ﷺ ، وروى له قصته ، فقام معه الرسول ﷺ إلى بيت أبي جهل ، وطرق بابه ، فقال : « من هذا؟ قال : محمد فاخرج إليَّ ، فخرج أبو جهل وقد امتقع لونه ، فقال له الرسول ﷺ : أعطِ هذا الرجل حقّه ، فقال أبو جهل : نعم ، لا تبرح حتى أعطيه حقه »[1] . فأية شخصية هذه ؟ وأية مهابةٍ كانت له في قلب أبي جهل ؟ وهو من الفرسان المعروفين.

ووصفه علي بن أبي طالب فقال : « أجودُ الناس كفاً ، وأجرأ الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى النـاس ذمة ، وألينهم عـريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه »[2].

ولا بد من الإشارة إلى فارق دقيق قد يغيب عن بعض الأذهان بين « الشخصيةالقويـة » و « الشخصية المخيفـة » ، فالأولى مهـابة محتـرمة ومحبوبة ، والثانية : مخيفة لكنها محتقرة . وغالباً ما تمتاز الأولى بتواضع جمٍّ ، وحلم وكرمٍ ، بينما تكون الثانية متعجرفة متعالية .

١٢ ـ اللياقة البدنية :

لا يقصد باللياقة البدنية قـوة العضلات فقط ، بـل صحة الجسم وقدرته على تحمل المشاق والسهر والتعب ، وهي أكثر ضرورة لقائد يتنقل على الجواد والبعير من قائد يتنقل في السيارة والطائرة .

ولكي ندرك قابلية الرسول البدنية يكفي أن نعلم أنه قاد بنفسه سبعاً وعشرين غزوة ، كلها بعدمـا تجاوز الثـالثة والخمسين من عمـره . وأن

---

(١) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ٧٤.

(٢) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ٣٦.

صحابته كانوا يلجؤون إليه وهم يحفرون الخندق حول المدينة ، كلما صادفوا صخرة قوية صعب عليهم تحطيمها ، وما أسرع ما كانت تتفتت تحت ضربات مطرقته القوية . .

١٣ ـ الماضي الناصع المجيد :

الشخص المغمور لا يهتم الناس بماضيه ، أما القائد الكبير ، فهو عرضة للنقد والتجريح من الأصدقاء قبل الأعداء . فإن كان دافع الأعداء من نبش ماضيه تبيان المآخذ عليه لتشويه سمعته ، بين أصحابه ، وفي صفوف قواته ، وأفراد شعبه ، فإن دافع الأصدقاء غالباً ما يكون الغيرة والحسد للحلول محله . أما الرسول العظيم فقد كان كما قال الله عزّ وجلّ **﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾**[1] ، وكما وصفته زوجه خديجة أم المؤمنين عندما أعلمها بالوحي ، وكان خائفاً مرتاباً قالت : « أبشر يا بن العم واثبت ، فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة . والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » .

لقد لقبه الناس بالأمين قبل بعثه ، ولما اختلف زعماء قريش على وضع الحجر الأسود في مكانه عند تجديد بناء الكعبة كان محمد الأمين الحكم بينهم .

لم يعرف مجون شباب قريش في شبابه ، ولم يلعب الميسر ، أو يشرب الخمر في حياته ، ولم يشارك في أيَّةِ مثلبة تؤخذ عليه ، لذلك نرى النضر بن الحارث وهو مشرك يقول لقريش : « يا معشر قريش . . . قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً ،

---

(١) القلم ، ٤ .

وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاء به قلتم ساحر ! »[1] .

هـذه هي الصفات التي اتفق معـظم المنـظرين العسكـريين على ضرورة توافرها في القائد وكلها كان الرسول مبرزاً فيها كما رأينا ، ولكن هناك صفات أخرى مهمة جعلته القائد المثالي والقدوة الحسنة ، أهمها ما امتاز به من فكر خلاق وطاقات رائعة .

فالحرب ليست علماً بالمعنى الدقيق للكلمة ، ولذلك نرى بعض المختصين عندما يتحدثون عن الحرب يقولون « فن الحرب » .

الحرب عملية معقدة أكثر مما نتصور وعـوامل النصـر فيها كثيـرة التشعب ، فليس كل من طبق نظريات معينة حقق انتصاراً مؤزراً ، وليس كل من وضعه قدره في منصب قيادي قائداً .

---

(١) ابن هشام ، مختصر السيرة ، ص ٥٣ .

الرسول ومبادىء الحرب

يضع الكتاب العسكريون ، وكبار القادة ، للحـرب مبادىء وقـواعد مكثفة ، يرون ضرورة اتباعها لتحقيق النصر ، وهم يختلفـون في تعداد هذه المبادىء ، وتدرُّج أهميتها .

فالأميركيون عموماً وضعوا عام ١٩٢١ تسعة مبادىء ما زالت تشكل إلى اليوم هيكل مذهبهم العسكري العام مع تعديلات طفيفة[١] وهي :

١ ـ ملاحقة هدف واحد .
٢ ـ التعــرض .
٣ ـ حشد الوسائط .
٤ ـ الإقتصاد في القوى .
٥ ـ الحركيــة .
٦ ـ المفاجــأة .
٧ ـ الحيطــة .
٨ ـ العمل الموحد .
٩ ـ البساطــة .

أما « كلاوزفيتز »[٢] فلم يتقيد بعدد دقيق لهذه المبـادىء ، ولكنه أصر على مبادىء خمسة هي :
١ ـ حشد القوى .
٢ ـ الاحتياط (الاحتفاظ باحتياط يستعمل عند الحاجة) .
٣ ـ المبادأة (بدء العدو بالهجوم) .

---

(١) صفا : الحرب ، ص ٧٢.
(٢) كاتب عسكري شهير ، وضابط من أصل بروسي ، توفي عام ١٨٣٠ ونشر له بعد وفاته كتاب «الوجيز في الحرب» يعد مرجعاً لكثير من نظريات الحرب الحديثة .

٤ ـ المطاردة (بعد النصر) .
٥ ـ المفاجـأة .

بينما ذكر الجنرال « فوللر »[١] المبادىء التالية :
١ ـ الحيطـة .
٢ ـ المفاجـأة .
٣ ـ الحركيـة .
٤ ـ حشد القوى .
٥ ـ توحيد الجهـود .

ويركز « ليدل هارت »[٢] و « غودريان »[٣] على مبدأين هما : المفاجأة والحركية .

ويرى الروس أن مبادىء الحرب وقوانينها غير ثابتة ، ولا يقدمون بها لائحة مقررة موحدة ، ولكن يستنتج من مؤلفات ستالين أنهم يعيرون أهمية كبرى للمبادىء التالية[٤] :
١ ـ استقرار المؤخرات .
٢ ـ معنويات الجيوش .
٣ ـ تجهيز الجيش .
٤ ـ طاقة التنظيم في أجهزة القيادة .

وقد اعتمدت التسلسل التالي لدراسة مدى تطبيق الرسول ﷺ لمبادىء الحرب مع أن هذه المبادىء لم تكن معروفة من قبله ، وإنما كان تطبيقه لها بما وهبه الله له من نفاذ بصيرة وحسن قيادة .

---

(١) جنرال انكليزي ، له عدة مؤلفات عسكرية .
(٢) كاتب عسكري انكليزي .
(٣) جنرال الماني اشتهر في الحرب العالمية الثانية . وبخاصة في حرب المدرعات .
(٤) صفا ، الحرب ، ص ٧٤ .

١ ـ المحافظة على الهدف :

كان الرسول يختار هدفه بدقة ويحافظ عليه . ولعل أبرز مثال على المحافظة على الهدف ما فعله في غزوة الحديبية . فقد كان هدفه أداء العمرة وإظهار تعظيمه للبيت العتيق ، والتأثير في معنويات قريش . ولم يكن القتال من بين أهدافه ، لذلك تخلّص من مواجهة قوات قريش باختيار طريق جانبي . ولما وصل الحديبية فاوض قريشاً وعقد معها اتفاقاً ورجع رغم معارضة أصحابه ، ونزولهم على رأيه على مضض فيما بعد ، ولم يَحِدْ عن هدفه قيد أنملة .

أما يوم فتح مكة ، فالوضع مختلف تماماً . الهدف هو فتح مكة . ومع أن الرسول يفضل الوسائل السلمية ، فإنه لا فرق في المحافظة على الهدف بين فتحها صلحاً أو حرباً .

وقد تجلى تصميم الرسول ﷺ على بلوغ هدفه ، وعدم الانحراف عنه مهما كانت العوائق ، من يوم رجوع أبي سفيان من المدينة خائباً ، وعدم تمكنه من تثبيت اتفاق الحديبية ، إلى يوم وقوفه في مكة معلناً : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .

٢ ـ أمن العمل :

كان الرسول يولي الأمن اهتماماً خاصاً . فعندما كان يحرك قواته كان يرسل أمامها دوريات الاستطلاع ويسير الطلائع ويحمي مؤخرات الوحدات ، ويهتم بالحراسة ، ويحذر أية مباغتة . حتى أنه أمر المسلمين عندما يريدون الصلاة في الحرب أن ينقسموا إلى قسمين ، قسم يصلي وقسم مستنفر ، شاكي السلاح جاهز للقتال . جاء في الآية الكريمة : ﴿ وإذا كُنتَ فيهِم فأقمتَ لهُم الصلاةَ فلْتَقُم طائفةٌ منهم مَعَكَ وليأخُذوا أسلِحَتَهم ، فإذا سَجدوا فلْيكُونوا من ورائكم ولتـأتِ طائفـةٌ أُخرى لم يُصلّوا فليصلوا مَعك وليأخذوا حِذرهم وأسلحتَهم ، وَدَّ الذينَ كفَروا لو

تَغفَلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فَيميلونَ عليكُم ميلةً واحدة ﴾[1] .

وقد ذكرنا سابقاً الحيطة التي اتخذها يوم أرسل سرية عبد الله بن جحش ، فقد كتب المهمة في رسالة وأمر قائد السرية أن لا يفتحها إلا بعد مسيرة يومين .

ويوم جهَّز جيشه بغية التوجه لفتح مكة أخفى نياته عن أقرب الناس إليه ، حتى أن أبا بكر رفيقه في الهجرة سأل ابنته ، زوج الرسول ، عن وجهته فلم تعرف بماذا تجيبه ، لأنها لم تكن تعلم هدف رسول الله ﷺ . وأمثلة ذلك كثيرة في كتب السيرة ، كلها تدل على مدى الحذر والحيطة في تحركات الرسول ﷺ .

٣ ـ الحركية أو المرونة :

كان جيش الرسول سريع التحرك مرناً ، وكان يتمتع بمقدرة كبيرة على تحمل مشاق المسيرات الطويلة .

ولعل أفضلَ مثالٍ على مرونة الرسول في وضع الخطط وفي تنفيذها ما كان منه يوم بدر . فقد خرج الرسول لمصادرة قافلة قريش التي كانت في طريق عودتها من دمشق إلى مكة ، ولكن العير فاتته . وبما أن الهدف الرئيس كسر شوكة قريش ، كان للرسول هدف جديد ، وخطة جديدة . وهكذا وبسرعة متناهية استشار أصحابه وأخذ موافقتهم على مهاجمة القوة ، التي خرجت لتحمي القافلة ، ثم وضع خطته بسرعة لمعركة بدر كمَا مر معنا .

٤ ـ التعرض ويمكن أن نسميه المبادأة ، ونقصد به مبادرة العدو بالقتال :

فالمهاجم غالباً هو صاحب النصر ، وهناك قول مأثور أو قاعدة عامة

---

(١) النساء ، ١٠٢ .

في القتال تقول : « الهجوم وسيلة للدفاع » ، وهي بمعنى قول الإمام علي رضي الله عنه : « ما غُزي قوم في عقر دارهم إلا ذَلُّوا » ، ويقتصر نصر المدافع على منع المهاجم من تحقيق أهدافه فقط ، بينما يعمل المهاجم بشكل إيجابي على تحقيق أهدافه .

ومن استعراض حروب الرسول كلها نجدها تعرضية « هجومية » ما عدا غزوتين فقط هما « أحد » و« الخندق » . ففي الغزوتين حشد المشركون قواتهم وتعرضوا للمسلمين . وفي أحد خرج من المدينة بجيشه لملاقاتهم . وفي الأحزاب حصن المدينة ودافع عنها حتى انصرف المحاصرون بعدما استطاع أن يوقع بين الحلفاء بتخطيط مدروس واستفادة قصوى من مسلمين مجهولين .

٥ ـ الاقتصاد بالقوى :

إن من يدرس غزوات الرسول كلها يلاحظ أنه لم يكن يرسل في الغزوة إلا ما تحتاجه من قوات ، فإن اضطر إلى استنفار جميع المسلمين استنفرهم ، لأن الاقتصاد بالقوى يعني عدم إهدار القوى واستعمال القوة الكافية لتنفيذ المهمة ، والاحتفاظ بباقي القوى لاستخدامها عند الضرورة ، ولا يعني حشد قوات أقل من القوات اللازمة لتنفيذ المهمة . فإذا احتاجت المهمة والوضع العسكري إلى جميع المسلمين وجب حشدهم كلهم، وللفقهاء آراء في فرض الجهاد على بعض المسلمين ، أو جميع المسلمين ، بحسب الحالة القائمة ، يرجع إليها في كتب الفقه . وبناءً على ذلك نجد تعداد سرية حمزة بن عبد المطلب يصل إلى ثلاثين فارساً ، وهي أول سرية بعث بها الرسول ﷺ من المدينة ، وكان تعداد المسلمين لا يزال بسيطاً ، بينما لم يتجاوز عدد أفراد سرية عمرو بن أمية الضمري الرجلين ، مع أن تعداد المسلمين أصبح يومها بالألوف . فقد كانت قوة الرجلين كافية للقيام بالمهمة ، فلا داعي للتبذير بالقوى .

ومن الطبيعي أن تشمل القوى في العصر الحاضر العنصر البشري ، والأسلحة والأعتدة ، والآليات ، وغيرها من وسائل القتال المادية بحيثُ يختار لكل عملية ما يلزمها . . ، ولا يُهدر من الذخيرة إلا بمقدار الحاجة .

٦ ـ حشد القوى :

قد يبدو بعض التعارض بين مبدأي الاقتصاد بالقوى وحشد القوى . والواقع أنه لا تعارض بينهما ، إنما هي عملية توازن دقيقة . فلا يحشد القائد قوات في مهمة لا تحتاج إليها كلها ولا يقتصد في مهمة تحتاج إلى قوات أكثر مما خصصه لها ، لأنه في الحالة الأولى يفرِّط في قواته كالذي يبذر أمواله ، وفي الثانية يعرض قواته للهزيمة لأنها غير كافية لمواجهة العدو المتفوق عليها .

ويلاحظ المتتبع لسيرة الرسول أنه لم يبدأ في قتال المشركين إلا بعدما هيأ من القوات ما يكفي للقتال ؛ فهو في مكة كان يعدّ المقاتلين وينهاهم عن القتال .

وقد حدث في بيعة العقبة الثانية أن اكتشفت قريش أمر البيعة[1] ، فلم يهتم الأنصار لذلك . وطلب سعد بن عبادة من الرسول أن يسمح لهم بالهجوم على المشركين فمنعه الرسول من ذلك لأنه كان يعلم أن إمكاناته ما زالت أضعف من أن يزجها في معركة خاسرة .

٧ ـ المفاجأة أو المباغتة :

ربما كانت مفاجأة العدو من أهم عوامل الانتصار عليه . وهي تكون بالزمان ، وتكون بالمكان ، وتكون بأسلوب القتال ، أو باستخدام أسلحة جديدة لا يعرفها العدو ، أو لا يتوقع وجودها مع خصمه .

---

(١) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ٨٧ وما بعدها.

ويُعَدُّ الكتمان والمحافظة على سرِّية التحركات والعمليات من أهم وسائل تحقيق المفاجأة . وقد كان الرسول ﷺ إذا أراد غزوة ورّى بغيرها فينقل « الطابور الخامس » المنتشر في المدينة والمؤلف من : يهود ، والمنافقين ، وجواسيس قريش ، المعلومات الخاطئة إلى المشركين فيتوقعون شيئاً ، ويفاجؤون بشيء آخر .

ومن أمثلة المباغتة في المكان غزوة خيبر ، فقد توجه نحو غطفان وأرسل مفرزة إلى معسكرهم ثم حول قواته الرئيسة إلى خيبر .

ومن أمثلة المباغتة في الزمان ، غزوة بني قريظة ، فما كاد الأحزاب يفكون الحصار عن المدينة حتى صاح مؤذن الرسول : « من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة »[1] .

أما أمثلة المفاجأة بالأسلوب فقد كانت متنوعة ورائعة :

في بدر استعمل أسلوب الصف ، والأسلوب الذي كان متبعاً عند العرب هو أسلوب الكر والفر . كما أن طريقة ضبط الرمي بالنبال ، التي اتبعها ، وعدم الالتحام مع العدو قبل إنهاكه وتمزيقه ، لا تختلف عن أسلوب ضبط الرمي في العصر الحاضر حتى تصبح القوات المعادية ضمن المدى المجدي للأسلحة فتفتح عليها النيران بغزارة .

وفي غزوة الأحزاب فاجأ العدو بالخندق حَفرهُ حول المدينة ، فأجبر القوات المهاجمة على التوقف مذهولة أمامه ، تلتمس مكاناً تعبر منه ، فإن استطاع بعضها اجتياز الخندق اجتمع عليه المسلمون وأجهزوا عليه .

كما أنه استخدم المجانيق والدبابات في حصار الطائف ، وهي أسلحة لم تكن منتشرة في الجزيرة في تلك الأيام .

---

(١) ابن هشام ، مختصر السيرة ، ص ١٧٤ .

لقد كان الرسول يتميز بفكر خلاق ، فكان في كل غزوة أو معركة يفاجىء أعداءه بمواقف جديدة ، وأساليب جديدة ، وأسلحة جديدة ، فاستطاع بذلك أن ينتصر باستمرار على أعدائه .

٨ ـ إدامة المعنويات :

امتاز المسلمون بمعنويات لم تتوافر لأي جيش عرفه التاريخ . كانوا يتسابقون إلى الموت ، وهو أقصى ما يمكن أن يواجهه الإنسان ، لأن الرسول القائد استطاع أن يغرس في نفوسهم أن الاستشهاد في سبيل الله إنما هو انتقال إلى حياة أفضل : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون** ﴾[(١)] ، ولإيمانهم بأن الجنة مثواهم وبأن مقام الشهيد مع النبيين والصديقين .

ويكفي للتدليل على معنويات المسلمين العالية وتسابقهم إلى الموت هذا المثال : وقف الرسول في غزوة بدر يحرض المسلمين على القتال فقال[(٢)] : « والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة ، فقال العمير بن الحمام ، وكان في يده تمرات يأكلهن بخ ـ بخ [(٣)] ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلاَّ أن يقتلني هؤلاء ؟» ثم قذف التمرات وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل .

فهل عرف التاريخ جنوداً يتسابقون إلى الموت فرحين مستبشرين كجنود النبي محمد ﷺ ؟

وقد حرص الرسول ﷺ باستمرار على إدامة هذه المعنويات ،

---

(١) آل عمران ، ١٦٩ .

(٢) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ١٢٦ .

(٣) كلمة تقال عند التعجب .

وتقويتها ، حتى أنه أخفى عن جيشه نقض « بني قريظة » عهدهم . فلما نقضوا العهد في أثناء غزوة الأحزاب ، وعلم الرسول بذلك ، أرسل وفداً يستطلع الأمر، وقال لهم: «انطلقوا حتى تنظروا، أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه[1] ، ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء ، فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس »[2] .

٩ ـ تأمين الأمور الإدارية :

لم تكن الأمور الإدارية معقدة كما هي الحال في العصر الحاضر ، وكان غذاء المسلمين بسيطاً أكثره التمر واللبن ، ومع ذلك فقد أعار الرسول الأمور الإدارية اهتماماً كبيراً حتى أنه كان يصطحب النساء معه في غزواته ، فيقمن بمداواة الجرحى ، وتأمين المياه ، وتحضير الطعام ، وغير ذلك من الأمور التي يحسن النساء القيام .

١٠ ـ استقرار المؤخرات :

والمقصود بذلك استتباب الأمن والهدوء وراء جبهات القتال . فالعسكري الذي تشغله أعمال القتال في الجبهة ، يجب أن يكون مطمئناً إلى استقرار الأحوال في الداخل ، وإلى أنه لن يتلقى ضربة من الخلف ، ولن تحدث أعمال شغب أو فوضى أمنية تصيب أهله بأذى .

لذلك نجد الرسول قد اهتم فور وصوله إلى المدينة مهاجراً بتنظيم العلاقات في المدينة المنورة عاصمة دولته الناشئة . ومع ذلك فقد هدد اليهود باستمرار مؤخرات جيش المسلمين ، وظهر ذلك بأجلى مظاهره في أثناء غزوة الخندق ، حيث نقض بنو قريظة عهدهم ، فعانى المسلمون من

---

(١) أي قولوا لي كلاماً يخالف ظاهره معناه ، ويدل على موقفهم .

(٢) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ١٦٨ .

الخوف على نسائهم وأولادهم وأموالهم أكثر مما عانوا في مجابهة جيوش الأحزاب.

ولهذا أمر الرسول جنوده بأن لا يضعوا السلاح بعد غزوة الأحزاب قبل القضاء على بني قريظة لتأمين الاستقرار والهدوء في مؤخرات جيوشه مستقبلاً ، فلا تتكرر مأساة خيانة بني قريظة مرة أخرى .

الفصل الثاني

قيادة الرسول (ص) السياسية

﴿ ومن يُؤتَ الحِكمة فقد أوتيَ خَيراً كثيراً﴾[1] .

تمهيد :

ذكرت سابقاً أنه يصعب الفصل بين أعمال الرسول ﷺ بصفته القائد العسكري ، وبين أعماله بصفته القائد السياسي ، ورئيس دولة المسلمين الأولى ، التي أنشأها في الجزيرة العربية ، واتخذ المدينة المنورة عاصمة لها . ومع ذلك سأحاول في هذا الفصل دراسة شخصية الرسول السياسية بالمعنى المتعارف عليه للسياسة[2] وهي « فن حكم المجتمعات الإنسانية »[3] وهي « علم الحكومة ، وفن علاقات الحكم ، وتطلق على مجموعة الشؤون التي تهم الدولة أو الطريقة التي يسلكها الحكام»[4] . وسأوضح أهم مواقفه السياسية ، من خلال الأحداث التي واجهها ، بالإضافة إلى ما ذكرته في أثناء الحديث عن قيادته العسكرية ، لأن الحرب وسيلة لا غاية في حد ذاتها ، ولا يلجأ إليها إلا بعد أن تفشل جميع الوسائل الأخرى.

---

(١) البقرة ، ٢٦٩ .

(٢) السياسة لغة من ساس القوم : دبَّرهم وتولى أمرهم .

(٣) عبد الله : النظم السياسية ، ص ٩.

(٤) كيالي ، وزهيري : الموسوعة السياسية ، ص ٣٢٧.

لهذا السبب ، إن أهم صفات القائد العسكري ، هي في مجملها من الصفات المطلوبة في القائد السياسي ، وبخاصة عندما يتسلم القائد أعلى مركز في الدولة ، أو يقوم بتأسيس دولة .

ولئن كانت القيادة العسكرية عموماً تتطلب صلابة وحزماً ، بينما تتطلب القيادة السياسية حلماً وحنكة ، فإن الجمع بين الصفات اللازمة للقيادتين يمكن أن تتوفر لأشخاص نادرين ، بحيث تتوازن مختلف الصفات لديهم ، فلا تطغى واحدة على أخرى ، وهي ضرورية للقادة الذين يحملون دعوة ، ويؤسسون دولة . ولهذا فإن الله عز وجل وهب الرسول العربي ﷺ أفضل الصفات الضرورية للقيادتين ، حتى حلّق في الناحيتين لدرجة جعلت أحد الكتاب الغربيين المعاصرين يقول عنه بعدما وضعه على رأس قائمة القادة الذين تركوا بصماتهم على التاريخ : « وفوق ذلك ، فإن محمداً ﷺ يختلف عن المسيح بأنه كان زعيماً دُنيوياً فضلاً عن أنه زعيم ديني ، وفي الحقيقة إذا أخذنا بعين الاعتبار القوى الدافعة وراء الفتوحات الإسلامية ، فإن محمداً ﷺ يصبح أعظم قائد سياسي على مدى الأجيال »[١] .

ويختلف محمد ﷺ عن الزعماء السياسيين الآخرين في أنه لم يرث عرشاً ، ولم يغتصب حكماً ، بل أوجد دولة لا وجود سابق لها ، غيرت مجرى التاريخ ، وخلّفت بصماتها على أحداث العالم حتى العصر الحاضر ، وستبقى آثارها حتى قيام الساعة .

ولإبراز الحكمة في سياسته سأوجز أهم أعماله السياسية في ثلاث نواح :

---

(١) هارت ، مايكل : المائة الأوائل ، ص ٢٤ .

١ ـ سياسته في بناء الدولة .

٢ ـ سياسته الداخلية .

٣ ـ سياسته الخارجية .

أما سياسته الاقتصادية والاجتماعية، فلا تدخل في موضوع البحث، وهي بحاجة الى دراسات معمقة ومتخصصة منفصلة .

١ ـ سياسته في إنشاء الدولة

يُعدُّ الأسلوب الذي اتبعه الرسول ﷺ ، من يوم بعثه الله عز وجل ليبلغ رسالته الى البشر ، أنجح أسلوب يمكن أن يتبع ، والدليل على ذلك ما حققه ذلك الأسلوب من نتائج اعترف بها العدو قبل الصديق ، وأرست سياسته قواعد الاستراتيجية الإسلامية العليا[١] الرئيسة التي اتبعها القادة المسلمون فيما بعد على مرّ العصور.

فمن أولى واجبات القيادة السياسية وعي الظروف التي تعيشها ، وإدراكها ، بحيث تستطيع التعامل مع الواقع في سبيل تغييره إلى الأفضل.

والرسول ﷺ لا يبغي ملكاً ، ولا ثروة . إنه يعمل في نشر دعوة جديدة لا أنصار لها ولا أتباع ، وفي تأسيس دولة «عقيدية» تؤمن بمبادىء مخالفة للأعراف والتقاليد السائدة .

والدولة لها أركان ثلاثة هي : شعب (سكان) ، وأرض ، وسلطة سياسية يخضع لها السكان . فالدولة « جماعة من الناس يعيشون بصورة دائمة فوق إقليم جغرافي محدد ، ويخضعون لسلطة سياسية معينة »[٢] .

لهذا بدأ الرسول بالركن الأول ، وهو إعداد المسلمين عقائدياً

---

(١) يقول ليدل هارت ، أشهر كاتب عسكري متأخر : « وما الاستراتيجية العليا سوى السياسة التي تقود سير الحرب ، ويمكن التفرقة بينها وبين السياسة الأساسية التي تحدد هدف الحرب ..ويستخدم تعبير الاستراتيجية العليا لشرح فكرة « السياسة خلال التنفيذ »... إن مدى الاستراتيجية محدود بالحرب ، ولكن الاستراتيجية العليا تنظر إلى ما وراء الحرب ، ونحو السلم الذي سيعقبها ، وليس عليها أن تكتفي بتحقيق التوافق بين مختلف وسائط الحرب فحسب ، إنما عليها أن تنظم استخدامها بغية تلافي ما يؤذي السلم المقبل الذي يجب أن يكون ثابتاً ويحقق حياة أفضل ».
(هارت ، ليدل : الاستراتيجية وتاريخها في العالم ، ص ٤٠٠).

(٢) عبد الله : النظم السياسية ، ص ١٩.

ونفسياً وعسكرياً . فأية دولة لا تقوم على قاعدة شعبية متينة تجعل من المواطنين مجموعة من اللامبالين السلبيين ، وتقتصر بطانته على المنافقين والمنتفعين ، ويقل فيها الصالحون والناصحون . وعندما تواجه الدولة أية مشكلة ينهار النظام ، لأن أعوانه الذين يفترض فيهم أن يفدوه بدمائهم يتخلون عنه ، لأنهم لا يؤمنون به ابتداء .

ولم تكن مهمة محمد ﷺ هينة ، فالبيئة الاجتماعية التي بعث فيها لها مفاهيمها وعاداتها وتقاليدها ، وكان عليه تغيير تلك المفاهيم واستبدالها بمفاهيم الدين الجديد وقيمه وأخلاقه.

« لقد قضى في مكة ثلاث عشرة سنة يقابل الحرب بالسلام ، ويواجه الأعاصير بالسكينة ، والانتقام بالصفح ، والطغيان بالدعوة إلى العدل . ولا يمكن أن نعتبر مواقفه تلك تهرباً من مواجهة أعدائه والمشركين ، ولا استسلاماً لطغيان قريش واعترافاً بسلطانها الجائر ؛ لأنه يعرف أن الاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة اللّه أعلى المراتب التي ينالها المؤمن . ولذلك لم يفكر يوماً بالتخلي عن أداء واجبه ، ولم يدر أبداً في خلده الهروب من المواجهة ، بل على العكس ، كان قائداً حكيماً يجيد فن التوقيت كما يجيد فن الصبر والاحتمال وسياسة النفس الطويل»[1] .

وقد استطاع في خلال هذه المدة تكوين نواة أمته من أبطال يسترخصون الحياة في سبيل اللّه والدين الجديد . ولكنه اقتنع بأن قريشاً لن تسمح له بتحويل مكة الى « قاعدة قوية وأمينة » ينطلق منها لنشر دعوته وتأسيس دولته . فقد أوجد الناس المؤمنين ، رُكن الدولة الأول ، وهو بحاجة إلى الأرض الركن الثاني في كل دولة ، فتطلع إلى مدينة أخرى يتخذها قاعدة . ووقع اختياره على الطائف لأنها أقرب المدن إلى مكة

---

(١) الزين : حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي ، ص ١٠٨ .

قلب الجزيرة وقبلة العرب ، ولأنها تمتاز بموقع استراتيجي ، وأهلها محاربون أشداء ، فقد خرج إليها يدعو قادتها إلى اعتناق الاسلام ، ولكنهم صدوه وآذوه ، وأغروا به صبيانهم فعاد إلى مكة خائباً غير آيس من رحمة اللّه وعونه . ولم يثبط ذلك عزائمه عن دعوة القبائل التي تفد الى مكة لزيارتها وتعظيمها على عادة العرب في الجاهلية . وكان بين الذين التقاهم جماعة من أهل يثرب (المدينة) عددهم اثنا عشر رجلاً ، التقاهم بالعقبة ودعاهم إلى الإسلام ، فاستتجابوا له وآمنوا به ، وبايعوه فيما سمي « بيعة العقبة الأولى »[1] . ولما عادوا إلى المدينة أرسل معهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن ويؤمهم في الصلاة . وفور وصولهم الى المدينة بدؤوا يبشرون قومهم بالدين الجديد ، ويدعون الناس لاعتناقه.

وفي العام التالي قدم ثلاثة وسبعون رجلاً منهم ، وتواعدوا رسول اللّه في العقبة أيضاً ، وكانت بيعة العقبة الثانية . وفيها قال رسول اللّه ﷺ للوفد الذي تألف من سبعين رجلاً : « أبايعكم على أن تمنعوني ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم »[2] فبايعوه على ذلك . وعندئذ شعر الرسول ﷺ بأنه يمكنه أن يتطلع إلى المدينة لتكون قاعدته الأمينة التي ينطلق منها لتحرير الجزيرة العربية من عبادة الطواغيت والأوثان.

ولما أذن اللّه له بالهجرة الى المدينة أدرك بأنه استكمل الركن الثاني من أركان دولته ، وهو الأرض ، وبقي عليه إيجاد نوع من التنظيم ، والسلطة السياسية التي يجب أن يخضع لها جميع السكان لاستكمال عناصر الدولة جميعها . وفي سبيل ذلك كان أول ما قام به الرسول ﷺ ، بعد تحصين جبهته الداخلية وتنظيم صفوف أتباعه بالمؤاخاة بين

---

(١) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ٨٧.

(٢) ابن هشام : م . س ، ص ٨٩.

المهاجرين والأنصار ، أن وضع مع بقية سكان المدينة معاهدة نظَّم فيها العلاقات بين عناصر المجتمع الجديد المختلفة ، الذي كان عليه أن يعمل فيه ، فوضع معهم معاهدة سميت « الصحيفة » آثرنا أن نذكرها كاملة لأنها تمثل الدستور المؤقت للدولة الإسلامية الأولى .

نص الصحيفة[١] :

« بسم اللَّه الرحمن الرحيم :

(١) هذا كتاب من محمد النبي (رسول اللَّه) بين المؤمنين والمسلمين من قريش و (أهل) يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم .

(٢) أنهم أمّة واحدة من دون الناس .

(٣) المهاجرون من قريش على ربعتهم[٢] يتعاقلون[٣] بينهم وهم يفدون عانيهم[٤] بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٤) وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٥) وبنو الحارث (بن الخزرج) على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين .

(٦) وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٧) وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١) عن حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص ٥٩ .

(٢) أي على حالهم الذي كانوا عليه (لسان العرب) .

(٣) أي يدفعون الديات كما كان الحال قبل الإسلام ويأخذونها .

(٤) العاني : الأسير .

(٨) وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٠) وبنو النَّبِيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٢) وأنّ المؤمنين لا يتركون مُفرحاً[١] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل[٢] .

(١٢ ب) وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

(١٣) وأن المؤمنين المتقين « أيديهم » على « كل » من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة[٣] ظلم ، أو إثماً ، أو عدواناً ، أو فساداً بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

(١٤) ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

(١٥) وأنّ ذمّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأنّ المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس .

(١٦) وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصرَ والأسوةَ غير مظلومين ولا متناصر عليهم .

(١٧) وأنّ سِلم المؤمنين واحدةٌ ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، إلا على سواء وعدل بينهم .

---

(١) أي مثقلاً بالدين .

(٢) العقل : الدية .

(٣) أي : طلب دفعاً على سبيل الظلم ، أو طلب عطية على وجه ظلم ، أي كونهم مظلومين (لسان العرب) .

(١٨) وأنّ كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً[١] .

(١٩) وأن المؤمنين يبيء[٢] بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

(٢٠) وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه .

(٢٠ ب) وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

(٢١) وأنه من اعتبط[٣] مؤمناً قتلاً عن بيّنة فإنه قوَد[٤] به ، إلا أن يرضى ولي المقتول « بالعقل »[٥] وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

(٢٢) وأنه لا يحل لمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر مُحدثاً[٦] أو يؤويه ، وأن من نصره ، أو آواه ، فإنّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صَرف ولا عدل[٧] .

(٢٣) وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فإنّ مرده إلى الله وإلى محمد .

(٢٤) وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٢٥) وأنّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتِـغ[٨] إلا نفسه وأهل بيته .

(٢٦) وأنّ ليهود بني النّجار مثل ما ليهود بني عوف .

(٢٧) وأنّ ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف .

---

(١) أي يتناوبون .
(٢) أي يتعادلون .
(٣) أي قتله بلا جناية توجب قتله .
(٤) القود : قتل النفس بالنفس .
(٥) أي بالدية .
(٦) أي مرتكب جناية .
(٧) الصرف : التوبة ، والعدل : الفداء .
(٨) أي يهلك .

(٢٨) وأنّ ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف .
(٢٩) وأنّ ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف .
(٣٠) وأنّ ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف .
(٣١) وأنّ ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، إلا من ظَلَم وأثِمَ ، فإنّه لا يوتِغ إلا نفسه وأهل بيته .
(٣٢) وأنّ جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .
(٣٣) وأنّ لبني الشُّطَيْبَة مثل ما ليهود بني عوف ، وأنّ البرّ دون الإثم .
(٣٤) وأنّ موالي ثعلبة كأنفسهم .
(٣٥) وأنّ بطانة يهود[1] كأنفسهم .
(٣٦) وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد .
(٣٦ ب) وأنه لا ينحجز على ثأر جرح ، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبرّ هذا .
(٣٧) وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم .
(٣٧ ب) وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه ، وأن النصر للمظلوم .
(٣٨) وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
(٣٩) وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .
(٤٠) وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم .
(٤١) وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها .
(٤٢) وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث ، أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره .
(٤٣) وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

---

(١) أي اليهود من خارج المدينة .

(٤٤) وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .

(٤٥) وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإنه لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .

(٤٥ ب) على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم .

(٤٦) وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة ، وأن البرّ دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرّه .

(٤٧) وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وأن الله جار لمن برًّ واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ .

ونلاحظ من هذا النص أن الصحيفة تضمنت مبادىء عامة ، درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها . وفي طليعة هذه المبادىء ، ولعله أهمها ، تكوين الأمة وتعريفها ، وبيان الحقوق والواجبات المترتبة لفئاتها وعليها . وهذا شيء جديد كل الجدة في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب . إذ نقل الرسول قومه من شعار القبيلة والتبعية لها ، إلى شعار الأمة ، التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد ، فلقد قالت الصحيفة عنهم أنهم : (أمة واحدة)»[1] .

إذن نستطيع أن نقول : أن الرسول ﷺ استكمل في هذه الصحيفة أركان دولته . فقد أصبح لديه أناس مؤمنون برسالته ، وأرض يقيم عليها أولئك الناس ، ويخضعون لسلطة سياسية واحدة هو رئيسها والمرجع الأعلى فيها .

(١) القاسمي : نظام الحكم ـ الحياة الدستورية ، ص ٣٢ ـ ٣٧ .

٢ ـ سياسته الداخلية

لا نستطيع أن ندعي أن الدولة التي أقامها الرسول ﷺ في المدينة هي دولة مكتملة العناصر بأجهزتها الحكومية والإدارية بالمفهوم المعاصر ، ولكنها كانت دولة تفي بحاجات المجتمع في ذلك العصر ، خضعت إلى التطور باستمرار حتى تفوقت على جميع الدول التي عاصرتها في جميع الميادين .

وقد واجه الرسول ﷺ عقبات كثيرة من يوم وطئت قدماه المدينة ؛ فقد كان الأوس والخزرج يتأهبون قبيل دخولهم في الإسلام لتتويج عبد الله بن أبيّ بن سلول ملكاً عليهم . وبدخولهم في الإسلام فَقدَ ابن سلول أيّة إمكانية لتزعم المدينة ، فشكل مع مجموعة من المنافقين معارضة داخلية ، وكانوا نقطة ضعف في المجتمع الجديد ، حتى أنهم شكلوا ثلث جيش المسلمين الذي خرج إلى غزوة أحد كما مر معنا ، وتخلوا عن ذلك الجيش وهو في طريقه إلى المعركة .

كذلك كان بين السكان عدد كبير من اليهود ، استمروا في خلق الفتن وافتعال الاضطرابات حتى أجلوا عن المدينة نهائياً .

حسن التصرف :

كذلك فإن المسلمين أنفسهم تألفوا من مهاجرين وأنصار ، ومع أن المؤاخاة بينهم قضت إلى حد كبير على أية إمكانية للخلاف والاختلاف ، فإن وجود المنافقين بين صفوفهم ، ومقدرتهم على تضخيم الأمور الصغيرة وإشعال نار الفتنة ، بالإضافة إلى قرب العهد بالجاهلية ، كان يؤدي إلى وقوع حوادث وفتن كثيرة ، وكان الرسول في كل مرة ، بسياسته الحكيمة وحسن تصرفه ، يستطيع أن يقضي على الفتنة في مهدها ، بل ويوظفها في مصلحة المسلمين وتعزيز اللحمة بينهم .

وحسن التصرف هو نصف السياسة ، ويتجلى أكثر ما يتجلى في السياسة الداخلية ، وهو الذي أمَّن الاستقرار الداخلي للدولة الناشئة .

مع أبي سفيان :

ولعل تصرف الرسول ﷺ مع أبي سفيان ، أكبر أعدائه قبل إسلامه ، يعطي فكرة واضحة عن تصرفاته الحكيمة . فهو قد حبسه يوم فتح مكة في مكان بحيث تمر جميع قوات المسلمين أمامه ، حتى لا يدور في خلده أي تفكير في المقاومة . وبما أنه يعرفه مُحباً للرياسة والزعامة ، جعل (من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن) كمن يدخل الحرم الشريف أو يبقى في بيته . وهذا ما جعل أبا سفيان يخرج في جيش المسلمين مقاتلاً ، بعد ما كان قائد قوات المشركين ، ويحضر غزوة حنين وهو حديث عهد في الإسلام ، لم يدخل الإيمان قلبه . وعند تقسيم الغنائم جاء أبو سفيان والأموال بين يدي رسول الله ﷺ فقال : « يا رسول الله ، أصبحت أكثر قريش مالاً ! فتبسم رسول الله ﷺ . وقال : أعطني من هذا المال يا رسول الله ! قال : يا بلال ، زِن لأبي سفيان أربعين أوقية ، وأعطوه مائة من الإبل . . . قال أبو سفيان : إنك الكريم ، فداك أبي وأمي ! ولقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت »[1] وهذا مثل من أمثال كثيرة تحول فيها العدو إلى صديق ، ثم إلى محب .

مع سعد بن عبادة :

وعندما بلغ الرسول ، يوم فتح مكة ، قول سعد بن عبادة ، قائد قوات الأنصار المتقدمة نحو مكة لدخولها من الجهة الغربية « اليوم يوم الملحمة » أخذ منه الراية ليتحاشى تهور سعد ، ومعركة هو في غنى

---

(١) الواقدي : المغازي ، ج ٣ ص ٩٤٤ـ ٩٤٥ .

عنها . ولكن حسن التصرف بـدا جلياً في تسليم الـراية لابنـه قيس بن سعد . وبهذا التصرف الحكيم حال دون تهور سعد ، وفي الوقت ذاته لم يُثـره ، ولا أثار الأنصـار . فهو لم يـأخذ الـراية من أنصـاري ويسلمهـا لمهاجر ، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه . ومن طبيعة البشر أن لا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه .

مع ابن سلول :

وفي أثناء غزوة بني المصطلق ، وبينما جيش المسلمين على نبع ماء يقال له « المريسيع » تزاحم أجير لعمر بن الخطاب اسمه « جهجاه » وأحد الأنصار . فصرخ الأنصاري : يا معشر الأنصار . وصرخ جهجاه : يـا معشـر المهـاجـرين. فغضب عبـد اللّٰه بن أبي بن سلول ، رأس المنافقين ، وقال : « أوَفعلوها قد نافرونا وكاثرونا في بـلادنا ، والله مـا أعدُّنا وجلابيب[1] قريش إلا كما قال الأوَل : سَمِّن كلبك يأكلك ! أمـا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُ منها الأذلَّ »[2] .

وكان بين الحضور الذين سمعوا الكلام غلام اسمه زيد بن أرقم، فأخبر الرسول ﷺ بما سمع . وكان عنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر عبَّاد بن بشر فليقتله ، فقال رسول الله تلك الجملة المأثورة التي يجب أن يحفظها كل قائد ويضعها نصب عينيه ، قال : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ! ولكن أذِّن بالرحيل » . ولم تكن الساعة ساعة رحيل ، كانت شمس الجزيرة اللافحة تلهب الجيش ، ومع ذلك سار النهار وأتبعه بالليل ، فشُغِل الناس بأنفسهم ، وأنهكهم التعب ، فلما أناخوا ، ناموا ، ولم يسمح لهم وضعهم الجسدي بالعودة إلى الحديث بالموضوع .

---

(١) الجلابيب : الأزر الغلاظ ، وكانوا يلتحفون بها ، فلقب المشركون من أسلم منهم بها .
(٢) ابن هشام : مختصر السيرة ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

لم يحاسب ابن أبيّ ابن سلول ، وقبل اعتذاره ، رغم تأكـده من كذبه الذي أكده القرآن الكريم ، لأنه كان صاحب مكانة مرموقة في المدينة ، وله أتباع وأنصار ، ويمكنه أن يحدث فتنة تزعزع الاستقرار في المدينة . ففضل الرسول ﷺ اتباع أسلوب الملاطفة معه والملاينة ، والتغاضي عن الأخطاء والهفوات ، وبذلك يبقيه معزولاً في المجتمع ، لا يستطيع أن يثير أي عطف .

« قد يقول البعض : إن الحفاظ على الاستقرار الداخلي بهذا الأسلوب ضعف في الدولة ، وكان على رسول الله ﷺ أن يقطع رأس الأفعى لا أن يلمس جلدها ، ولكن سياسة رسول الله ﷺ مختلفة ، ونظرته إلى الأمور أبعد ، إنه ينظر إلى أن قطع رأس الأفعى التي لها فراخ يولد الكره له في فراخها ، وهو عليه الصلاة والسلام يريد أن يسوس شعب دولته بالحب لا بالسيف ، فحيثما أمكن نثر بذور الحب امتنع استعمال السيف ، وهذا ما جعل شعب دولة الإسلام متفانياً في الدفاع عن رسول الله ﷺ وعن دولته »[1] .

---

(١) قلعه جي : دراسة تحليلية ، ص ٢١٣ .

٣ ـ سياسته الخارجية

لا بد لأي دولة في العالم من التعاطي مع الدول المجاورة ، وبالتالي فإن العلاقات بينها وبينهم تتنوع من التعاون وحسن الجوار والخصومة أو الحرب . وبما أن الرسول ﷺ كان يحمل رسالة عليه أن يؤديها إلى الناس كافة ، فقد كان عليه أن يحيط بما يجري في الدول المجاورة ، ويتعرف أخبارها ، ويدعوها إلى الإيمان بالله ، كما دعا قريشاً وغيرها من القبائل العربية .

وفي المراحل الأولى من الدعوة ، كانت السياسةالخارجية تقتصر على التعامل مع قريش وغيرها من القبائل العربية ، ولكنها بعد بسط سيادة الدولة الإسلامية على الجزيرة العربية انتقل التعامل إلى الدول المجاورة ومنها فارس والروم ، الدولتان العظميان في ذلك الزمن .

وفي السياسة الخارجية تظهر أهمية صفة « بُعد النظر » وحسن الاختيار بين السلم والحرب . فكم من قائد دمره غروره ، وقصر نظره ، وسوء تقديره للأمور . وكم من قائد يمضي الأيام ويصرف الأموال في تصحيح أخطائه السابقة . أما الرسول ﷺ فقد أثبتت الأيام صحة قراراته كلها ، وبعد نظره ، وقدرته الفائقة على كسب الأصدقاء ، وعزل الأعداء .

في الحديبية :

« ففي عهد الحديبية تجلى تدبير محمد ﷺ في سياسة خصومه ، وسياسة أتباعه ، وفي الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان ، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود .

بدأ بالدعوة إلى الحج ، فلم يقصره في تلك السنة على المسلمين

المصدقين لرسالته . . بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التي تشارك المسلمين في تعظيم البيت والسعي إليه ، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة في وجه قريش ، ومصلحة واحدة في وجه مصلحتها ، وفصل بذلك بين دعواها ودعوى القبائل الأخرى . ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والرسالة الإسلامية . فليس محمد وأصحابه أناساً معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها ، ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم ، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم[1] » .

وعند توقيع عهد الصلح « صلح الحديبية » لم يدرك الصحابة أهميته ولكن بُعدَ نظر الرسول جعله يرى ما لا يرون ، ويُدركُ ما لا يدركون . وبعد مدة ليست بالطويلة بدأت نتائج ذلك الصلح الميمون تظهر للعيان كما مر معنا ، وأدرك الصحابة خطأهم ، وعلى رأسهم عمر ابن الخطاب الذي بقي يلوم نفسه على معارضته في ذلك اليوم إلى أن توفاه الله تعالى .

« قال أبو سعيد الخدري : جلست عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً ، فذكر القضية فقال : لقد دخلني يومئذٍ من الشك ، وراجعت النبي ﷺ يومئذٍ مراجعة ما راجعته مثلها قطّ . ولقد عتقت فيما دخلني يومئذ رقاباً ، وصمت دهراً ، وإني لأذكر ما صنعت خالياً فيكون أكبر همي ، ثم جعل الله عاقبة القضية خيراً ، فينبغي للعباد أن يتهموا الرأي . والله لقد دخلني يومئذ من الشك حتى قلت في نفسي : لو كنا مائة رجل على مثل رأيي ما دخلنا فيه أبداً . فلما وقعت القضية أسلم في الهدنة[2]

---

(١) العقاد ، الموسوعة ، ج ٢ ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) راجع ص ٨٩ من هذا الكتاب لمعرفة الفرق بين الهدنة والصلح .

أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله ﷺ إلى يوم الحديبية ، وما كان في الإسلام فتح أعظم من الحديبية »[1] .

استمالة مالك بن عوف :

وبعد تقسيم الغنائم في الجعرانة ، قدم على النبي ﷺ وفد هوازن مسلمين ، فأعاد إليهم نساءهم وأولادهم ، وسألهم : « ما فعل مالك ؟ »[2] قالوا : يا رسول الله ، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف ، [في حين هو أمير هوازن] قال رسول الله ﷺ : « أخبروه أنه إن كان يأتي مسلماً رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل » . وكان رسول الله ﷺ أمر بحبس أهل مالك بمكة عند عمتهم ، أم عبد الله بنت أبي أمية[3] وأوقف تقسيم أموال مالك . . . فلما علم مالك أن ماله موقوف لم يوزع ، وأن أهله مكرمون عند عمتهم ، قرر القدوم على الرسول ﷺ والدخول في الإسلام .

وخاف على نفسه ثقيفاً إن هم عرفوا بقراره ، أو علموا بمقصده ، فرتب هربه من ثقيف بأن وضع بعيراً خارج الطائف في مكان اسمه «دحنا»، وهرب ليلاً على فرسه حتى وصل ذلك المكان . فامتطى راحلته وأسرع بها حتى لحق بالرسول ﷺ فرد عليه أهله وماله ، وعينه قائداً على من أسلم من قومه ، ومن القبائل التي كانت تقيم حول الطائف ، وعقد له لواء ، فكان يقاتل بمن أسلم معه أهل الشرك ، ويغير بهم على ثقيف ،

---

(١) الواقدي ، المغازي ، ج ٢ ص ٦٠٧ .

(٢) أي مالك بن عوف النصري ، قائد تحالف ثقيف وهوازن في غزوة حنين ، الذي أوقع خسائر جسيمة في جيش المسلمين ، والذي هرب إلى الطائف كما ذكرت في موقعه من غزوة حنين .

(٣) الواقدي : المغازي ، ج ٣ ص ٩٥٥ .

حتى حصر أهل الطائف فيها ، فلا يخرج لهم قطيع إلا استولى عليه ، ولا تمكن من رجل منهم إلا قتله .

وهكذا فقد استطاع الرسول ﷺ ببعد نظره ، وخبرته بالرجال ، تحويل عدوه إلى تابع له ، يؤدي أفضل الخدمات للإسلام والمسلمين . لقد عرف حرص مالك على أهله وأمواله ، وحبه للزعامة والقيادة ، فأعاد إليه أهله وأمواله ، وزاده من مال الله الذي بين يديه ، واستعمله على المسلمين من قبيلته فحبب إليه الإسلام ، ورغبه فيه .

وقد يتطرق إلى الذهن أن الرسول اشتراه بالمال ، بالمعنى المعاصر ، وأنه لم يسلم عن إيمان ، بل أسلم خوفاً على أهله وطمعاً في المال . وهذا صحيح إلى حد كبير . ولكن ما الخسارة في ذلك ؟ بل ولنفرضه يظهر الإسلام ، ويبطن الشرك ، فهو عدو يقاتل عدواً ، ففي ذلك كسب للمسلمين ، وهذا نوع من السياسة الحكيمة لا مانع من اللجوء إليها عند الضرورة ، كما فعل الرسول ﷺ .

الاتصالات الخارجية :

الأنبياء عموماً رجال إعلام واتصالات داخلية وخارجية لأن الدعوة تتطلب الاتصال بالناس لتبليغهم الدعوة . وبما أن معظم « الناس على دين ملوكهم » ، فقد كان الرسول ﷺ يتصل برؤساء القبائل ويدعوهم إلى الإسلام ، كما كان يرسل الوفود والمندوبين الشخصيين لإبلاغ رسائله الشفوية والخطية .

ومن أوائل رسائله المكتوبة ما ذكرته كتب السيرة من مراسلاته مع « النجاشي » ملك الحبشة . ويلاحظ من نص إحدى رسائله ديبلوماسيته وحكمته ، وخبرته بمن يراسله ، وحنكته في تحريك عواطفه الدينية :

يقول في رسالته إلى النجاشي :[1]

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله ، إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سِلم أنت ، فإني أحمد الله إليك ، الله ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول ، الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى ، فخلقه الله من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه . . . ألخ » .

فالرسول تعمد الحديث عن عيسى وعظَّمه وأثنى عليه بما لا يخالف الإسلام ، ويسر النجاشي ، وهذه هي السياسة الحكيمة . وقد أدت إلى إكرام النجاشي للمسلمين الذين هاجروا إلى بلده ، وكانت بينه وبين الرسول ﷺ مكاتبات ومراسلات . وتؤكد بعض الروايات أنه كتب إلى الرسول ﷺ معلناً إسلامه .

وبعدما استكمل الرسول ﷺ بناء دولته في المدينة أرسل الوفود والمبعوثين يحملون رسائله ودعوته إلى الإسلام ، إلى هرقل عظيم الروم[2] ، وإلى أسقف الروم في القسطنطينية ، وأسقف أيلة . وكاتب ملوك العرب[3] والمقوقس عظيم القبط[4] في مصر ، وكسرى الفرس[5] ، وكان يختم رسائله بخاتم كتب عليه من الأسفل إلى الأعلى « محمد رسول الله » ، ليعطيها الصفة الرسمية كما هو حاصل في هذه الأيام .

ويلاحظ في سياسته الخارجية أن الحرب آخر ما كان يفكر فيه ، فهو

---

(١) حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ، ص ١٠٠ .
(٢) حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ١٠٧ .
(٣) حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ١٢٨/١٥٩/١٦١ .
(٤) حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ١٣٥ .
(٥) حميد الله : مجموعة الوثائق ، ص ١٤٠ .

يدعو الناس إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويركز على حكام الدول وقادة القبائل لأن الناس تبع لزعمائهم في معظم شؤونهم ، فإن لم يذعن أولئك القادة والزعماء فعليهم أن يسمحوا لشعوبهم باعتناق الدين الـذي تطيب به نفوسهم واختيار النظام الذي يرتضونه لأنفسهم ، فإن لم يستجب أولئك الحكام ، أمكن إعلان الحرب عليهم ، وفتح بلادهم ، وفرض النظام الذي لا يظلم فيه مخلوق ، والذي يعتبر الخلق عيال الله ، وأحب الناس إليه أنفعهم لعياله ، كما يترك للناس حرية اختيار الدين الذي يـريدونـه دون ظلم أو إكراه ﴿ **لا إكـراهَ في الدِّين قـد تبيَّنَ الرُشـدُ من الغَيّ** ﴾[1] .

« وقصد النبي بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التي تأبى العقائد الجديدة . وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هي التي كانت تحول دون الـدعوة المحمـدية ، وليست أفكـار مفكرين ولا مذاهب حكمـاء ، لأن امتناع المقـاومة من هؤلاء العـظماء والملوك كانت تمنع العوائق التي تصد الدعوة الإسلامية ، فيمتنع القتال .

ومن التجارب التي دل عليها التـاريخ الحـديث ، كما دلّ عليهـا التاريخ القديم ، أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الإنقـلاب . . ومن تلك التجارب تجـربة فـرنسا في القـرن المـاضي . وتجربة روسيا في القرن الحاضر . . . وتجارب سائر الدعاة . . . في سائر البلاد . فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة . . ولا بد من التمييز بين العملين ، لأنهما جدّ مختلفين »[2] .

وقد مارس الرسول ﷺ السياسة بمفاهيم مثالية قد لا يستوعبها الناس

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

(٢) العقاد : م . س ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .

في هذا العصر ، مع أنه عاش الواقع ، ومارس «.فن الممكن » فتحالف مع مشركين في حلفه مع خزاعة ، وتعاقد مع يهود في الصحيفة ، فلم ينقض عهداً ، ولم يغدر بعدو ، ولم يتخلَّ عن صديق .

بقي أن أشير إلى أنه من الصفات الضرورية للقائد السياسي الناجح أن يكون فصيح اللسان ، جميل النطق ، يدخل إلى قلوب مخاطبيه ، ويقنعهم بأفكاره بأوجز عبارة .

« أما محمد ﷺ فقد كان جمال فصاحته في نطقه كجمال فصاحته في كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضي الله عنها حيث قالت : ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هـذا ، ولكن كان يتكلم بكـلام بيِّن فصل ، يحفظه من جلس إليه .

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها . . فهو صاحب كـلام سليم في منطق سليم »[١] .

وهو يقول عن نفسه أنه أوتي جوامع الكلم ، ولـذلك نـراه يطلق الشعارات كما هي الحال في العصر الحاضر ، ولكنها شعارات رائعة ، كل شعار يختصر موسوعة في علم الاجتماع ، أو السياسـة ، أو غيرهـا مثـل : « إنمـا الأعمـال بـالنيـات وإنمـا لكـل امـرىء مـا نـوى »[٢] .

« بُعِثتُ لأتممَ مكارم الأخلاق »[٣] و « لا ضَرر ولا ضرار »[٤]

(١) العقاد : الموسوعة ، ج ٢ ص ٣٦ .
(٢) البخاري ، المختصر ، ص ٢١ ، الحديث ١ .
(٣) مالك ، الموطأ ، ص ٦٥١ ، الحديث ١٦٣٤ .
(٤) مالك ، م . س . ص ٦٥١ ، الحديث ١٦٣٦ .

و « الظُّلمُ ظُلماتٌ يوم القيامة »[1] و « الدين النصيحة »[2] .

وبقيت تلك الشعارات منارات للبشر كافة ، تنير لهم الطريق عبر العصور .

---

(1) البخاري ، المختصر ، ص ٢٤٤ ، الحديث ١١١٧ .
(2) البخاري ، المختصر ، ص ٣٦ ، الحديث ٥٣ .

الفصل الثالث

معايير القيادة الإسلامية

﴿ وإذا حَكمتُم بينَ الناسِ أن تحكموا بالعدل ﴾[1] .

تمهيد :

لقد قام رسول الله ﷺ بنفسه بتأسيس دولة المسلمين الأولى « أما خطوات قيام هذه الدولة ، ومتى جاء إذن الله سبحانه وتعالى بقيامها ، فيكاد يجمع علماء المسلمين وفقهاؤهم على أن بيعتي العقبة الأولى والثانية تمثلان بداية إنشاء الدولة الإسلامية»[2] وعلى ذلك نستطيع أن نقول: إن الدولة الإسلامية تأسست بأمر رباني، لا بقرار دولي، ولا ببلاغ عسكري . وبما أن محمد بن عبد الله ﷺ هو خاتم أنبياء الله إلى أهل الأرض ، فإن الدنيا لن تشهد قيام دولة مثالية أخرى بالطريقة ذاتها وبنبي جديد ، بل كأني بالبشرية بلغت في عهد محمد ﷺ درجة من النضج والرشد تؤهلها لوضع الطرق العملية لحكم نفسها بنفسها ضمن مبادىء الإسلام ، الشريعة التي اختارها الله عزّ وجلّ لأهل الأرض جميعاً .

وكان انتقال رئاسة الدولة « الخلافة » إلى أبي بكر الصديق ، خليفة

(١) النساء ، ٥٨ .

(٢) عبد الله : النظم السياسية ، ص ٨٦ .

رسول الله ﷺ الأول ، بترشيح أهل الحل والعقد ، الذين هم وجهاء المسلمين وأعيانهم في ذلك الزمان ، ومبايعتهم له ، ثم بمبايعة المسلمين أجمعين . بينما انتقلت الرئاسة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعهد من الخليفة الأول أبي بكر إليه بعد مشاورة أهل الحل والعقد ، وهو ، أي عمر ، عَهِدَ بعد الاستشارات ذاتها قبيل وفاته إلى لجنة لتختار من بين أعضائها خليفة . واغتيل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، فانتخب المسلمون علي بن أبي طالب خليفة .

وفي قول الله عزّ وجلّ واصفاً المسلمين : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[1] ورفضه الصريح الواضح للوراثة على إطلاقها في القيادة بقوله عزّ وجلّ : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهديْ الظالمين** ﴾[2] . فابن القائد إن لم تؤهله صفاته للقيادة فلا حق له في منصب القيادة بعد أبيه ، هذا بالإضافة إلى عدم تعيين الرسول ﷺ خليفة له . وأساليب اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة ، دلائل على أن الطريق الشرعي للوصول إلى منصب رئاسة الدولة هو « البيعة » التي هي عقد ثنائي بين الخليفة والأمة ، تبايع الأمة بموجبها ، وبمحض إرادتها أكثر الناس ملائمة لهذا المنصب وتوكل إليه رئاستها ، ويمكن أن يكون الاختيار مباشرة من قبل الأمة ، أو من يمثلها من أهل الحل والعقد .

يقول القاسمي :[3]

« البيعة في الاصطلاح السياسي ، وكما طبقت في أيام الخلفاء

---

(١) الشورى : ٣٨ .

(٢) البقرة : ١٢٤ .

(٣) القاسمي : نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، الحياة الدستورية ، ص ٢٧٤ .

الراشدين عقد ثنائي الطرف ، الخليفة طرفه الأول ، والأمة طرفه الثاني ، ولا بد فيها من تحقق شروط أصلية حتى تكون مشروعة . وإنما نريد من لفظ « مشروعة » أنها منطبقة على أحكام الشريعة بالمفهوم الـذي أراده فقهاء الحقوق الدستورية في الإسلام ، كما نريد من هذا اللفظ ما يراد منه في هذه الأيام من حيث انطباقه على صحة التمثيل .

وأول الشروط هو التزام الخليفة بأحكام الكتاب والسنة . . .

وثانيها : أن تتوفر الحرية الكاملة للأمة في البيعة » .

ولا تقتصر القيادة ، ولا المسؤولية على رئاسة الدولـة . فرئـاسة الدولة هي قمة الهرم في السلطة ، وتتدرج تحتها قيادات كثيرة . لذلك ، ولاستكمال البحث سأبين الصفات والشروط الواجب توافرها في الرئيس الأعلى « الخليفة » ، بغض النظر عن تسميته خليفة أو أميراً أو رئيساً ، لأن الانتخاب هو الأصل في وصول « رأس الدولة » إلى منصبه . وكما أن المنصب مسؤولية وأمانة ، كذلك فإن الانتخاب مسؤولية وأمانة . وبما أن على النـاخب أن يختار الأفضـل والأكفأ فيجب عليه معـرفـة الصفـات الضرورية في الرئيس ، والتي يخضع بعضها للتغيير بحسب المرحلة التي تمر فيها الأمة ، كما يستطيع بهذه المعرفة التمييز بين القـائد الكفء ، والقائد المزيف .

ثم سأبين الموازين التي يجب على رئيس الدولة ومن بيده التعيين في المنـاصب المختلفة أن يعتمـدها في اختيـار الأشخاص المنـاسبين للوظائف المختلفة .

توجيه من القرآن الكريم :

وفي القرآن الكريم توجيه وإشارة إلى الصفات القيادية ﴿ **وقالَ لهم نَبِيُّهُم إنَّ اللهَ قد بعثَ لكم طالوتَ ملكاً ، قَالوا أنَّى يكونُ لهُ المُلك علينا**

ونَحْنُ أحقُّ بالمُلكِ منه ولم يُؤتَ سَعَةً منَ المالِ قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزَادَه بَسطةً في العلمِ والجِسم واللهُ يُؤتي مُلكهُ من يَشاءُ والله واسعٌ عليم ﴾[1] .

والمقصود في هذه الآية ، بنو إسرائيل الذين كانوا يمرون بمرحلة قتال ، فاقتضت المرحلة أن يكون القائد كما تحدد الآية متصفاً بصفتين جامعتين .

الصفة الأولى : سعة العلم والإطلاع ، وهي نتيجة طبيعية لكمال العقل .

الصفة الثانية : سلامة الجسم وقوته ، ولا يخفى ما ينتج عن ذلك من شجاعة ومقدرة على القتال وإمكانات متعددة .

فالإنسان جسم وعقل وروح . وصحة الجسم مع كمال العقل ينتج عنهما جميع الصفات والشروط اللازمة للقائد ، والتي توسع الفقهاء في شرحها .

وفي آية أخرى ، في قصة موسى ، تقول الآية الكريمة ، على لسان ابنة شعيب تنصح أباها باستئجار موسى وترغبه فيه ﴿ **إن خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمين** ﴾[2] . ولم يكن المطلوب من موسى سوى إدارة أملاك شعيب ورعايتها ، وهي لا تزيد عن أراض زراعية ومواشٍ . فالمهمة هنا تحتاج إلى القوة كي يستطيع تحمل أعباء الزراعة والرعي ، والأمانة كي يحافظ على الأموال التي سيتولى رعايتها فلا يبددها ، ولا يخون الأمانة فيها .

---

(١) البقرة ، ٢٤٧ .

(٢) القصص ، ٢٦ .

موازين الفقهاء :

وضع الفقهاء شروطاً يجب توافرها في الخليفة ، ربما لم تنطبق على كثير من الذين تسلموا « رئاسات » دول المسلمين ، بغض النظر عما سموا به أنفسهم أو سماهم به الناس ، ولكنها تُعَدُّ في نظري ، الشروط الدنيا الواجب توافرها في القائد الذي يستطيع أن ينهض بالمسلمين ليحتلوا المكان الخليق بهم بين أمم الأرض .

وقد « اتفق الفقهاء على أن الشروط التي لا بد من توافرها في كل خليفة هي : الحرية ، الذكورة ، البلوغ ، سلامة العقل ، سلامة البدن ونسميها الشروط الأصلية .

واستوجب بعض الفقهاء أربعة شروط أخرى وهي : العلم ، النزاهة ، الشجاعة ، الرأي . ونسميها الشروط الكمالية .

وكثر اختلاف الأمة وانقسمت فرقاً في شرط أخير هو النسب »[1] .

و « لم يحدد الفقهاء للخلافة سناً معينة ، وإنما جعلوا البلوغ حداً أدنى لها ، وبذلك تركوا تقدير هذا الأمر للناخبين وللظروف ، فقد تدعو الظروف إلى تفضيل الشاب الشجاع على الشيخ المتردد[2] .

رأي الماوردي [3] :

« وأما أهل الإمامة فالشروط المعتبرة فيهم سبعة : أحدها : العدالة على شروطها الجامعة ، والثاني : العلم المؤدي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام ، والثالث : سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصح

---

(١) العجلاني : عبقرية الإسلام في أصول الحكم ، ص ٧٠ .

(٢) العجلاني : م . س ، ص ٧٢ .

(٣) عن ايبش ، نصوص من الفكر الإسلامي (الإمامة عند السنة ص ١٤٩ . الماوردي : الأحكام السلطانية .

معها مباشرة ما يدرك بها ، والرابع : سلامة الأعضاء من نقص يمنع من استيفاء الحركة وسرعة النهوض ، والخامس : الرأي المفضي إلى سياسة الرعية وتدبير المصالح ، والسادس : الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو . والسابع : النسب ، وهو أن يكون من قريش لورود النص فيه والإجماع عليه » .

رأي الفـراء[1] :

« وأما أهل الإمامة فيعتبر فيهم أربعة شروط :

أحدها : أن يكون قرشياً من الصميم .

الثاني : أن يكون على صفة من يصلح أن يكون قاضياً من : الحرية ، والبلوغ ، والعقل ، والعلم ، والعدالة .

الثالث : أن يكون قيّماً بأمر الحرب والسياسة وإقامة الحدود ، لا تلحقه رأفة في ذلك . والذب[2] عن الأمة .

الرابع : أن يكون من أفضلهم في العلم والدين » .

« وإذا اجتمع أهل الحل والعقد على الاختيار تصفحوا أحوال أهل الإمامة الموجود فيهم شروطها ، فقدموا للبيعة منهم أكثرهم فضلاً ، وأكملهم شروطاً . فإذا تعين لهم من بين الجماعة من أداهم الاجتهاد إلى اختياره وعرضوها عليه . فإن أجاب إليها بايعوه عليها ، وانعقدت له الإمامة ببيعتهم ، ولزم كافة الأمة الدخول في بيعته والانقياد لطاعته . وإن امتنع من الإمامة ولم يجب إليها لم يجبر عليها ، وعدل إلى سواه من مستحقيها فبويع عليها »[3] .

---

(١) الفراء : الأحكام السلطانية ، ص ٤ .

(٢) أي الدفاع .

(٣) الفراء : م . س ، ص ٨ .

رأي ابن خلدون[1] :

«وأما شروط هذا المنصب فهي أربعة : العلم ، والعدالة ، والكفاية ، وسلامة الحواس والأعضاء ، مما يؤثر في الرأي والعمل . واختلف في شرط خامس وهو : النسب القرشي» .

ولابن خلدون رأي في شرط النسب، ، يقول : «ولنتكلم الآن في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب ، فنقول : إن الأحكام الشرعية كلها لا بد لها من مقاصد وحكم تشتمل عليها ، وتشرع لأجلها . ونحن إذا بحثنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصد الشارع منه ، لم يقتصر فيه على التبرك بوصلة النبي ﷺ كما هو المشهور ، وإن كانت تلك الوصلة موجودة ، والتبرك بها حاصلاً ، لكن التبرك ليس من المقاصد الشرعية كما علمت ، فلا بدّ إذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيتها . وإذا سبرنا وقسمنا لم نجدها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ، ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب فتسكن إليه الملة وأهلها ، وينتظم حبل الإلفة فيها . وذلك أن قريشا كانوا عصبة مضر وأهلهم ، وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على سائر مضر العِزّةَ بالكثرة والعصبية والشرف . فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم . فلو جعل الأمر في سواهم لتُوُقِعَ افتراق الكلمة بمخالفتهم ، وعدم انقيادهم ، ولا يقدر غيرهم من قبائل مضر أن يردهم عن الخلاف ، ولا يحملهم على الكرّةِ ، فتفترق الجماعة وتختلف الكلمة »[2] .

ومع أني أميل إلى رأي ابن خلدون ، فإنني أرى أيضاً أن شرط

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤٢ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤٥ .

النسب كان مشروطاً ، وهو لم يعد وارداً في هذه الأيام ، لتقادم الزمن ، وزوال أهمية العصبية ، وصعوبة الجزم بالنسب القرشي بعد مئات السنين . ولأن الباحثين المعاصرين الذين يميلون إلى التسليم بثبوت صحة الأحاديث الواردة في النسب القرشي ، يميلون إلى تقييد شرط النسب ، ربما لأنهم لا يحبون أن يصرحوا بأنه كان في التاريخ ، ويجب أن يبقى هناك . يقول سعدي أبو حبيب[1] :

«ولكن نظرة نلقيها على تلك النصوص مجتمعة ، ترشدنا إلى أن هذا الشرط ليس على إطلاقه . إن ظاهر الحديث الخامس[2] يوجب جعل الرئاسة الأولى في الدولة في قريش [ما أقاموا الدين] . وأما ظاهر الحديث الأخير[3] فيضع قيداً آخر يتعلق بالسياسة ، إنه يأمر الأمة بحفظ حق قريش برئاسة الدولة متى حكموا بالعدل ، وأدوا أمانة الحكم ، وكانوا فيه من أهل الخير والرحمة» .

وبالعودة إلى سقيفة بني ساعدة ، نجد أن الصحابة اختلفوا فيما بينهم ، في تحديد الصفات المطلوبة في الرجل الذي يولونه أمرهم . ولو أن الرسول حدد رجلاً ، أو فئة يختار منها الخليفة لوصل الخبر إلى بعضهم أو معظمهم ، وشاع بينهم ، لخطورته وأهميته ، ولكانوا نفذوا أمر الرسول دون اختلاف ؛ ولكن كانت بينهم مجادلات حادة تشبه ما يدور في أيِّ مجلس نيابي معاصر ، مع اختلاف الدوافع والأسباب .

---

(١) أبو حبيب : دراسة في منهاج الإسلام السياسي ، ص ١٩٨ .

(٢) نص الحديث كما أورده ص ١٨٨ « إن هذا الأمر في قريش ، لا يعاديهم أحد إلا كبّه الله على وجهه ما أقاموا الدين » .

(٣) نص الحديث كما ذكره في الصفحة ذاتها : « إن لي على قريشٍ حقاً ، وإن لقريش عليكم حقاً ، ما حكموا فعدلوا ، وائتمنوا فأدوا ، واسترحموا فرحموا ، فمن لم يفعل منهم ، فعليه لعنة الله » .

وبعدما أدلى كل فريق بحجته ، ودافع عن وجهة نظره ، استقر الرأي على انتخاب أبي بكر ، رضي الله عنه ، الذي وجدوه رجل المرحلة ، وأفضل المسلمين لتولي ذلك المنصب الخطير .

موازين العصر الحاضر :

من مجمل الآراء التي أوردناها ، نستطيع أن نستنتج المواصفات الواجب توافرها في الشخصية الإسلامية التي تتصدى لقيادة الأمة في العصر الحاضر .

وقد رأينا أن بعضها متفق عليه بين المسلمين ، وبعضها مختلف فيه . ونظراً لصعوبة المرحلة ودقتها وكثرة الانحراف في المفاهيم والسلوك ، والتخلف العلمي الذي تمر به الأمة بالإضافة إلى الانقسام والتفتت ، كل ذلك يتطلب قائداً نموذجياً لا يفتقد إلى صفه مما ذكرناه ، مع أن ما لا يدرك كله لا يترك جله .

وبتوضيح أكثر إن القائد القدوة ، والأسوة الحسنة ، هو محمد بن عبد الله ﷺ . وبما أنه لن يكون في الأمة ولا في سواها محمد جديد ، فإن القائد يستطيع أن ينجح بمقدار ما يقترب في صفاته من محمد ﷺ فهو المعيار في كفة الميزان . وكي نبقى في عالم الواقع نقول : إن الصفات المطلوبة في القائد ، منها ما هو شرط ضروري لا يمكن التهاون فيه ، ولا يتغير بتغير الزمان ، ومنها ما يمكن أن يتغير بحسب الظروف ، كأن ترتفع حظوظ العالِم في ظروف الاستقرار ، والعسكري الشجاع الحكيم في حالات الحرب .

إذن على الناخب إن تأمنت له حرية الانتخاب وعلى الذي يريد أن ينتسب إلى حزب من الاحزاب أو يلتحق بحركة من الحركات أن يضع تقييماً (علامات) لكل صفة مطلوبة في القائد أو الرئيس بحسب المرحلة التي تمر بها الأمة ، ويعطي صوته لمن حصل على أعلى تقدير في عملية

« التقييم » مبتغياً في ذلك وجه الله ليس غير ، وهو ما عبر عنه العلماء باختيار الأفضل . ويجب ألا يفهم من الأفضل الأتقى أو الأعلم أو الأكثر تديناً أو أية صفة محددة ، بل الأفضل في المجموع العام .

« والذي يجب الانتباه إليه هنا ، هو أن الفضل والتفاضل في هذا المجال (مجال اختيار رئيس الدولة) ليس خاصاً بالدين فحسب ، بل هو بالسياسة وحسن الخبرة في أمور الحكم أيضاً . وعلى هذا الأساس كان يسير رسول الله ﷺ في اختيار ولاته ، وقادة جنده »[١] .

فإن كانت الصفات المطلوبة : سلامة العقل ، وسلامة البدن ، والعدل ، وصحة العقيدة ، والعلم ، والنزاهة ، والشجاعة ، ورجاحة العقل ، وبعد النظر ، وحسن التصرف ، والخبرة في أمور الدولة وسياسة الرعية ، والمقدرة على تأليف القلوب وتوحيد الأمة ، والحزم ، والمشاورة والبعد عن الاستبداد والاستئثار بالرأي . . . الخ ، فإن الناس لا يختلفون مثلاً في أنه لا يجوز تولية فاقد العقل ، ولا ينتخبه إلا فاقد عقل مثله ، ولكنهم يختلفون في أهمية بقية الصفات وتفضيل الواحدة على الأخرى.

وفي نظري إنه يمكن أن تقدم صفة على أخرى ، ويمكن التهاون في بعض الصفات ولكن لا يجوز التهاون في صفتين مهمتين لأن فقدان إحداهما يدمر الأمة ، ويقضي عليها .

الصفة الأولى ، التي لا تتغير هي صحة العقيدة ، لأن منحرف العقيدة ينحرف بالأمة ، فمن طبيعة البشر أن يقلد الصغار الكبار ، وأن يكون الناس على دين ملوكهم وقادتهم .

والصفة الثانية ، لا يعطيها بعض الناس أهمية كبرى ، بل لا ينتبهون إليها وهي « العدل » . فالعدل صفة تنبه إليها بعض الفقهاء دون

(١) أبوحبيب : دراسة في منهاج الإسلام السياسي ، ص ١٨٦ .

غيرهم وأولوها عناية خاصة ، وأفاضوا بالحديث عنها حتى ليقول أحدهم « الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم »[1] .

ويقول بعض الحكماء : « دولة الظلم ساعة ، ودولة العدل إلى قيام الساعة » . فعندما يعجز الشعب عن مقاومة الظلم ، وقد يعجز إذا كان شديداً ، يتخذ مواقف سلبية من القضايا المصيرية وغير المصيرية ، فيعجز القائد عن أي إصلاح ، ويعم الفساد . وقد يسرع الانهيار وقد يتأخر بحسب شدة الظلم والاضطهاد . وكلما تأخر الانهيار كان أقوى ، وكان الإصلاح أصعب . أما اذا تعرضت الأمة لأي اعتداء خارجي فإنها سرعان ما تنهار وينقلب النظام ، وهذا ما حصل لهتلر وموسوليني وأمثالهما .

فالعدالة شرط لازم في كل الظروف والأحوال ، كان هكذا في الماضي ، وهو كذلك في الحاضر ، وسيبقى كما هو في المستقبل .

وخارج هاتين الصفتين فإن الأمة الواعية تقدم في ظروف الحرب الشجاع الحكيم ، وفي الظروف التي تتطلب النهوض بالاقتصاد العالِم به ، وفي ظروف الانقسام السياسي حَسنَ التدبير .

وإن أردنا التلميح إلى مشاكلنا المعاصرة ، لوجدنا الأمة تعاني من التفتت والانقسام ، على جميع المستويات . هناك انقسام سياسي وحدود تجزئة فرضها المستعمر ، وهناك أرض محتلة ، وهناك انحراف عقائدي شمل غير الملتزمين من المسلمين ، كما شمل بعض الملتزمين بالاسلام أيضاً . وهناك تعصب بعيد عن العلم في صفوف كثير من المسلمين . وهناك هجمة معادية شرسة لم يعرف لها تاريخنا مثيلاً ، مدعومة

---

(١) الغزالي : التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، ص ٤٤ . وقال : إنه حديث شريف . ولكني لم أعثر عليه في الصحاح .

بالتكنولوجيا الحديثة ، والتفوق العلمي المذهل للأعداء . وهناك تخلف علمي واقتصادي وسياسي . . .

وكل ذلك كان يهون لولا الاختلاف الفكري والتشرذم العقائدي ، فهو من أكثر الآفات التي تفتّ في عضد الأمة .

لقد وقف المسلمون (عاطفياً) في صدر الإسلام مع الرومان في حربهم ضد الفرس وكلاهما عدو ، ومع ذلك تمنى المسلمون أن يتغلب الروم ، لأنهم أهل كتاب ، بينما الفرس مشركون ومن الطبيعي أن يكون الروم أقرب الى المسلمين من الفرس[1] .

في عصرنا الحاضر نرى المسلمين أشداء فيما بينهم ، رحماء متغاضين عن الأعداء ، حتى أن من لا يطلق لحيته عند بعضهم كافر مرتد يستحق القتل ، بينما لا يستحق من يدعو الناس إلى نبذ الإسلام واعتناق مبادىء مستوردة ليل نهار ، وعلى صفحات الصحف والمجلات ، أن يجادل بالتي هي أحسن على أقل تقدير .

إن القائد المسلم المعاصر ، يجب أن يكون بعيداً عن التعصب ، قادراً على توظيف ظاهرة الاختلافات المذهبية في مصلحة الإسلام ، وجعلها ظاهرة حية تؤدي إلى مناقشات هادئة ، لا تمنع التعاون ، والوقوف صفاً واحداً في وجه العدو المشترك ، على عكس ما هو واقع في حال الأمة من ترك للعدو يسرح ويمرح ، وانشغالها بعضها ببعض بتخطئة كل فئة لمخالفيها حتى التكفير ، ومحاربتها حتى الموت .

إن القائد المعاصر يجب ان يكون مؤهلا لتوحيد المفترق لا تقسيم

---

(١) جاء في أول سورة الروم : ﴿ ألم * غلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين ﴾ .

المؤتلف . ثقته بنفسه تجعله يبتعد عن سياسة لعبة التوازنات الداخلية ، لأنه على استعداد دوماً للتضحية بمركزه وبنفسه في سبيل ما يؤمن به . وأما في السياسة الخارجية فباستطاعته الاستفادة من التوازنات الخارجية ، وتضارب المصالح بين الدول غير الإسلامية .

القائد الحكيم لا يرى ضيراً في أن يكون الإنسان مسلماً ملتزماً وعربياً ، فلا تناقض بين العروبة والإسلام ، ولا عصبية لأي منهما على حساب الأخرى . التناقض هو بين مبادىء زائفة مستوردة تجعل أمة ما فوق غيرها من الأمم ، وبين دين متسامح يجعل الخلق كلهم عيال اللّه ، ولا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى .

إن القائد المسلم المعاصر ، يجب أن يفرق بين الإرهاب ومكافحة العدوان ، بين الجهاد في سبيل الله وقتل الناس في سبيل المال ، بين الحزم والظلم ، بين الشورى والفوضى ، بين التدين والتعصب ، بين المرونة السياسية والتنازل عن الحقوق ، حتى لا تتوالى التنازلات . . .

تعيين الموظفين والمعاونين :

ومن واجبات الرئيس ومن بيده التعيين أن يختار لمناصب الدولة الأصلح فالأصلح ، لأنه « إذا وسّد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة[1] » . والذي أميل إليه في معنى الساعة هنا أنها كناية عن الخراب والدمار . « فيجب على ولي الأمر أن يولي على كل عمل من أعمال المسلمين أصلح من يجده لذلك العمل ، قال النبي ﷺ : منْ ولي من أمر المسلمين شيئاً ، فولّى رجلاً وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله »[2] .

---

(١) رواه البخاري في باب العلم . ووسد : أي أسند .

(٢) ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص ٩ .

ويختار الأصلح لكل منصب ، لأن الله عز وجل يقول : ﴿ **إن خيرَ من استأجرت القويُّ الأمين** ﴾[1] والقوة من إمارة الحرب ترجع الى شجاعة القلب والخبرة في القتال ، وهي في الحكم ترجع إلى العلم بالعدل والقدرة على تنفيذ الأحكام[2] .

فاذا وجد رجلان أحدهما أعظم أمانة والأخر أعظم قوة قدم أنفعهما لتلك الولاية ، فيتقدم في إمارة الحرب القويُ الشجاع ، وإن كان فيه فجور فيها على العاجز الضعيف وإن كان أمينا . فلما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو ، أحدهما قوي فاجر والآخر صالح ضعيف ، مع أيهما يُغزى ؟ فقال : أما الفاجرُ القوي فقوته للمسلمين ، وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف ، فصلاحه لنفسه ، وضعفه على المسلمين ، فيغزى مع القوي الفاجر[3] .

« ولهذا كان النبي يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم ، وقال: إن خالداً سيف سلّه اللهُ على المشركين مع أنه أحياناً كان قد يعمل ما ينكره النبي ﷺ حتى أنه مرة رفع يديه إلى السماء ، وقال: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد لما أرسله إلى جذيمة فقتلهم ، وأخذ أموالهم بنوع شبهة ، ولم يكن يجوز ذلك ، وأنكره عليه بعض من كان معه من الصحابة ، حتى وداهم النبي[4] ، وضمن أموالهم . ومع هذا فما زال يقدمه في إمارة الحرب ، لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره ، وفعل ما فعل بنوع تأويل »[5] . وإذا كانت الحاجة في الولاية إلى الأمانة أشد ، قُدم الأمين ، ويُقدم في ولاية القضاء الأُعلم الأتقى .

---

(١) سورة القصص ، ٢٦ .
(٢) ابن تيمية : م . س ، ص ١٦ .
(٣) ابن تيمية : م . س ، ص ١٧ .
(٤) أي دفع دية القتلى .
(٥) ابن تيمية : م . س ، ص ١٧ .

« وسئل بعض العلماء : إذا لم يوجد من يولى القضاء ، إلا عالم فاسق أو جاهل ديِّن ، فأيهما يقدم ؟ فقال: إن كانت الحاجة إلى الديِّن أكثر لغلبه الفساد ، قُدّم الديِّن . وإن كانت الحاجة إلى العالم أكثر لخفاء الحكومات قُدّم العالم[1] . والمهم في هذا الباب معرفة الأصلح ، وإنما يتم ذلك بمعرفة طبيعة الولاية أو الوظيفة والمنصب .

بقي أن أشير الى نقطة مهمة هي أن أية قيادة هي تكليف ومسؤولية : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته »[2] وأن القائد مهما كانت صفاته ومؤهلاته هو بشر يخطىء ويصيب . فيجب على أفراد الأمة ألا يؤلهوه إن أصاب في قضية وأحسن ، وألا يسخطوا عليه ويسخروا منه إن اجتهد فأخطأ . بل يجب عليهم أن يحموه من الغرور كلما أصاب ونجح ، ويأخذوا بيده ويمنعوه السقوط كلما أخطأ .

« إن الحكم في الإسلام تعاون بين الحاكم والمحكوم على البر والتقوى ، وتكافل بينهما على الفضل والمعروف ، وتحاور بينهما للبلوغ إلى أسمى درجات العدل والسلام »[3] .

---

(١) المقصود به الفصل في القضايا الدقيقة ذات الجوانب الخفية التي لا يدركها إلا العالم المتمكن . «ابن تيمية : السياسة الشرعية ، ص٢٠ » .

(٢) رواه البخاري في أكثر من باب .

(٣) العشماوي : أصول الشريعة ، ص ١٧١ .

المصادر والمراجع

* **ابن الأثير ، محمد بن محمد ، أبو الحسن .**
ـ الكامل في التاريخ ، بيروت ، دار بيروت ودار صادر بدون رقم ، ١٩٦٥ م .

* **ابن تيمية ، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم .**
ـ السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، بيروت ، دار الكتب العربية ، بدون رقم وتاريخ .

* **ابن خلدون ، عبد الرحمن .**
ـ المقدمة ، بيروت ـ دار الكتاب اللبناني ط ٣ ، ١٩٦٧ م .

* **ابن سعد .**
ـ الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادر ودار بيروت ، بدون رقم ، ١٩٥٧ م .

* **ابن كثير ، الحافظ أبو الفداء .**
ـ البداية والنهاية ، مكتبة المعارف في بيروت ، ومكتبة النصر في الرياض ، ط ١ ، ١٩٦٦ م .

* **ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي الانصاري .**
ـ لسان العرب المحيط ، إعداد يوسف خياط ، بيروت ، دار لسان العرب .

* **ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحِميري .**
ـ السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ط ٣ ، ١٩٧١ م .
ـ مختصر السيرة ، إعداد محمد عفيف الزعبي ، مراجعة عبد الحميد الأحدب ، بيروت ، دار النفائس ، ط ٤ ، ١٩٨٤ م .
* **أبو حبيب ، سعدي .**
ـ دراسة في منهاج الإسلام السياسي ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .
* **أبو شريعة ، إسماعيل إبراهيم محمد .**
ـ نظرية الحرب في الشريعة الاسلامية ، الكويت ، مكتبة الفلاح ، ط ١ ، ١٩٨١ م .
* **الأصبهاني ، أبو محمد عبد الله بن جعفر بن حيان .**
ـ كتاب أخلاق النبي
تحقيق أحمد محمد مرسي ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، بدون رقم ، ١٩٧٢ م .
* **إيبش ، يوسف .**
ـ نصوص الفكر السياسي الاسلامي (الإمامة عند السنة) بيروت ، دار الطليعة ، ط ١ ، ١٩٦٦ م ..
* **البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله .**
ـ صحيح البخاري ، بيروت ، دار الفكر ، بدون رقم ، ١٩٨١ م .
ـ مختصر صحيح البخاري المسمى التجريد الصحيح لأحاديث الجامع الصحيح للزبيدي . تحقيق إبراهيم بركة ، مراجعة أحمد راتب عرموش ، بيروت ، دار النفائس ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .

* **بدران ، شارل .**
ـ أطلس العالم ، مطابع فالاردي ، ١٩٧٨ م .
* **البلادي ، عاتق بن غيث .**
ـ معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية ، مكة المكرمة ، دار مكة ، ط ١ ، ١٩٨٢ م .
* **تزو ، صون .**
ـ فن الحرب ، إعداد عمر حليق ، ط ١٩٦٩ .
* **الجرجاني ، على بن محمد الشريف .**
ـ كتاب التعريفات ، لبنان ، مكتبة لبنان ، بدون رقم ، ١٩٧٨ م .
* **الجوهري .**
ـ الصحاح في اللغة والعلوم ، نديم وأسامة مرعشلي ، بيروت ، دار الحضارة العربية ، ط ١ ، ١٩٧٤ م .
* **الحسيني ، محمد بن علوي المالكي .**
ـ محمد الانسان الكامل ، جدة ، دار الشروق ، ط ٢ ، ١٩٨٢ م .
* **حميد الله ، محمد .**
ـ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة . بيروت ، دار النفائس ، ط ٤ ، ١٩٨٣ م .
* **الحموي ، ياقوت .**
ـ معجم البلدان ، بيروت ، دار بيروت ودار صادر ، ط ١ ، بدون تاريخ .
* **خطاب ، محمود شيت .**
ـ الرسول القائد ، بيروت ، دار الفكر ، ط ٥ ، ١٩٧٤ م .

* **خليل ، عماد الدين .**
ــ دراسة في السيرة ، بيروت ، دار النفائس ومؤسسة الرسالة ، ط ٣ ، ١٩٧٨ م .

* **رضا ، محمد .**
ــ محمد رسول الله ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٧٥ م .

* **الزين ، سميح عاطف .**
ــ حركة التاريخ في المفهوم الإسلامي . بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .

* **صفا ، محمد .**
ــ الحرب ، بيروت ، دار النفائس ، ط ٣ ، ١٩٨٧ م .

* **الصنعاني ، محمد بن إسماعيل .**
ــ سبل السلام ، القاهرة ، شركة ومطبعة البابي الحلبي ، ط ٢ ، ١٩٥٠ م .

* **الطبري ، أبو جعفر بن جرير .**
ــ تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار المعارف ، ط ٢ ، بدون تاريخ .

* **طلاس ، مصطفى .**
ــ الرسول العربي وفن الحرب
دمشق ، مطابع الإدارة السياسية للجيش والقوات المسلحة ١٩٧٢ م .

* **عبد الله ، عبد الغني بسيوني .**
ــ النظم السياسية ، بيروت ، الدار الجامعية ، بدون رقم وتاريخ .

* **عثمان ، محمد رأفت .**
ـ رياسة الدولة في الفقه الإسلامي ، دبي ، دار القلم ، ط ٢ ، ١٩٨٦ م .
* **العجلاني ، منير .**
ـ عبقرية الإسلام في أصول الحكم .
بيروت ، دار النفائس ، ط ١ ، ١٩٨٥ م .
* **العسقلاني ، ابن حجر .**
ـ تهذيب التهذيب ، دار صادر . طبعة مصورة عن طبعة مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ، حيدر آباد ، ط ١، ١٣٢٧ هـ .
* **العشماوي ، محمد سعيد .**
ـ أصول الشريعة ، دار الكتاب المصري القاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٩ م .
* **العقاد ، عباس محمود .**
ـ موسوعة عباس محمود العقاد الإسلامية .
بيروت ، دار الكتاب العربي ، ط ١ ، ١٩٧١ م .
* **الغزالي ، أبو حامد ، حجة الإسلام محمد بن محمد .**
ـ التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، القاهرة ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ط ١ ، ١٩٦٨ م .
* **الغزالي ، محمد .**
ـ فقه السيرة ، القاهرة ، دار الكتاب العربي بمصر ، بدون رقم ، ١٩٥٦ م .
* **الفراء ، أبو يعلى محمد بن الحسن .**
ـ الأحكام السلطانية .
القاهرة ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط ١ ، ١٩٣٨ م .

* **القاسمي ، ظافر .**
ــ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ـ الحياة الدستورية . بيروت ـ دار النفائس ، ط ٣ ، ١٩٨٠ م .
ــ الجهاد والحقوق الدولية العامة في الإسلام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ط ١ ، ١٩٨٢ م .

* **قلعه جي ، محمد رواس .**
ــ دراسة تحليلية لشخصية الرسول ، بيروت ، دار النفائس ، ط ١ ، ١٩٨٨ م .

* **كمال ، أحمد عادل .**
ــ الطريق الى المدائن ، بيروت ، دار النفائس ، ط ٣ ، ١٩٧٧ م .
ــ القادسية ، بيروت ، دار النفائس ، ط ٥ ، ١٩٨٠ م .

* **كيالي عبد الوهاب ، وزهيري كامل .**
ــ الموسوعة السياسية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات ، ط ١ ، ١٩٧٤ م .

* **مالك ، مالك بن أنس أبو عبد الله .**
ــ الموطأ ، بيروت ، دار النفائس ، ط ٢ ، ١٩٨١ م .

* **الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب ، أبو الحسن .**
ــ الأحكام السلطانية .
القاهرة ، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .

* **المبارك ، محمد .**
ــ الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية .
بيروت ، دار الفكر ، ط ١ ، ١٩٦٧ م .

* مناصرة ، عبد الله علي السلامة المحمد .
ـ الاستخبارات العسكرية في الإسلام بيروت، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٩٨٧ م .

* النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
ـ نهاية الأرب ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، بدون تاريخ .

* هارت ، ج . ليدل .
ـ الاستراتيجية وتاريخها في العالم .
ترجمة الهيثم الأيوبي ، بيروت ، دار الطليعة ط ١ ، ١٩٦٧ م .

* هارت ، مايكل .
ـ المائة الاوائل ، ترجمة خالد أسعد عيسى ، وأحمد غسان سبانو ، دار قتيبة ، ط ١ ، ١٩٧٩ م .

* هويدي ، فهمي .
ـ القرآن والسلطان ، بيروت ، دار الشروق ، ط ١ ، ١٩٨١ م .

* الواقدي ، أبو عبد الله محمد بن عمر .
ـ كتاب المغازي ، تحقيق مارسون جونس ، بيروت ، عالم الكتب ، ط ٣ ، ١٩٨٣ م .

فهرس الخرائط

الصفحة	الخريطة
٢٠	أقسام شبه جزيرة العرب
٣٤	خريطة الأنساب القحطانية
٣٦	خريطة الأنساب العدنانية
٣٧	خريطة مواطن أشهر القبائل العربية في عهد النبي ﷺ
٤٩	غزوة بدر
٦١	غزوة أحد
٦٨	خريطة غزوتي أحد والخندق
٧٥	غزوة الخندق
٩٦	حدود حرم مكة
١٢١	فتح مكة
١٢٤	فتح مكه
١٣٦	غزوة حنين
١٤٧	غزوة تبوك

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة	٧
الباب الأول	
مرحلة الدفاع	
الفصل الأول : أرض الدعوة وبيئتها	
١ ـ أرض الدعوة	١٧
ـ جزيرة العرب	١٨
ـ أقسام الجزيرة العربية	١٨
ـ المنـــاخ	٢٢
ـ الثروة النباتية والحيوانية	٢٣
٢ ـ بيئة الدعوة	٢٤
ـ مكة المكرمة	٢٤
ـ تجارة قريش	٢٧
ـ المـدينـــة	٢٨
ـ أسواق العرب	٢٩
ـ الحالة الدينية	٢٩
ـ أصنام العرب	٣١

- قبائل العرب ..
الفصل الثاني : معركة بدرالكبرى
- تمهيد ... ٣٩
- التحركات قبل المعركة ٤٢
- صحابي يعطي رأياً سديداً ٤٦
- وضع المشركين ٤٦
- المعركــة ٤٨
- نتائج المعركة ٥٠
- بدر في القرآن ٥٢
الفصل الثالث : معركة أحد
- تـمـهيـد ٥٥
- المعــركــة ٥٩
- نتائج المعركة ٦٥
- الدروس المستفادة ٦٦
الفصل الرابع : غزوة الأحزاب (الخندق) ٦٩
- بعد أحد ٦٩
- قبيل الخندق ٧٢
- قوات المشركين ٧٣
- الخنـــدق ٧٦
- الحصـــار ٧٧
- تحليل المعركة ٨٤
الباب الثاني
المرحلة الهجومية
الفصل الأول : اتفاق الحديبية
- بعد الأحزاب ٩٠

- على طريق العمرة .. . ٩٣
- طريق أخرى ٩٥
- موقف جديد ٩٧
- وقررت قريش المفاوضات . .. ٩٨
- اتفاق الحديبية ١٠٠
- نتائج اتفاق الحديبية ١٠٣

الفصل الثاني : بعد الحديبية ١٠٧

- أبو بصير يؤدب قريشاً ١٠٧
- نهاية خيبر ١٠٨
- عمرة القضاء . . . ١١٠
- غزوة مؤتة . . ١١١
- عدة سرايا ١١٣

الفصل الثالث : فتح مكة

- خطيئة قريش ١١٥
- خزاعة تستنجد بالمسلمين ١١٦
- ندم لا ينفع ١١٧
- الموقف في المدينة ١١٧
- ذهول أبي سفيان ١١٩
- خطة دخول مكة ١٢٢
- تحليل غزوة الفتح. ١٢٦

الفصل الرابع : بعد الفتح

- هدم الأصنام.. . . .. ١٣١
- غزوة حنين ١٣٢
- حصار الطائف . . .. .١٣٧
- توزيع الغنائم ١٣٩

- دروس وعبر من حنين والطائف ... ١٤١
- إسلام ثقيف ... ١٤٣
- غزوة تبوك ... ١٤٥
- نتائج غزوة تبوك ... ١٤٦
- نهاية المهمة ... ١٤٨

الباب الثالث
تحليل عام

الفصل الأول : قيادة الرسول العسكرية

- تمهيـــد ... ١٥١

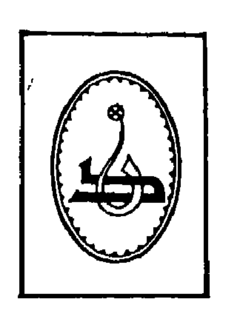
الصفات القيادية ... ١٥٦
- القدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب ... ١٥٧
- الشجاعة الشخصية ... ١٦١
- الارادةالقوية ... ١٦٢
- تحمل المسؤولية بلا تردد ... ١٦٣
- معرفة مبادىء الحرب والخبرة بأصولها ... ١٦٤
- نفسية مستقرة ثابتة لا تتبدل في حالتي النصر والهزيمة ... ١٦٤
- بعد النظر ... ١٦٥
- معرفة نفسيات الجنود وامكاناتهم ... ١٦٧
- الثقة المتبادلة بين القائد وجنوده ... ١٦٨
- المحبة المتبادلة ... ١٦٨
- شخصية قوية مهابة ... ١٦٩
- اللياقة البدنية ... ١٧٠
- الماضي الناصع المجيد ... ١٧١
- **الرسول ومبادىء الحرب** ... ١٧٣

الفصل الثاني : قيادة الرسول السياسية ١٨٣
- تمهيـــد ١٨٣
١ - سياسته في انشاء الدولة .. ١٨٦
- نص الصحيفة ١٨٩
٢ - سياسته الداخلية ١٩٤
- حسن التصرف .. . ١٩٤
- مع أبي سفيان ١٩٥
- مع سعد بن عبادة ١٩٥
- مع أبيّ ابن سلول ١٩٦
٣ - سياسته الخارجية ١٩٨
- في الحديبية. ١٩٨
- استمالة مالك بن عوف ٢٠٠
- الاتصالات الخارجية ٢٠١
الفصل الثالث : معايير القيادة الاسلامية
- تـمهيـد ٢٠٧
- توجيه من القرآن الكريم ٢٠٩
- موازين الفقهاء ٢١١
- رأى الماوردي ٢١١
- رأى الفراء ٢١٢
- رأى ابن خلدون ٢١٣
- موازين العصر الحاضر. ٢١٥
- تعيين الموظفين والمعاونين ٢١٩
المصادر والمراجع ٢٢٣
فهرس الخرائط ٢٣١

من مَنشورَات «دَارالنفائسْ»

للمؤلف

* الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، للدهلوي . (تحقيق) .
* الحج والعمرة والأدعية المأثورة .
* حكومة العالم الخفية . (تحرير وتقديم) .
* الفتنة ووقعة الجمل ، رواية سيف بن عمر (جمع وتقديم) .
* الفوائد، لابن قيم الجوزية . (تحقيق) .
* في سبيل شباب مسلم متحرر.
* مسند عبد الله بن عمر (تحقيق) .
* مختصر صحيح البخاري (مراجعة وتحقيق) .
* موطأ الإمام مالك (تحقيق) .



من منشورات «دار النفائس»

* أصول التفسير وقواعده ، الشيخ عبد الرحمن العك .
* مختصر صحيح البخاري ، تحقيق ابراهيم بركة ، م . أحمد راتب عرموش .
* موطأ الإمام مالك (رواية يحيى بن يحيى الليثي) ، تحقيق أحمد راتب عرموش .
* دلائل النبوة (للأصبهاني) ت . د. محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس .
* الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين (في علوم الحديث) للقاسمي. تحقيق عاصم البيطار .
* قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث (للقاسمي) ، تحقيق محمد بهجة البيطار .
* موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين للغزالي (اختصار القاسمي) تحقيق عاصم البيطار .
* الفوائد ، ابن قيم الجوزية ، تحقيق أحمد راتب عرموش .
* الانصاف في بيان أسباب الاختلاف (للدهلوي) تحقيق أحمد راتب عرموش .
* مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، للدكتور محمد حميد الله .
* التبيان في آداب حملة القرآن (للنووي) تحقيق الشيخ عبد العزيز السيروان .
* مختصر سيرة ابن هشام . تحقيق عفيف الزعبي وعبد الحميد الأحدب .
* نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، ظافر القاسمي .
* عبقرية الاسلام في أصول الحكم ، الدكتور منير العجلاني .
* تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد ، تحقيق د. احسان حقي .
* الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري .
* الفتنة ووقعة الجمل ، رواية سيف بن عمر ، إعداد أحمد راتب عرموش .
* معجم لغة الفقهاء ، الدكتور محمد رواس قلعه جي والدكتور حامد صادق قنيبي .
* سلسلة موسوعات فقه السلف ، الدكتور محمد رواس قلعه جي .
* سلسلة استراتيجية الفتوحات الاسلامية ، أحد عادل كمال .
* سلسلة مشاهير قادة الإسلام ، بسام العسلي .
* سلسلة مشاهير الخلفاء والأمراء ، بسام العسلي .
* معجم المؤنثات السماعية ، د. حامد صادق قنيبي .
* الأمثال العربية والعصر الجاهلي ، محمد توفيق أبو علي .

رقم : 214 ـ 89

هذا الكتاب

إنه بحث بأسلوب العصر ولغته من جهة، وضمن إطار الإسلام والإيمان بنبوة محمد (ﷺ)، من جهة أخرى. يتناول بالتحليل الأسلوب القيادي للنبي العربي، أعظم قائد عرفته البشرية. وهو دليل للقادة، الذين يودون الالتزام بقول الله عزّ وجل: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنة ﴾، يبين أنجع السبل للنجاح الخالد في القيادة السياسية والعسكرية.

وهو للقراء، عموماً، خير معين على التمييز بين القائد الكفء، والقائد المزيّف، الذي وضعته عوامل خاصة في مركز القيادة.

في القسم الأول منه مختصر للسيرة، وفي القسم الثاني تحليل عام لقيادة الرسول (ﷺ) العسكرية، ولقيادته السياسية، مع تبيان لصفات القائد الناجح، ودراسة لمعايير القيادة الاسلامية في الماضي والحاضر.

